

أنطونيو سكارميتا
رواية
@ketab_n
Follow Me
14.6.2014
فتاة الترومبون
ترجمة:
صالح علماني

أنطونيو سكارميتا

فتاة الترومبون



ترجمة صالح علماني



فتاة الترومبون

في شهر كانون الأول من عام 1944، وجدت نفسي أشاطر المهاجر الماليسي استيبان كوبيتا الصمت، وكلانا جالس على المصطبة أمام المتجر، عند ناصية تقاطع شارعي بروت واسميرالدا، عندما لَمَع وميضٌ مبهر من أسفل، جعلنا ننهض معاً فجأة، ونضع يدينا كواقية فوق حواجبنا، ونمسح بنظرنا الضوء غير المتناهي الذي بدا أشبه بزلاجة من الذهب أو هوائي من الألماس.

أبهر ذلك الوميض الفوسفوري العظيم كل الجوار، ولم يُتح لنا تمييز الأشخاص الذين يقتربون منا. وعندما صار هؤلاء على بُعد نصف كوادرا فقط، أدركتُ أن الأمر يتعلق برجل شاب ومربوع، ترافقه طفلة عمرها سنتان، لا ترتدي سوى ثوب خفيف، أحمر اللون، مناسب للحر القاسي. وكانت الطفلة تحمل بين يديها مصاصة مطاطية مرضضة بأسنانها الصغيرة، بينما يحمل الشاب ترومبوناً أذهلني بحجمه.. إنه مدفع ضوء.

توقف الاثنان قبالتنا. ومن جيب بنطاله المخملي الملطخ ببقع متفرقة مضى عليها زمن طويل، أخرج الرجل ورقة مجعدة تداولتها أيدٍ كثيرة، ومسح بها عرق جبهته، قرأها، ونظر بثبات إلى عيني استيبان كوبيتا، كأنه يقرأ فيهما بصمات أصابعه، ثم وضع الورقة ثانية في جيبه، وهتف بالماليسية قائلاً:

ـ لقد مات غلين ميللر.

ـ ومن هو هذا؟ - سألتُ، بينما الطفلة تشدني من قميصي.

ـ غلين ميللر؟ إنه أعظم موسيقي في هذا القرن. صاحب معزوفات: بمزاج طيب، إبريق معطل، بنسلفانيا 6500، سيريناد على ضوء القمر...

ألا تعرفانه؟

داعب الرجلُ الترومبون، كأنه يواسيه ثم نظر بأسى إلى الصغيرة.

ـ لستُ أفهم شيئاً من الموسيقى المعاصرة - قلت مُصالحاً - فقد بقيتُ مسمراً عند موزارت وبيتهوفن.

أشعل استيبان سيجارة:

ـ في ليالي رأس السنة، يرقص مواطنونا، أحياناً، رقصات التوروميا. هل تعرف «توروميا الفاكهة»؟

وضع عازف الترومبون مبسم الآلة بين شفتيه، ثم أبعده دون أن يُخرج منه أي لحن، وبلل شفتيه بلسانه.

ـ «توروميا الموت» - قال بابتسامة مريرة، وأضاف:- لقد توغل النازيون حتى كبد وطننا.

ـ ولكنه يقاوم! ـ هتف استيبان بتفخيم أكبر مما عهدته فيه.

ـ يقاوم! ـ قال الرجل مضيفاً شيئاً من اليأس إلى ملامحه.

عاد يبلل لسانه، وانحنى ليمسح بظاهر يده عرق البنت.

ـ أتبيعون شيئاً للشرب في المتجر؟

ـ بيرة غير مبردة ببيزو واحد، وبيرة مبردة ببيزو وعشرين سنتافو. ويمكن للبنت أن تشرب زجاجة من مرطبات بيلز أو بيدو.

فاعترف الرجل:

ـ لا أملك نقوداً محلية لأدفع الثمن. ولكننا عطشانان.

فقال كوبيتا:

ـ لا بأس، أنا أدعوكما.

ـ لا أقبل الصدقات.

ـ ليست صدقة يا رجل. إنه عطش.

ـ أحب أن أدفع الثمن بعملي.

ـ لا بأس - قال كوبيتا - سأدفع لك بيزوين اثنين إذا عزفت لنا موسيقى بهذه الآلة.

- موافق.

وعندئذ حدث شيء جعلني أضحك في تلك اللحظة، ثم جعلني بعد ذلك، مع مرور السنوات، أبكي، وهو يثير فيَّ الآن، وأنا أمسك هذا الكتاب بين يدي، الانفعالين نفسيهما في آن واحد. فقد مدّ الرجل سحّابَة ترمبونه إلى أقصاها، وبقفزة واحدة، يمكن القول إنها قفزة ملائكية، تعلقت الصغيرة بالآلة الموسيقية، وبينما هي تتأرجح عليها مثل لاعب عقلة الجمباز، أومأت للرجل طالبة منه أن يبدأ العزف.

- هذا تكريم لغلين ميللر، المتوفى في حادث طائرة، بينما هو يبث الحماسة في قوات الحلفاء للقتال ضد النازيين في أوروبا.

وبالرغم من جهلي بكل ما له علاقة بالموسيقى المعاصرة، فقد تعرفتُ على اللحن، ربما بفضل أشجار الصنوبر الكرتونية التي يُحتفل بها، في الصحراء، يوم 25 كانون الأول.

كانت الموسيقى معزوفة «وايت كريسماس»، أما الطفلة التي كانت تتعلق، بكل معنى الكلمة، بتلك الآلة البرونزية، فهي آليا إيمار كوبيتا، مؤلفة «فتاة الترومبون».

روكي بافلوفيتش

I

أول ما يسألكِ الناس عنه، عندما لا يكون لكِ أب ولا أم، هو ما اسم أبويك.

وإذا كنتِ لا تعرفين اسميهما، وكان الأب يدعى بكل بساطة «بابا»، والأم ليست سوى «ماما»، فإنهم سيقولون لكِ: يا للمسكينة، وسيقولون إنك جميلة، وإن عينيك زرقاوان، وأشياء من هذا القبيل.

جميع البنات في السينما زرقاوات العيون، ويتكلمن الإنكليزية.

أما الناس في أنتوفاغاستا، باستثناء جدي استيبان، فلهم بشرة قاتمة، وأعين بلون القهوة، وهم قصار القامة جداً. أما «جدو» فقادر، عندما يلعب كرة السلة، على إدخال الكرة في السلة، دون أن يقفز.

في استعراض 21 أيار، أصعد على كتفيه، فيبرز رأسي أعلى من كل الناظرين، وأستطيع أن أرى، فوق شاحنة، مجسماً من الكرتون للسفينة اسميرالدا، تلك السفينة الحربية التشيلية العظيمة التي أغرقها البيرويون في حرب القرن الماضي، عندما صرخ قبطاننا أرتورو برات: «إلى الهجوم!»، وقفز إلى المدرعة المعادية وحيداً، فخردقه البيرويون، وقال الجميع في تشيلي إنه بطل. وأنا كنتُ مغرمة على الدوام بأرتورو برات.

بعد ذلك يريد الناس أن يعرفوا من أين جئتِ. وكانت جزيرة «جيما» تُلحَق آنذاك بهذه البلاد أو تلك، حسب مسار الحرب في دكان ذويّ. عندئذ طلب مني جدي أن أرد عليهم بأنني من أوروبا. ولهذا شعري أشقر، وأنا أطول قامة، وأقوى بنية من طفلات المدرسة الابتدائية الأخريات، ولا أتقن التكلم جيداً بأي لغة، لأنهم في أوروبا يتكلمون، في نهاية المطاف، لغات كثيرة.

في السنة التحضيرية الأولى، ألبسوني بذلة ذات تنورة زرقاء، كما البحارة، وقبعة بيريه كبيرة، كانت تنزل حتى حاجبي. وكنتُ في أول الأمر جيدة باللغتين القشتالية والإنكليزية، لأني كنت أفهم كل شيء عندما أكتبه، أفضل مما أفهمه عندما أقرؤه. ولكنني كسبت بعد ذلك ميدالية الرياضيات. كان جدي ينام القيلولة بجانب آلة حسابات الدكان، على كرسي من الخيزران. وكنتُ أنا ألبي طلبات السيدات اللواتي يأتين لشراء ثُمنٍ من الزيت، أو مئة غرام من السكر، أو ربع من الخبز، أو نصف كيلو من اللوبياء، أو شريحتين من المرتديلا.

لقد حفظتُ جدول الضرب على منضدة المتجر، قبل أن أحفظه عن أغلفة الدفاتر المدرسية.

ولأنني كنتُ مختلفة عن البنات الأخريات، فقد كان أقصى ما أتطلع إليه هو أن أكون مثلهن. فكنت أريد، في المقام الأول، أن تتحول بشرتي إلى السمرة. وكنتُ أعرض نفسي للشمس بالاستلقاء على منشفة إلى جوار قن الدجاج؛ لكن بشرتي لم تكن تكتسب السمرة بعد ساعة من ذلك، وإنما تصير أشبه ببيضة مقلية. فيضع لي الجد مرهماً منعنعاً، وأهدئ أنا الحريق بإسناد خديّ إلى أكياس من الثلج الذي يحيط بزجاجات البيرة في المتجر.

في حفلات أعياد الميلاد، كانت الأمهات يوزعن علينا أدواراً للألعاب الطفولية، فيعطينني دوماً دور «بياض الثلج» أو «ذات القبعة الحمراء»، لأني أبدو كواحدة من الأفلام على حدّ قولهن. في المرة الأولى التي أخذوني فيها إلى السينما، أعجبتُ بالجياد والشريرات أكثر من إعجابي بالبطلات. أعجبتُ بالساحرات مثلاً. وقد كنّ اختصاصي. تعلمت أن أقول ***هوكوس بوكوس***، وكنت مقتنعة بأنهم إذا ما وضعوا مكنسة في يدي، فإنني سأتمكن من الطيران بها إلى أوروبا. صنعتُ من الكرتون أنفاً معقوفاً، ربطته وراء رقبتي بمطاط،

وأخفتُ الأولاد في اللعب وأنا أتكلم إليهم بلغة تجعلهم يبكون.

وبعد ذلك، كانت رغبتي الثانية هي امتلاك أب وأم. أو أن أعرف اسميهما على الأقل. لم يكن يهمني كثيراً عدم مجيئهما لرؤيتي في تشيلي إذا كان لديهما عمل آخر يقومان به في سواحل ماليسيا. إنني «يتيمة» حسب ما سمعت من معلمة الرسم وهي تتكلم مع راهبة مادة الديانة، ولهذا السبب ليس لي أب ولا أم. وقد وقعتُ في مشكلة عويصة في أول الأمر، لأني ظننت أن الأيتام هم أشخاص يظهرون في الدنيا دون أن ينجبهم أحد.

وحين سمعت الأمُ ماتيلدي نظريتي هذه بعد شهور من الشكوك، قالت لي إن تلك المأثرة لم يتوصل إليها أحد سوى سيدنا يسوع المسيح الذي حُبل به دون خطيئة. وصار العالم يبدو لي في كل مرة أشد تعقيداً، لأن الناس يقولون لي إن الخطيئة هي أمر سيئ جداً.

في أحد الأيام كنتُ جالسة إلى منضدة المتجر، فلعق رجل مخمور ركبتي المتسختين بلسانه، وقال لي إنني جميلة جداً، وإنه يريد ارتكاب خطيئة معي. ولكن ذلك المخمور لم يكن يروقني كأبٍ. أما سيدنا يسوع المسيح بالمقابل، فكان يبدو لي رجلاً مشوقاً. كنت أرسمه بالأزرق، وأدثره بعباءة حمراء، وأطيّر من حوله ملائكةً ممتلئين ذوي لون طحيني. لقد كان هناك في كل غرفة من بيتنا رسم لسيدنا يسوع، ورحت أعتاد على أنه أبي.

جدي قال لي إنه يمكنني أن أتخيل في رأسي الأبله كل ما أشاءه، ولكن دون أن أُفلت لساني بقول ذلك بأي حال من الأحوال، لأنهم قد يأخذونني بسبب ذلك إلى دار المجانين. وقال لي إن سيدنا يسوع المسيح، ولأسباب سيشرحها لكِ كاهنٌ في أحد الأيام، لم يكن له أبناء، ولكن كان له أب. ومن هو أبو سيدنا يسوع المسيح؟ فأجابني جدي بأن هذه مشكلة عويصة، لأنه في حالة سيدنا، كان هو وأبوه الشخص نفسه. أتفهمين؟ لم أفهم ذلك قط. ولكن إذا لم

يكن ليسوع أبناء، فمن المؤكد أنه سيحب أن تكون له طفلة، وطوال سنوات، عندما كانت الراهبات يعلمنني «أبانا الذي في السماء»، كنتُ أرددها كما لو أنني أتوجه إلى شخص من الأسرة.

لم أقل ذلك لأحد، لأنه قد يكون خطيئة.

في حفلات أعياد الميلاد، كانت الأمهات والآباء يأتون لأخذ أبنائهم من البيت الذي تقام فيه الحفلة، وأبقى أنا وحدي مع صاحبة البيت، أستمع إلى مسلسلات الرعب من المذياع. فجدي إستيبان لا يأتي ليأخذني إلا بعد أن تكون الشمس قد اختفت في البحر. لأنه يخرج، عند الغسق، ليمشي على طول الشاطئ وهو يرتدي ملابس أنيقة لا تشوبها شائبة، بما في ذلك القبعة التي يستخدمها للتهوية بين حين وآخر. كان يدخن ثلاث أو أربع سجائر، ثم يعود إلى البيت، متلفتاً إلى الوراء، كأن هناك من يتبعه. وكان يأتي ليأخذني من الحفلة، حين يكون أصحاب المنزل قد وضعوا الشرشف على المنضدة من أجل العشاء. فكان الجد يتناول بضع حبات من الزيتون، ويشرب كأساً من النبيذ الأبيض، ويسمح لأطفال المضيفين بأن يلعبوا بساعته الجيبية. وبسبب تلك الساعة، كان الجيران يظنون على الدوام أن الجد غني، وأنني سأرث عنه ثروة كبيرة.

في بعض الليالي المقمرة، يخرج إلى الشارع، ويجلس على كرسي من القش ليدخن وهو يفرك السيجارة بين أصابعه، كأنه يريد أن يُنَعِّم التبغ. وكنتُ آتي إلى جانبه، فيحيط كتفي بذراعه ويقول لي «يا حبي الصغير». ويضمني إلى صدره بقوة أحياناً، ويطلب مني أن أُرَكِّزَ على قلبينا. كان يريد أن يعرف إذا ما كانا ينبضان بإيقاع واحد.

سؤال وجهه إليّ بينما هو ينظر إلى جمرة سيجارته، جعلني أتحفز بشأن أمر غير مؤكد:

ـ ما هو اسمكِ الحقيقي؟

ـ مجدلينا.

ـ هذا هو الاسم الذي أطلقه عليك عازف الترومبون. ولكن قبل ذلك، ألا تتذكرين اسماً آخر؟

ـ لا يا جدو.

ـ ربما كان اسم أمك؟

ـ لا أدري.

ـ وكيف تعرفين أن جدتك تدعى آليا إيمار؟

ـ لا أعرف يا جدي.

ـ ألا تتذكرين أي شيء؟

ـ أرغب في أن أتذكر. كانت هناك حرب. وبعد ذلك رحلة طويلة في سفينة.

كانت تتجمع عند قدميه أعقاب السجائر، وكان الجد يسحقها بحذائه.

ـ أأنا جدكِ؟

ـ طبعاً.

ـ وكيف تعرفين ذلك؟

كان عمري آنذاك سبع سنوات. وأظن أنني هززت كتفي.

II

لم يفتح الجد متجره يوم الاثنين، وبدلاً من أن يطلب مني ارتداء الزي المدرسي، قدم إليّ علبة زرقاء اللون، مربوطة بشريط أصفر، ينتهي بعقدة على شكل وردة. كان طيب المزاج، وأطول قامة مما كان عليه في أي وقت. وفوق قميصه الداخلي الذي بلا أكمام، كانت تظهر على صدره شعرات شقراء بين تلويات الشعر الأشيب. ذهبتُ إلى الحمام، ورأيته يطلي وجهه برغوة يدعكها بالفرشاة، ثم

حلق ذقنه بعد ذلك بشفرة جيليت زرقاء. وكنت أجمع الأغلفة التي تأتي الشفرات ملفوفة بها.

وفجأة بدا كما لو أنه مذهول من نفسه أمام المرآة، فتراجع منحنياً إلى جانبي. أشار بإصبعه إلى صورته:

- أتلاحظين شيئاً غريباً في وجهي؟

- الرغوة.

- هذا ظاهر. انظري عن قرب أكثر.

ألصقتُ أنفي بزجاج المرآة، ونفيتُ بحركة من رأسي.

- ألا تلاحظين.. كل شيء فيّ يهرم باستثناء عيني. مازالت لي النظرة نفسها التي كانت لي وأنا في العشرين.

- هذا قبل قرن يا جدو.

- الناس يقولون إنه لا بد لي من أن أتزوج. ما رأيكِ أنتِ؟

- أرفض ذلك.

- لماذا يا نينا؟

وكان هذا هو المقرف في تسميتي **مجدلينا**. فالجميع ينادونني **نينا** أو **نينيتا**. يضجرني أن يحرّفوا أسماء الناس. ففرانثيسكو السباك ينادونه **بانتشو**، وإغناثيو السباح المنقذ يلقبونه **ناتشو**. يضجرني ذلك.

- إذا أردتَ الزواج لا بد أن تكون لديك خطيبة.

- بالطبع.

- وخطيبتك هي أنا.

أنهى إستيبان حلاقة ذقنه، وربت على خديه براحتيه المبللتين بالكولونيا.

- لستُ أذكر، حسب علمي، أنني تقدمتُ لطلب يدك.

- لا لزوم لذلك يا «تيبي». فأنا أعرف أنه ليس لي أبوان لتطلب يدي منهما.

سقطت زجاجة الكولونيا من يده على المغسلة. وظهر فجأة، تحت

رغوة الصابون، خيط نحيل من الدم. غامت نظرته كما لو أن ستارة أُسدلت على عينيه.

ـ ماذا سميتني؟

ـ جدو؟

ـ بأي اسم ناديتني؟

ـ أنا؟

ـ ألم تُسمني «تيبي»؟

ـ كان ذلك انتقاماً، لأنكَ ناديتني **نينا**.

انحنى جدو إلى جانبي، بل كان أشبه بمن يجثو في الكنيسة، وضغط على وجنتي.

ـ اسمعي جيداً يا مجدلينا. هناك ثلاثة أشخاص فقط نادوني باسم «تيبي» على امتداد حياتي الطويلة. أمي، وأخي رينو، وجدتك آليا إيمار. وليس هناك في تشيلي من عرف هذا اللقب.

إنني أتذكر تلك اللحظة بالتفصيل، لأنني شعرت بخوف رهيب عندما بدأت يدا جدي ترتعشان على خديّ، واغرورقت عيناه بدموع ظلت عالقة برموشه دون أن تنسكب.

ـ إنني خائفة يا جدو - قلت.

ـ لا تكوني حمقاء. ليس ثمة ما يخيفك. فأنا جدك وخطيبك!

ـ ولكنك عجوز وستموت. وسأبقى أنا وحيدة.

ـ أنا لن أموت يا حبي. إنني خالد تماماً.

ـ الدكتور يقول إنك تدخن كثيراً.

ـ سأترك التدخين.

ـ ويقول إن ظلالاً قاتمة تملأ رئتيك.

ـ لا يا نينيتا، كانت هناك **ظلال** في رئتيّ، ولكن الشمس طلعت الآن. ثم إن الناس الذين لديهم مبرر للعيش لا يموتون.

ـ هذا غير صحيح يا جدي. ففي السينما هناك كثيرون لديهم

رغبة كبيرة في العيش، ولكنهم يموتون أو يُقتَلون. مثلما جرى لأبي.

ـ أبوك لم يُقتل.

ـ ولماذا هو ليس معي إذن؟

ـ يجب أن نتعلم الانتظار. سينزل فجأة من إحدى السفن، ويأتي إلى هنا، مثلما جئتِ أنت.

ـ وأين هو عازف الترومبون يا جدو؟

ـ هذا سهل جداً. هناك أربع جهات أصلية. الشمال، والشرق، والجنوب، والغرب. وهو في واحدة منها.

انتهينا من ارتداء ملابسنا، وأخذني جدي، وهو يرتدي بدلة الفسق، إلى شارع مايبو. مررنا قبالة المدرسة، وتمكنتُ من رؤية زميلاتي في الصف، الحبيسات في حصة الرياضيات، وهن ينظرن إليّ من نافذة الطابق الثاني.

نزلنا حتى مركز المدينة، اشترينا علبة سجائر وزجاجة كراش برتقال من متجر ريستوفيتش، وتفحصنا الساعات في واجهة متجر آل زلاقط، وحيّينا سائق الشاحنة المتوقف أمام دكان أنطونيو سوكو، وأهدى إليّ الدكتور رينوديتش ريشة من التي يستخدمها الأطباء في كتابة وصفاتهم.

وفي المرفأ، ذهبنا إلى مركز الجمرك، وقدم رولاندو الطويل إلى الجد بعض الأوراق التي توجد بينها أوراق كربون، وطلب منه أن يوقّع عليها دون أن يقرأها، لأن كل شيء نظامي تماماً. أخرج الجد دفتر الشيكات. رفعت جسمي بالوقوف على رؤوس أصابعي، وعند مستوى الأنف بالذات، رأيته يدون مبلغاً من تلك التي لا تُرى إلا في السينما.

ـ سآتيك بها يا إستيبان - قال رولاندو وهو يمضي إلى عمق المستودع.

راح الجد يغني. خلع قبعته وشدّها إلى صدره، وقد فعل ذلك كما لو أن قلبه ينبض قافزاً. وحين نظر الوقت في الساعة التي أخرجها من

جيبه، قطب جبينه باهتمام.

- ما الذي سيجيئك به يا جدو؟

هرش رأسه. وحين أخفض بصره اكتشف وجود بقعة من الغبار على حذائه الأيسر، فمسحها بقماش البنطال.

- آه، لا شيء يستحق الاهتمام.

- أريد أن أعرف ما هو. يجب أن يكون مهماً لتجعلني أتغيب عن المدرسة، ولتعتمر قبعتك في الصباح.

مسّد شاربه، وسكب نظرته على جبهتي.

- أرى أنه لا بد لي من أن أخبرك.

- ما الذي ذهب يبحث عنه؟

- إنها عروس.

اشتعل وجهي كما لو أنني قد ابتلعت الشمس في جرعات. كان الغضب شديداً إلى حد لم يفسح لي المجال لذرف الدموع. ومن عتمة المستودع، رجع رولاندو مبتهجاً وهو يومئ بيد، ويجر بيده الأخرى دراجة نارية حمراء. كان يعلق على كتفه خرقة فانلة قدّمها إلى استيبان عندما صار إلى جانبه.

- إنها جديدة، ولكنها تلوثت بالغبار خلال الرحلة.

- أتظنها تسير؟

كان هناك وراء منضدة الكونتوار صفيحة بنزين. تعاونا معاً لسكب السائل في خزان الدراجة النارية، ثم امتطى جدو المقعد الجلدي، وأدار مفتاح التشغيل. وبرفسة واحدة من قدمه، امتلأ الفضاء بسحابة هائلة من الدخان.

- ما ماركتها؟

- إنديانا، يا نينا.

- لا تعد إلى تسميتي **نينا**، وإلا لن أخبرك أبداً كيف عرفتُ أنهم كانوا يسمونك **تيبي**.

III

باعوا لنا في مخازن الجيش خوذتي هاربين من الخدمة. وحسب ما قاله العسكري المكلف بالتموين، لم يكن هناك من يستطيع الحصول عليها، لأن هناك في تشيلي صفوفاً ممن يرغبون في أن يُجندوا.

ـ تصور - قال الرقيب - جيش ظافر على الدوام، لم يُهزم قط. المجندون سعداء: سمعة جيدة، وزي مهيب، وطعام مع لحم البقر كل يوم. وفي عطلة يوم الأحد، تُقدم لكل واحد منهم كذلك قطعة نقد لتلميع جزمتة في ساحة كولون. الفتيات مجنونات بهم، لأنهم يتعلمون هنا كيف يكونون رجالاً، وتشيليين، وآباء صالحين. بينما يهيم، بالمقابل، الهاربون من التجنيد الحمقى على وجوههم في الصحراء، تحوم فوق رؤوسهم نسور الرخمة، وبعد يومين من ذلك تنقر أحشاءهم. يمضون بلا ماء ولا زاد. بلا وطن ولا مستقبل... عشرون بيزو ثمن كل خوذة.

كان لون خوذة استيبان أخضر طحلبياً، ولها بطانة داخلية، تستقر فوق الشعر، وتحول دون ملامسة المعدن للرأس. كان يبدو مثل تايرون باور في فيلم «فصيلة لا تقهر». أما خوذتي فمن نموذج قديم، رمادية تقريباً؛ وبالرغم من أنني ثبتها بأحزمة جلدية تحت ذقني، إلا أنها ظلت تتراقص فوق جبهتي، وتتهدل فوق الأذن اليسرى أو اليمنى، حسب الحركة. وفي البيت، لفّ استيبان رأسي بمنشفة على طريقة العمامة الإسلامية، ثم غطى تلك العمامة بالخوذة.

مزق المفتش البلدي، أمام أنفينا، المخالفة المرورية التي سجلها ضدنا بعد الأمتار الأولى التي قطعناها على الدراجة النارية دون خوذ

نظامية. ومع أن الخوذتين اللتين كنا نضعهما لم تكونا أنيقتين كتلك التي يبيعونها في سنتياغو، فقد اعتبرهما جيدتين وصحيتين. ضحك الجد بينما نحن ننطلق بسرعة باتجاه «البورتادا»، مبتعدين عن المدينة، وقال:

ـ يا للروعة. لقد اقترفنا أول مخالفة قبل أن نقوم بأي عمل. هذه بلاد شديدة التطرف في التمسك بالقانون. فالأوراق فيها أثمن من الإنسان.

كانوا يبيعون في المتاجر نوعين من المياه الغازية، أحدهما سائل شفاف والآخر قاتم اللون. «بيلز» و«بيدو». أو «الشقراء والسمراء» كما يقول الإعلان الدعائي عنهما. جلسنا على الصخور نتأمل جمال «البورتادا» الطبيعي، وهي صخرة هائلة، نحتتها الأمواج على امتداد آلاف السنين، إلى أن حوّلتها إلى قوس هائل. وعلى الشاطئ نفسه الذي يعصف فيه رجع أمواج قوية، كان يوجد إعلان يقول: ***ممنوع السباحة***.

قال الجد وهو يفرك شاربه بحماسة:

ـ هذا هو «قوس نصرنا». فالبلدان التي ليس لها تاريخ، مثلما يقول بافلوفيتش، يجب أن يكون لديها طبيعة على الأقل. إنني هنا منذ أربعين سنة تقريباً، ولم أشهد حدوث أي شيء.

ـ لقد افتُتحت دور السينما.

ـ مشكلة الأفلام أنها تُصغِّر الواقع بدل أن تضخمه. في نهاية هذا الأسبوع سيعرضون ***كينغ كونغ***. إنه فيلمي المفضل.

ـ وكيف تعرف أنه فيلمك المفضل إذا كنتَ لم تره بعد؟

ـ الأمر واضح. هناك مشهد في أعلى بناء «**إمباير ستيت بلدينغ**». الغوريلا يصعد إلى هوائي المبنى، حاملاً معه امرأة شقراء، وفي النهاية يهاجمونه بطائرات الهيلوكبتر. لقد قرأت كل شيء في مجلة «**ايكران**».

ـ أريد مشاهدة الفيلم يا جدو.

- إنه لمن هم فوق الثالثة عشرة.

- موظف شباك التذاكر يعرفني.

- لن يرغب في أن يفرضوا عليه غرامة لسماحه بدخول قاصرين.

ثم إنه فيلم رعب. من الأفضل ألا تشاهديه.

أفرغتُ زجاجة الشراب المرطب بجرعة واحدة، وألقيت بها بعيداً لتتحطم على الصخور.

- نينا!

- إنني غاضبة بسبب كل ما لا أستطيع رؤيته ومعرفته. سأكمل ثماني سنوات، والجميع يعاملونني كطفلة رضيعة. كما لو أنني من بلّور. ولكنني قوية إلى حد أستطيع معه قيادة دراجتك النارية.

أخرج استيبان واحدة من علب سجائره الكثيرة التي يحملها في جيوب بنطاله وسترته، كأنه يخشى أن يضيع فجأة في الصحراء، ولا يجد تبغاً. أشعلها، وسحب منها نفساً بتلذذ عميق. ثم بصق بعد ذلك نتفة من التبغ على ركبته.

- الناس طيبون يا صغيرتي. لا يريدون إلحاق الأذى بكِ.

- إنهم يشفقون عليّ.

- الجميع تقريباً يعيشون مع آباء وأمهات. يرونك وحيدة ويجرون حساباتهم.

- ماذا يقولون؟

- يقولون هذا الذي قلته له. يجب أن أتزوج.

- ولماذا لم تفعل ذلك؟

مسح لحيته ساهماً، ثم أنزل يده حتى حنجرته، وبقي يلعب بلف خصلة من شعرتين بين أصابعه.

- إنني انتظر شخصاً.

- أهي آليا إيمار؟

- ممكن.

ـ أنت تصمت دائماً عند هذه النقطة يا جدو.

ـ ما أعرفه قليل جداً، ولا أريد تصديقه. والقليل الذي لا أصدقه، أُفضل أن أنساه.

ـ سيخبرني أحدهم يوماً بما جرى لها.

كسر بقهقهة مدوية إيقاع الكلمات التي بدت كأنها تتحول إلى حجارة وهي تخرج من فمه:

ـ عندما أموت، عليكِ أن تواصلي العيش بعدي بسعادة كبيرة. وإلا ظن الناس أني كنت فاشلاً.

ـ لا يمكن لشخص لديه دراجة نارية جميلة كدراجتك أن يكون فاشلاً.

ـ لقد كانت هذه الدراجة أحد شيئين رغبت فيهما طوال الحياة. إنني أندفع ضد الزمن الآن، في الوقت الذي يندفع فيه الزمن ضدي.

ـ ما معنى هذا؟

ـ يعني أنه عليّ أن أحبك كثيراً، وأهتم بأن تترعرعي سليمة وجميلة، وأن أجوب على الدراجة النارية كل مناظر الساحل، حتى أتعرف على أمواجه واحدة واحدة، وأعرف أين هي أفضل الصخور التي تسكنها السرطانات.

ـ السرطانات؟

أخرج من الحقيبة الجلدية قطعة حديدية متطاولة، تنتهي برأس له شكل سهم. وسكيناً صغيرة ذات حد مرهف، وكيس قنب من تلك التي يأتون فيها باللوبياء والرز إلى المتجر.

ـ تعالي معي - قال وهو يقتادني من يدي على الصخور المؤدية إلى الشاطئ.

توقف فوق الحيد الصخري، وبعد أن انحنى وتفحص وعورته، بدا أنه مقتنع بالمكان، وأمرني بأن أنظر.

ـ انتبهي، لأنني سأعلمك الآن كيف تكونين حرة. أو ما أفهمه أنا

من الحرية على الأقل. هذا يعني ألا يبيع أحدنا نفسه لأحد لأنه جائع.

تلمس بيده الجدار الداخلي للصخرة، وكان الماء يرتطم به بعنف، ولا يلبث أن يتراجع بعد ذلك بوداعة وسرعة. كانت هناك زوائد مغطاة بطحالب قوية. دسّ استيبان قبضته فيها، فطفرت دفقة سائل إلى وجهه.

- عندما يحدث لك هذا لا تخافي. إنه رحيق الحرية.

كشط في تلك النقطة قليلاً، وأخرج نوعاً من المحار، كشف ما بداخله بكسره إلى فلقتين. وكانت في الداخل كتلة هلامية ذات لون أصفر. وضعها في الكيس، ونزل بضعة أمتار إلى أن مرّ من فجوة واسعة، تقسم الصخر. وغرس الكتلة الهلامية في رأس الحربة، ومثل من يتحرى إذا ما كان هناك عرق معدن في سراديب منجم، راح يمرر الحربة بين الفتحات والمغاور. وفجأة، ظهر سرطان، وانقض على الطعم ممسكاً به بفكية المخلبيين. وهي الفرصة التي انتهزها إستيبان ليغرس فيه الحربة، مخترقاً قشرته الصلبة. بعد ذلك غرسه في خطاف أكبر حجماً من الحربة، وراح يجوب ظلال الصخور، ساحباً معه الحيوان المتخبط، إلى أن برز شيء ضخم ولزج، وأحاط بالسرطان كما لو أنه يمتصه. في هذه اللحظة، ألقى «جدو» الخطاف، وانتزع الإخطبوط تماماً من مخبئه. وبكل قوته، ضربه مرة بعد أخرى بحافة صخرة، إلى أن أطلق الحيوان المخلع الحبر من مجساته، وانهار متراخياً مثل هيولى مائعة. أنهى استيبان عملية الصيد كلها خلال أقل من خمس دقائق. وضع الإخطبوط في الحقيبة، وأشعل سيجارته المئة في ذلك اليوم؛ ثم قال لي وهو ينفث الدخان نحو سحابة:

- الطريق إلى الحرية هي حربة صيد، وسرطان، وإخطبوط. وبعد ذلك مقلاة، وزيت، ومسحوق فلفل حار، وحبة بطاطا. أي أنها بكلمات قليلة: إخطبوط على الطريقة الغاليسية.

IV

خرج الجد باكراً في الصباح وهو يحمل تحت إبطه بعض صور أشعة إكس السوداء، وأتت امرأة لتفتح المتجر، وتظل فيه خلال النهار، حتى موعد الغداء. إنها شابة، ولكنها تخلو من الحماسة تجاه نفسها. لا تشتري فساتين من المركز، وتفضل ارتداء مريلة على الفساتين الرائجة التي تعرضها الواجهات. لا تكاد تستخدم المكياج، ولا تخلع سترها الرمادية إلى أن يبدأ الزبائن بالمجيء لشراء مقادير صغيرة من المواد في موعد تناول وجبة الضحى الخفيفة. تتكلم الماليسية مع أصدقاء إستيبان ومعارفه بنبرة قاسية، كما لو أنها تؤنبهم، ولا تتكلم معي إلا بالإسبانية. عندئذ يرق صوتها، وتمسك شعري الأشقر الطويل بين يديها، وتعمل طويلاً لجدله في ضفائر، ثم تجمعه بعد ذلك إلى أعلى، ليكلل رأسي.

في المساء، تذهب إلى السينما، مع جدو، لمشاهدة أفلام للكبار، ثم يقومان بعد ذلك بجولة، سيراً على الأقدام، في ساحة كولون. ويتناولان الصودا في النادي الاجتماعي الماليسي، في شارع ماتا. وعندما يرجعان ليلاً، يضع استيبان اسطوانات في الفونوغراف، وتنهمك هي في أثناء ذلك، في حياكة صدرية أخرى رمادية، ستكون لي في هذه المرة.

في غرفة البيانو، ودون أن أكون قد لاحظت ذلك، وُضعت الكتب كلها في علب كرتونية، وحُفظت كل الأشياء في صندوق خشبي. يقولون إننا سنذهب إلى سنتياغو. لم يبق على الرف، الذي اختفى عنه كذلك تمثال العذراء، سوى كرتي الأرضية. وعلى محيطها تظهر خطوط الملاحة البحرية، فأُقلّب مخيلتي في محاولة لتذكر شهور حياتي الأولى في سواحل ماليسيا، وبعض تفاصيل

الرحلة في السفينة، عبر البحر المتوسط، والمحيط الأطلسي، والمحيط الهادي.

تلفت انتباهي علبة مخبأة داخل حزمة البيانو. انتظر ساعة يتوافق فيها غياب الجد، وانشغالها هي في المتجر. أشحذ كل حدّة أظفاري كي أفك الأربطة السوداء، وأقلب محتويات العلبة على السجادة. هناك خمس أو ست صور، أتعرفُ فيها على اسيبان مع أشخاص غرباء، ومجموعة قصاصات صحف ذاوية إلى حدٍ تفلت معه نتفٌ منها عندما أحركها.

لا أفهم شيئاً من مضمون القصاصات، ولكنني أسجل التواقيع الواردة في نهاية المقالات. روكي بافلوفيتش وأندريس غوميز ستارك. أدون الأسماء التي أميزها، وسط تلك الكتابة الغامضة، على دفتر الرياضيات: استيبان كوبيتا، رينو كوبيتا، جيرونيمو فرانك، رولاندو الطويل، ألاميرو تورينتس، غابرييلا ميسترال، خوسيه كوبيتا، خوسيه اياست، وآليا إيمار. وفي أحد المقالات، هناك صورة لبرج أجراس كنيسة. يدعى «سيتري سوني». في الليل، وضعت «هي» ملاءاتها في غرفة الضيوف، وحقيبة جلدية مفتوحة، لها لون القهوة الحائلة الباهتة، تظهر منها بعض الملابس الداخلية، وثلاث بلوزات مطرزة، عند العنق، بخيوط خضراء وحمراء.

هي ستبقى.

هي تدعى جوفانا. وأتناولُ أنا عندئذ حقيبتي المدرسية، والكرة الأرضية، وسكسناً وحربة صيد السرطان، وخطاف صيد الإخطبوط، ودفتر الرياضيات، وبعض السراويل الداخلية القطنية، والتنورة الرمادية، والكنزة الزرقاء، وبنطالي الجنز الوحيد، وأمضي إلى المرفأ لأُبحر، بالتسلل إلى سفينة، دون دفع الأجرة.

بما أن استيبان لم يعرف شيئاً قط عن آليا إيمار، فإنه يريد الآن أن يمحو مجدلينا من حياته. لقد كانت أول عبارة قالها لي: «لك اسم

طويل جداً بالنسبة لسنك الصغيرة».

أرصد غرفة الطعام قبل أن أغادر. الجد يدخن كعادته وهو يستمع إلى اسطوانته المفضلة. هناك صوت رجولي حاد يغني: «*أخبريني من أنتِ، أخبريني أين تمضين، أيتها القناع المرح الذي يصرخ بي لدى المرور.*» وعلى الطرف الآخر من الطاولة، هناك رجل ضئيل، نظارته نازلة حتى طرف أنفه، يتفحص على ضوء المصباح رقائق صور أشعة إكس السوداء التي يجمعها إستيبان منذ شهور على طاولته.

أسمعهما يتكلمان.

- فلنفترض أنك بعت البيت والمتجر بمئة ألف. إذا ما أودعت النقود في المصرف، بفائدة قدرها عشرة بالمئة، فستؤمن لك حوالي ألف بيزو في الشهر. ليس المبلغ بالثروة الكبيرة، ولكنك لن تموت من الجوع أيضاً.

- الدراجة النارية لن أبيعها.

- لا تبعها. ولكنك مصاب بالتهاب المفاصل أيضاً.

- ما معنى هذا؟

- هذا يعني أن ركبتيك ومعصميك لم تعد مثلما هي لدى شاب في العشرين.

- لقد احتجت إلى أربعين سنة كي أشتري الإنديانا.

- تمتع بها طالما استطعت ذلك. ولكن اذهب إلى سنتياغو. هناك يمكنهم معالجتك.

- وجوفانا؟

- لو كنتُ مكانك لأخذتها معي يا دون إستيبان. إنها مواطنتك... ومجدلينا بحاجة إلى أم.

- ما الذي تُلمح إليه؟

- أن تتزوج منها، إذا كانت لا ترفض ذلك.

- لا يمكنني الزواج يا دكتور.

- أما زلت تنتظر آليا إيمار؟

- بلهفة.

- ألم تسمع ما يروونه؟

ـ يقولون إنها ماتت. إنهم جهلة. يختلقون هذه الأقاويل كي ينتزعوها من رأسي.

- بل تقال أمور أسوأ. يقال إن الموت سيكون راحة وخلاصاً لها.

- ماذا أخبروك؟

- إنها تتنقل وهي تهذي، كأنها شبح، من جزيرة إلى أخرى في الأدرياتيكي. ويقولون إنها... يجب الا أخبرك بهذا يا دون إستيبان.

- قل يا رجل، لقد جرحتني جرحاً قاتلاً بهذه الصور الشعاعية. فأكمل جميلك بإطلاق رصاصة الرحمة عليّ.

- على العكس، أريد أن أزيح عنك غماً يُثقل عليك. فنهاية مرضك يمكن أن تتأخر إذا ما أظهرتَ معنويات جيدة. إذا ما قمت بأشياء تُسعدك.

- الدراجة النارية تُسعدني، ولكنك تقول الآن إن الظلال السوداء في الرئة تواصل التمدد والانتشار.

- ضمن حدود معينة.

- ماذا أخبروك عن آليا إيمار؟

- إنه أمر فظيع يا سيدي. أنا لا أعرف اللغة المالية جيداً، وربما لم أفهم جيداً ما قاله مواطنوك. ربما كانوا يعنون شيئاً آخر.

كانت إبرة الفونوغراف قد وصلت إلى نهاية الأسطوانة، فرفع إستيبان الذراع المعدني الثقيل ووضعه على مسنده.

- إنني أسمعك يا دكتور.

- عليك أن تنساها. فعقلها لم يعد يُجمِّع. يقولون إنها تتنقل من قرية إلى قرية، حاملة دلو ماء وممسحة، وتقرفص في السوق لتغسل الدم، من الموضع الذي اغتصبوها فيه. تفعل ذلك في كل القرى.

ـ لقد فعلتُ عكس ما كان عليّ عمله. كان عليّ أن أرجع في السفينة نفسها التي جاءت بي إلى أنتوفاغستا.

ـ كانت أزمنة حرب. ولا يمكن لأحدنا أن يتحكم بزمام القدر. عليك الآن مسؤوليات أخرى: مجدلينا، وجوفانا، ورئتاك. أترك التدخين رحمة بنفسك.

ـ هذا سيحرمني من متعتي الوحيدة.

ـ بالرغم من كل شيء يا إستيبان. ألف بيزو كفوائد شهرية ليس بالمبلغ السيئ.

ـ وتكاليف العلاج؟

ـ حسن، من المؤكد أنك ستجد هناك مورداً آخر.

أخرجتُ من مخزن المؤن تفاحة وبرتقالة.

إنها وجبتي للرحلة البحرية.

V

كنتُ قد دونت من قبل، في دفتر الرياضيات، أسماء زوارق الصيد التي ترسو في المرفأ. كان الصيادون ينامون القيلولة بعد الغداء؛ فهم يخرجون بشباكهم إلى عرض البحر في ساعة مبكرة من الفجر أو عند الغروب، حسب نوع الأسماك المتوافرة في الموسم. ويهربون إلى أنتوفاغاستا عند انتصاف النهار، وهي ساعة تختبئ فيها حتى الأسماك من قوة الشمس. ويبقى أبناؤهم في زوارق الصيد الراسية، يهزون المجاديف عارضين على المتسكعين البطالين أن يحملوهم في زوارقهم لإلقاء نظرة، عن قرب، على عابرات المحيطات الكبيرة الإيطالية التي تقدم استراحة للسياح، قبل أن تنطلق نحو كاياو. وكان المسافرون الأوربيون يتراشقون بالماء على شاطئ

الحمامات البلدية، بملابس بحر موجزة جداً، تكشف بعض الشعر الأجعد حول أعضائهم التناسلية، فيلتقط لهم فتيان شاطئ لاس الميخاس صوراً، يبيعونها بعد ذلك، عند أبواب المدرسة الثانوية، على أنها قذارات انحلالِ أخلاقٍ أسوجي.

كانت أيام الآحاد هي أفضل الأيام، وكان في كل زورق صبي يشجعنا على الصعود معه، للاقتراب من سفن تحمل اسم **جوزيف فيري** أو **دوناتيلو**. كانت لدي عشر ملاحظات مدونة في بطاقات أفكر في استخدامها عندما أكتب موضوع إنشاء عن البحر والريف، وهو موضوع مفضل عند معلمة اللغة القشتالية التي كانت قد هاجرت من غابة مطيرة في الجنوب، ثم انكمشت متجعدة حتى العظام في جفاف الصحراء. كانت زوارق الصيادين تحمل أسماء: **القرصان رينفو**، **الجمجمة الصلعاء**، **خُطاف نيكولاس**، **الساق الخشبية**، **سندوخان المغامر**، **ذئب البحار السبعة**، **إعصار الباسفيك**، أو **هول البرازيليين**، ولكن المركب الوحيد الذي كان هناك، في يوم ثلاثاء هروبي ذاك، هو **قرش الكناري**، يقوده صبي في الحادية عشرة، يعلك اللبان فاتحاً فمه بصورة هائلة، يمكن معها أن تمرّ عابرة محيطات بين لوزتيه.

- كم تتقاضى مني لحملي إلى السفينة؟

نظر بفتور إلى كتلتي البيضاء، وقال بازدراء:

- السفينة بعيدة جداً.

- لا. إنها حيث تلقي البواخر مراسيها.

- أليس هناك مركب آخر يوصلك؟

- قل دفعة واحدة كم ستتقاضى مني

- عشرة.

- سأدفع لك ثلاثة.

- خمسة.

- سأدفع أربعة.

ـ سأوصلك.

خلعتُ حذائي، وتقدمت وأنا أحمله إلى المركب. وضعت حقيبتي في المؤخرة. قفزت لأتفادى أن يبلل الموج تنورتي، وصعدت إلى الزورق متشبثة بذراعه. بدأ يجذف، ولم يوقف مجزرة اللبان إلا عندما أومأ لي بذقنه لأنظر إلى أسفل، قائلاً لي:

ـ لقد ابتل سروالك الداخلي.

ضممت ركبتي بشدة وقد احمر وجهي خجلاً. فانفجر الصبي في الضحك، وفرقع بالون اللبان في فمه.

عندما صرنا بجانب السفينة، طلبت منه أن يقترب بـ **قرش الكناري** من سلّم السفينة.

ـ ماذا تريدين أن تفعلي؟

ـ الذهاب إلى أوروبا.

ـ أنت مجنونة!

ـ المجنون هو أنت الذي تبقى هنا.

صعدتُ درجات السلّم بالهدوء نفسه الذي يصعد به المحكومون بالإعدام إلى المشنقة. وكلما تقدمت وأنا أحمل الحقيبة على كتفي، كانت تتضخم أكثر فأكثر هيئة الرجل الذي له مظهر أميرال، والذي كان ينتظر وصولي هناك في الأعلى. تخثر اللعاب في فمي، وأحسست بالدم يتراكم بين عيني وأنفي.

عندما صرت في أعلى السلّم، أردت التسلل من جانب مؤخرة المارد ذي الزي الناصع البياض، ولكنه أوقفني ممسكاً جديلتيّ شعري بيده الضخمة. قال لي شيئاً لم أفهمه، مشيراً بإصبع شرس إلى دفتر سجلاته الكبير. هززت كتفي، وأردت المواصلة قدماً.

ـ تشيلية؟

نفيت برأسي. نظر الرجل الضخم نحو جبال المدينة بإيماءة واسعة.

ـ من أنتوفاغاستو؟ – سألني.

نفيت برأسي، وكشّرت كمن ستهم بالبكاء.

- ماما؟ بابا؟

إذا ما كان هناك في حياتي شيء من ذلك المدعو بابا وماما، فإنها اللحظة التي يتوجب عليهما فيها ألا يتركاني في مهب الريح. كنتُ بحاجة إلى أن يبعثا إلي بإلهام أينما كانا. وللمرة الأولى فهمتُ ما الذي كانت تعنيه راهبة دروس الديانة، عندما تتحدث عن صلاة مفعمة بالإيمان. إحساس متزامن بالضعف والقوة ملأ رئتيّ بالهواء. وقوة لا يمكن لي أن أصفها إلا بالإلهية، دفعتني لأن أرفع ذراعي، وأمدّ إصبعي السبابة بتسلطٍ قاضٍ، وأشير إلى داخل السفينة، إلى زوجين غرينغيين يتأملان جبال الميناء بنظرة طويلة.

زاد البحار المرتبك من قناعتي، وحرك ساقه التي كانت تثبتني على منصة الدخول ليفسح لي الطريق قائلاً:

- اصعدي، اصعدي.

قررت الابتعاد بأسرع ما يمكن عن ذلك المكان؛ فسحبت حقيبتي نحو مقدمة السفينة، وجلست هناك أنظر إلى الزورق ذي المحرك الذي يعيد إلى السفينة جماعة المتنزهين من الشاطئ. لن تتأخر السفينة **أنطونيو فيفالدي** في رفع مرساتها، وعليّ أن أبحث عن مكان أختبئ فيه، لكي أصل إلى أي نقطة على الكوكب لا يكون فيها وجود لجدي الخائن. ومن خلال دروسي في الجغرافية، كنت أعرف أن السفينة المتوجهة إلى الشمال، تتوقف في غواياكيل، وبنما، وسان فرانسيسكو. ربما أنزل في هذه الأخيرة، لمجرد أنني قرأت في أحد الأيام عن زلزال بديع دمر المدينة. وكنتُ أعرف كذلك أن روبرت لويس ستيفنسون، مؤلف «*جزيرة القراصنة*» كان قد عاش في أوكلاند.

وماذا سآكل؟

في السفينة لا يمكنني اصطياد السرطانات. عليّ أن أقتات طوال

شهر على التفاحة والبرتقالة.

بانضباط.

حزُّ برتقال كل ليلة. وقضمة تفاح في النهار.

وماذا عن العطش؟ عندما نصل إلى الإكوادور ستكون هناك عاصفة استوائية. وسأشرب ماءً يهطل من السماء. ستباركني الملائكة. وستبول مطراً فضياً نحيلاً على لثتي، وسأعرف كيف أشكر بابا وماما على طيبتهما.

أما استيبان كوبيتا، فيمكنني التأكد من أنني لن أغفر له أبداً.

VI

انتقامي من «تيبي» كان قاسياً ومنهجياً. وإذا كان قد تمكن من إخراجي من فضاءات البحر واحتمالاته غير المتناهية، فلا بد لي من أن أمرغ أنفه الآن، لأنه أعادني لأعيش ثانية في جحر الفئران هذا.

وقد كانت انتوفاغاستا مكاناً مناسباً جداً لهذه الإستراتيجية؛ فالفئران فيها سمينة ومنفرة، حتى إن القطط تهرب منها.

كان هناك في مستودع المتجر صف من مصايد الفئران. إذا ما أدخلت إصبعك مصادفة في إحداها، فسوف يأخذونك عندئذ لبتره. وصرتُ كلما وجدت فأراً عالقاً في المصيدة، أحمله من ذيله وأضعه بين ملاءات سرير الجد.

«هذا ما أشعر به»، كانت رسالتي إليه في الأيام الأولى.

لقد سرق الجد وجوفانا بحري وأوروباي. ولم يعد أمامي سوى أن أكون طفلة مجتهدة في المدرسة، وأن أحمل شموعاً إلى العذراء في أيام الآحاد.

وقد كان لمسلسل «هذا ما أشعر به» لحظات مبهرة أخرى.

فبالقرب من قن الدجاج، كنتُ أصطاد، بحركة سريعة من يدي، ذبابات ذات رؤوس خضراء وقوائم مرتعشة؛ فأدوخها بهزها في قبضتي، ثم أجمعها معاً بعد ذلك، بربطها بخيط رفيع. فإذا حاولت إحداها الطيران في اتجاه، منعها شد الأخريات الخيط إلى اتجاهات أخرى، فيتحول ذلك كله إلى استعراض منفر من الطنين الصاخب والارتطام بنافذة الجد، في الوقت الذي يكون قد استلقى لينام القيلولة.

وكان اختصاصي الآخر هو تحنيط الحشرات. فقد كنت أغرس فراشة بدبابيس، وأثبتها على قطعة أنيقة من المخمل الأسود؛ مثل هدايا الشبان إلى محبوباتهم، عندما يقدمون لهن خاتم الخطوبة. وكان جمال الحشرة متعددة الألوان، يتعارض تماماً مع وقار قاعدة التثبيت السوداء. إنه الحِداد يبتلع الحياة. أي: «هذا ما أشعر به».

لقد أمسك الجد بي، وقطع جناحي. منعني من السفر.

لم أدر كيف ولا متى، ولكن الجد ظهر فجأة في عابرة المحيطات، وكان يرتدي سترة أميرال بيضاء. توجه غاضباً نحو أقصى ركن في قاعة الطعام، حيث كنتُ أتذوق نوعين من البيض: *sunny side up* و *sunny sun down*، قدمهما إليّ «الميتر» الإنكليزي. هؤلاء الفرينغيون شعراء رهيبون، فإذا كانوا قادرين على هذا التلاعب بالألفاظ لتسمية بيضتين مقليتين، فما الذي لن يقولوه عن الأشياء السامية. لم أكن أعرف سوى جملة غرامية واحدة، تعلمتها خلال تلك الساعات في السفينة: *I love you madly* (أحبك بجنون). كان يرددها لي صبي عمره ثماني سنوات، أحمر الشعر، عندما يتوقف عن قراءة رسوم دونالد دَكْ وميكي ماوس.

أمسكت أصابعُ الجد شعري الأشقر، وأنهضني عن الكرسي في الوقت الذي وُضِعت فيه أمام عيني بالضبط، أشد بيوض القرن المقلية غنائية. وليس من غير المحتمل أن يكون بعض الشَّعر قد بقي

ملتصقاً بيديه عندما أفلتني، بعد ساعة من ذلك، ليلقي بي كقمامة فوق الفراش. كان القبطان يرافقه وهو يوجه الشتائم بالإيطالية إلى كل العاملين في السفينة، مشيراً إليّ بإصبع ضار، بينما البحارة يحنون رؤوسهم ويوافقون.

- السيد كوبيتا سيرفع ضدنا، في المحاكم، قضية اختطاف صبية قاصر! وما الذي تفعلونه أنتم أيها الحمقى! بدلاً من أن تحرسوا بعيون يقظة، تنامون القيلولة أو تتصفحون في قمراتكم مجلات نساء عاريات.

- لا، ليس في نيتي عمل شيء من هذا أيها القبطان - قال جدو، دون أن يفلت رأسي، وأضاف :- لا أريد محاكم.

تجاهله القبطان، وتوقف أمام الضابط الذي كان يراقب منصة الدخول إلى السفينة في أعلى السلّم.

- في أيامي، كان يجري دفع ثمن مثل هذا الخطأ بتعليق المذنب على الصاري الكبير. وبعد ذلك يُلف بملاءة مقيداً بالحبال، ويُلقى به إلى البحر لتأكله الأسماك. أتريد أن نفعل بك هذا يا مارتيني؟

- ولا بأي حال أيها الأميرال.

- وكيف ستُصلح الضرر الذي سببناه لمواطننا هذا؟

ثم أضاف وهو يتوجه إلى جدو:- *Parla italiano?* (أتتكلم الإيطالية)؟

- عشرة بالمئة.

- عشرة بالمئة من الإيطالية! من منكم أيها السفهاء يتكلم حتى خمسة بالمئة من الإنكليزية، من الفرنسية، من الألمانية! بل إنني أتساءل، كم منكم أيها الصقيليون والجنويون يتكلم واحداً بالمئة من الإيطالية. ولكن انظروا هنا إلى مواطننا هذا، ذي الألف وطن ومئة محيط. ما الذي سيجري لنا؟ الرجل يعيش سعيداً في حاضرة أنتوفاغاستا. وفجأة.. دون سابق إنذار، يأتي قطاع طريق إيطاليون،

متحدرون من نيرون وبروتس، ليشعلوا الحاضرة الجميلة، ويطعنوا الرجل المسن بخنجر الخيانة.

فيقاطعه الجد:

ـ آوه، لا، لم يفعلوا بي شيئاً من هذا.

ـ آوه، بلى! - أمسك به الأميرال، وأضاف: ـ يجب عليّ أن آمر هؤلاء البلهاء المتخشبين بأن يركعوا على ركبهم، ويطلبوا الصفح منك.

ـ لا حاجة لذلك أيها أميرال. إنني سعيد باستعادة حفيدتي.

فصرختُ:

ـ لستُ حفيدته.

تحولت بشرة البحار إلى لون بدلته.

ـ *Madonna! Non capito niente piú!* أنتَ إذن يا سيد استيبان من يريد اختطاف الصغيرة؟

ضغط الجد على رقبتي حتى أوشكتُ على تقيؤ لوزتيّ. فقررتُ أن الوقت قد حان لأصمت. وماذا تهمه ذبابة مثلي إذا كان أكثر من نصف الماليسيين يقولون إنني لستُ حفيدته، وإن عازف الترومبون قد ضحك عليه؟ لقد انتهت الحرب في أوروبا، ولن أتعرض لخطر الموت هناك، وقد قال لي «الميتر» في السفينة، إنه سيجعلني أتذوق خلال الرحلة عشرين طريقة مختلفة في طهو البيض.

ـ البنت مرتعبة من طيشها. لدي وثائق تثبت رابطة القرابة بيننا.

ـ أريد رؤيتها.

ـ أنا أدعى استيبان كوبيتا ـ قال وهو يدس يده في جيب بنطاله الخلفي، وأضاف: ـ وأنا ماليسي المولد، وتشيلي المواطنة.

أخرج حزمة من الوثائق المجعدة والملتصقة بعضها ببعض، ووضعها بين يدي الأميرال.

ـ ما هذا؟

ـ بطاقة هوية شخصية، وتصريح إقامة، وترخيص تجاري.

ـ يا للقرف! لا بد أن كلباً قد بال عليها. أرجوك، خبئ هذه الأوراق، وخذ الطفلة.

تناول الجد حفنة الأوراق ودسها، دون تأخير، في جيبه من جديد. أنزل البحارة زورق نجاة مزود بمحرك لإعادتنا إلى المرفأ، وأطل السياح قلقين لكونهم شهوداً على تلك المناورات.

لا بد أنهم يشعرون بأنهم على وشك أن يكونوا أبطال **تيتانيك**.

VII

بعد سنوات من ذلك، في سنتياغو، انتظرني «جدو» عند الخروج من العرض المسائي في **سينما القصر** في ساحة البرازيل، ومعه قمع من البسكويت مملوء بحلوى لذيذة. كان يرتدي البدلة السوداء المزينة بقطع رمادية، والقبعة الجديدة. وكان يُحكم أزرار سترته بصرامة، ويعقد ربطة العنق الحمراء في عقدة كبيرة، تلتقي مع لحيته المشذبة بعناية.

كان الخروج المفاجئ من السينما، في الساعة الخامسة مساء، يسبب لي انبهاراً كبيراً. فكنت أبقى عادة في البهو، وحدقتاي ما تزالان مفعمتين بصور تايرون باور، وتشارلز لاوتون، وميتزي غاينور وجين كيلي، وسيد تشاريس، وفريد استير.

العودة إلى هذا الذي نطلق عليه، بدافع التبسيط، اسم العالم الواقعي، كانت عقاباً على جريمة لم أقترفها، وصدور حُكم بالضجر، أخفف من وطأته، في ساعة الشاي، بغمس بسكويتة في فنجان شوكولاته بالحليب.

لو أنني كنت مليونيرة، لاشتريت عتمة «سينما القصر». ولما خففت

عروض بعد الظهر، والمساء، والليل من نهمي لآلاف الأفلام: **«الليالي العربية»**، و**«دورية الصحراء»**، و**«جنكيزخان»**، و**«التتار»**، و**«الجميلة والوحش»**، و**«جيبيتو وبينوكيو»** بأنفه الوقح والكاذب.

بدا لي جدي المنتصب، تحت ذاك الإفريز المرتفع أعلى من المظلة التي عند مدخل السينما، انتقالاً إلى عالم البيت، والأطباق في المجلى، والملابس المنشورة لتجف في الفناء الداخلي، وواجبات الرياضيات التي يمنعني الضجر من إكمال إنجازها على الدوام.

لم يكن مظهر «جدو» شديد اللاواقعية، مثلما هم قراصنة الشاشة وأوغادها، ولكن فيه لمسة من الشرود تقربه منهم. هناك شيء في طريقته في الصمت والمشي، في التقاط عيدان حلوى مصاصات **لوليبولس** في الشارع، في تشمم سيجار هافاني، دون أن يشعله قط، يضفي عليه هالة غريبة. عيناه الزرقاوان بعنف، كانتا منقلبتين نحو الداخل. لا أدري نحو ماذا، ولكن هذا الجد الذي أهدى إليّ تعاسة الماليسيين، لم يكن يخصني مثلما هم أساتذة المدرسة أو صاحب الحانوت، وإنما هو لي في جنون خاص بي، لا كلمات لدي لوصفه. إنه لي منذ أن عرف كيف يوقّع معي تحالف دم، دون أن يهتم بأن يكون ذلك الدم نفسه سارياً في عروقنا.

لم يكن الأمر مرتبطاً بلكنته وحسب، بتلك الراءات التي تكرج مثلما تكرج الكرات في ملاعب لعبة الأوتاد التشيلية في أماسي أيام السبت، وإنما كذلك بشيء ينمو مع تنفسه. فالعجوز لم يكن يعرف الزفير: بل كان يتنهد.

العالم الواقعي الذي كنتُ أستبعده منه، كما لو أنه كائن برمائي، ضائع بين أشرطة سيلولويد الأفلام وضباب سنتياغو، لم يكن بإمكانه أن ينافس الشاشة أو حتى مجلة **«إيكران»**، حيث تظهر صور بنية لنجومي السينمائيين. كنت أنتظر أسبوعياً كل عدد جديد من المجلة، بركبتين متجمدتين تحت تنورة زيي المدرسي

الاسكتلندية، قبل أن أنطلق راكضة نحو المدرسة.

كانت أيام الأربعاء، في مفكرة توزيع دروسي اليومية، مؤشراً عليها، فوق «اللغة القشتالية»، بكلمة «إيكران». ولم يكن بإمكان جداول الضرب على الغلاف الخلفي لكل دفتر، أن تحول بيني وبينها، مثلما لم يكن ذلك ممكناً للمنظومات الشعرية حول الأزهار المتفتحة في الربيع، أو القصائد عن التشيلي الكسير، وعن فروسية ميغيل غراو، الأميرال البيروي الذي قتل البطل التشيلي أرتورو برات على متن المدرعة «هواسكار».

كان برات هو حلمي. فهو الوحيد الذي أضع صورته على مذبح مقدساتي إلى جانب الجد. لقد كان برات هو معبودي المفضل. وكنت أرغب في أن أكون أرملته. فقد قفز القبطان الشجاع، في خليج إيكيكي، من فرقاطته البائسة، وحيداً، إلى السفينة المعادية صارخاً: إلى الأمام! دون أن يلحق به أحد، وراح يقاتل مثل دارتنيان في مواجهة عشرات البيروبين المسلحين بسيوف دامية وبنادق يتصاعد من فوهاتها الدخان.

كنت أحلم مرة في الشهر، بأن ميغيل غراو، أميرال السفينة المعادية، يأتيني حاملاً رفات زوجي الخالد، في تابوت ملفوف بالعلم التشيلي. وكنت أستقبله باعتزاز. لم تكن تطل من عينيَّ دمعة واحدة. وتلمس يده يدي المتجمدة في وداع دبلوماسي؛ ولكنه ما إن يغادر البيت، حتى أروي أزهار النعش بدموع لا عزاء لها.

ويأتي رئيس الجمهورية ليسلمني ميدالية، ومعاش الترمل. فأشكره بوقار. أرفض النظر إلى عيني ذلك السياسي الذي يتأملني بشيء أكثر من الأسى. فأنا لست الوطن الحماسي. إنني أشعر بوطأة الأسى. وأعرف كيف لا أنسى شيئاً بذاكرة مجربة ومُدقّقة.

ما علاقة تخيلاتي وتطلعاتي بهذا العالم الذي يتوجب عليّ فيه تلميع الحذاء المدرسي، وغسل الأوساخ عن ركبتي بالفرشاة، وتنظيف

أسناني بمعجون كولينوس، وابتلاع خبز القربان أيام الآحاد في القداس، بينما أنا أشعر بالرغبة في التهام فطيرة حلوى، بدل هذا العجين الذي بلا قوام؟

بينما كنت أرتل رموز الإيمان في الكنيسة، لم أكن أفكر إلا في كيفية الحصول على نقود من أجل حضور عرض بعد ظهر هذا اليوم، في سينما البرازيل، حيث يقدمون على بُعد كوادرا واحدة من سينما القصر، فيلما لميكي روني. في يوم الأحد الماضي، عرض عليّ ماكسيمو خيرا أن يشتري لي بطاقة الدخول، إذا ما سمحت له بلمس نهديّ. ولأنني لم أكن قادرة على أن أخذله، سألته: «أي نهدين؟»

كنت في الثالثة عشرة من عمري، وكنت سيئة جداً في النحو، إلا أنه لم يكن هناك من هو أسرع مني في القراءة. لقد كانت جامعتي هي قراءة الترجمة المكتوبة على الأفلام الأمريكية.

في البداية، لم أنتبه إلى هذه الموهبة. ولكنني عندما لاحظت أن من يرافقونني في السينما، يوكزونني بمرافقهم ويسألونني «ماذا قال؟»، قررت أن أتقاضى منهم بعض البيزوات. وهنا بدأت موهبتي في الأعمال التجارية.

لم يكن هناك شيء مكور في مؤخرتي أو تحت صدر بلوزتي؛ ولكن لم يكن هناك من هو أسرع مني بالقراءة في العالم بأسره. كانوا يمررون ورقة أمام عيني، فاستنسخ عنها صورة ذهنية على الفور. لقد كنتُ ظاهرة فريدة، على حد قول مدير المدرسة.

«ولكنها ظاهرة غير مجدية يا دون استيبان. من الأفضل أن توفر لها دروساً خصوصية في الرياضيات.»

لكن الجد لم يكن يتأثر. وكان يشير عليّ: «حاولي أن تجتازي امتحان الرياضيات بأربع درجات». كانت تروقني السلسلة المتهدلة على بطنه، فأتخيله في ذهني في دورٍ بريطاني: مهرب أسلحة نبيل، أو مخلص جمركي في ميناء ليفربول. وكانت عيناه الزرقاوان تجعلانه

مناسباً تماماً لهذا الدور.

السلسلة الفضية تصب في جيب الصداري الذي تقبع فيه ساعة متينة، من فولاذ غير قابل للصدأ، عقاربها النشيطة لا تتوقف مطلقاً، لأنه لم يكن ينسى أن يعبئها قبل أن ينام. وكانت سهام تلك العقارب الرشيقة، تتحرك فوق صورة بالأبيض والأسود لمبنى **الإمباير ستيت بيلدينغ**.

«إنه أعلى بناء في العالم»، هكذا كان يقول لي بوقار مهني. ولم ينتقص التكرار الروتيني قط، من نضارة هذه الجملة. ففي كل مرة من مئات المرات التي قالها فيها، كانت **إمباير ستيت بيلدينغ** تعود مرة أخرى لتكون أعلى بناء في العالم.

في بعض الأحيان، كان يداهمني شعور سخيف، بأن الجد يعيش من أجلي، ومن أجل ملء ساعته، وترديد هذه الجملة وحسب. وعندما ينهي عبارته، يستغرق في صمت عميق الغور، نبقى معه نحن المستمعين متعلقين بصمته، بانتظار كشفٍ لم يأتِ قط.

إلى أن كان يوم الأحد ذاك.

VIII

لم يكن بمقدوري أن أعرف أن جدي إستيبان سيموت بعد أسابيع. لأنه، إضافة إلى أسباب أخرى، كان رجلاً ناقصاً بصورة مستتكرة. لقد كان ينقصه شيء ما، مما يجعله مرتبكاً وشارد الفكر. لم يكن الموت مناسباً له بأي حال. لقد بعث في الإحساس بأنه سيترك شيئاً معلقاً، غير ناجز. لم يكن قد بلغ السبعين بعد، ولكنه كان قد دخن كل الإنتاج الوطني من التبغ، وضاعف الجرعة عندما عُرض عليه المبضع، لكنه رفضه.

لقد كان الموت بالنسبة إليّ آنذاك حدثاً سينمائياً، شيئاً وقوراً ومحزناً بصورة رهيبة، لا يحدث إلا في ملكوت الشاشة: موت الفتاة الشاحبة التي تحتضر على ضوء القنديل، تحت نظرات الطبيب الريفي العاجزة. أو الوغد الذي ملأ التحريون صدره بالثقوب، لكنه لا يقدم لهم متعة رؤيته يتألم، فيخفي ألمه، ويرفع طرف شفتيه باستهتار. أو الكابوي الذي اخترقه سهم أحد ذوي البشرة الحمراء، في ذلك القفر الخالي من الرحمة. أو الطيران المهيب لنسر رخمة فوق جسد المستكشف المنهوك في الصحراء.

لم يكن جدو قد حضر إلى السينما قط، لانتظاري. ولا بد أن فرادة هذا التصرف قد نبهني إلى مستقبله.

حين رأى عيني تدمعان عند مخرج السينما، بسبب الضوء الفظ الذي راح يُسوّد الصور التي أريد الاحتفاظ بها في شبكيتي، رفع قبعته المحاطة بشريط من المخمل الأسود، ووضعها مرحاً ومتراقصاً على شعري الأشقر، لكي تحميني شريحة الظل التي توفرها. ثم اقتادني بعد ذلك من يدي، بتصميم، إلى أحد المقاعد في وسط الساحة الظليلة بشجرة الأمبو الوارفة.

- يمكنك شراء لفافة من البسكويت المحلى- أمرني كمقدمة لشيء لم يقله.

كسرتُ قطعة الحلوى الهشة، ورحت ألتهمها جزءاً فجزءاً، بدقة صمت الجد نفسها. وعندما انتهيت من أكلها، نفضَ تنورتي بيده شديدة البياض، المكللة بمعصم قميصه القطني وزر من الأوبال الأسود.

حطت العصافير فوراً لتنقر الفتات. وفي هذه اللحظة، فك حلقة سلسلة تثبيت ساعته.

وعندئذ عصرها بين أصابعه، وتمكنتُ من رؤية الوريد الأكبر في ظاهر يده نافراً بين اللطخات التي لها لون القهوة على بشرته. هز

الساعة في قبضته، مثل لاعب نرد، ثم قدمها إليّ وهو ينظر إلى رتل من النمل فوق العشب.

ـ سأموت، ولا أريد أن تختلفي مع جوفانا حول من منكما ستحتفظ بالساعة. إنها لك منذ هذه اللحظة ـ ثم نظر إلى الوقت بفتور، وأضاف: ـ منذ الساعة الخامسة وسبع دقائق بالضبط.

لست أدري إذا ما كانت عقارب تلك الآلة تبهرني في ذلك الوقت، مثلما كانت تبهر العجوز، ولا إذا كان رسم **إمباير ستيت بيلدينغ** الذي تذرعه تلك العقارب، بعناد لا يلين، يعني في تلك اللحظة شيئاً حول مستقبلي. لقد كنت أحاكي، في بعض الأحيان، إيقاع عقرب الثواني بقدمي، وأنا جالسة على ركبتيه، بينما هو يقرأ أخبار البورصة في جريدة **الميركوريو**. وفي مناسبات أخرى، كنت أحمل الساعة بمشقة، عندما يضعها فوق الطاولة، بينما هو يشرب تلك القهوة المعصورة بآلة، والتي يشتريها أيام السبت صباحاً من محلات غاث وتشافيث، وهو متجر يعبق برائحة سمك قدّ نرويجي مجفف.

راقني، في ذلك اليوم، الإحساس بأن الساعة تُبرِّد أصابعي بمعدنها المثلج، وبأنني أستطيع حملها دون أن تنهدّ يداي من ثقلها.

«لقد كبرتُ – فكرت – ولكنني لن أصير عجوزاً هرمة مثل الجد أبداً. سأبلغ على الأكثر سن كاترين هيبورن في فيلم **«ملكة أفريقيا»**. ولكنني لن أقبَل على الإطلاق شخصاً مثل شارل النوت. همفري بوغارت ليس نمطي المفضل.

سعادة كوني مالكة الساعة لم تكن بالزخم الذي تخيله الجد، والذي تصورته أنا من قبل. لأني أولاً وقبل كل شيء، كنت أشعر دوماً بأن الجد نفسه لي، وبأن كل أشيائه هي ملكي أنا.

لقد شلّ تفكيرٌ ثان كل نوع من السعادة: فإذا كان العجوز سيموت، فإنه سيُدخل في حياتي مزيداً من الشكوك أكبر مما أستطيع تحمله. فهو سيحمل معه إلى القبر صمتاً عنيداً حول أصولي.

فالشيء الوحيد الذي أعرفه هو انه، عندما اندلعت الحرب، واشتعلت أوروبا بأسرها، ووصل النازيون إلى جيما، كانت لدي مريلة تحمل اسمي: آليا إيمار.

ولكنني لا أُدعى آليا إيمار. أما جدتي فكانت تدعى آليا إيمار. ففي الحرب تحدث أشياء كثيرة، يفقد الناس معها حيواتهم وأسماءهم. ثم إن المهاجرين من جيما هم أناس واسعو المخيلة، يضخِّمون الأشياء الصغيرة التي تحدث لهم. لأنه ليس هناك ما يحدث لهم في الحقيقة، اللهم إلا عندما يقتلونهم. وفي هذه الحالة، لا يبقى أحد على قيد الحياة، ليروي ما الذي حدث.

في الحادية عشرة من عمري، كنت أعرف الشيء نفسه الذي سأكرره وأنا في الثلاثين، أي كيف قرر القس بريجيل، عندما غزت القوات النازية جيما، أنه لا يمكن لأسرتنا أن تتدثر مرة بعد أخرى. ودون أن يستشير أبي الذي انخرط بحماسة في صفوف الأنصار، للقتال ضد الألمان، ولا أمي التي لحقت به إلى الجبهة، حاملة معها زمزمية ماء وسجادة فارسية. وضعني القس في سلة مع العنوان التالي: «إستيبان كوبيتا، سنتياغو، تشيلي» وأضاف على قفا البطاقة: «اقنع نفسك بأنك صاحب الشأن أيها الجبان».

المهد الذي حملني فيه عازف ترومبون، كما يقولون، عبر المحيطات، كان مبطناً ببطانة وردية، طُرزت عليها أزهار أقحوان بيضاء. وقد علقها إستيبان على الجدار، قبالة رأس سريره، كأنها لوحة فنان مشهور. واتخذني حفيدة، له دون أن يرف له جفن، مع أنني لا أستطيع أن أؤكد أنه لم يتردد.

بعض الماليسيين يقولون إنه تأثر، وقبّل مؤخرتي وخديّ، حين تلقاني. ويقول آخرون إن مزاجه تعكر، ونظر بارتياب إلى بافلوفيتش وهو يقدم لي زجاجة رضاعة مملوءة بحليب ممزى. وعندما تعلمتُ الكلام، سمعتُ البعض يسمونني، وهم يزمّون شفاههم: «النمساوية».

- لماذا يقلون لي هذا يا «جدو»؟

- إنهم جهلة.

وكان الماليسيون يريدون من إستيبان أن يتزوج.

- الزواج مسألة جدية.

- أترفض النظر إلى الفتيات، يا دون تيبي، بهذه الدوائر الزرقاء الفظة حول عينيك؟ ستحتاج إلى فخذ إلى جانبك في الشتاء، وإلى من تعتني بك عندما تُصاب بداء باركينسون. وأُلح عليك بأن حفيدتك الصغيرة ستحتاج إلى جدة.

- بما أن الأمور صارت إلى ما هي عليه، فليس هناك من حاجة إلى زيادة تعقيدها.

سألته بينما كنا نلقي إلى المدفأة حطباً وأوراق جرائد، لماذا لم تأتِ جدتي قط لتجتمع معنا.

فقال لي:

- إنه الخجل.

IX

لم أفهمه آنذاك. ولم أتمثل ما قاله أيضاً، بكل هوله، إلى يوم الأحد هذا الذي قررت فيه بدء رواية قصتي. إن إعلان غيابه الآن جمّد عظامي. ولكن جرت العادة، بين المهاجرين، على المداراة. على النظر بصورة مواربة.

لقد كان الجد تيبي في حياتي دوماً، في توبيخي على درجاتي السيئة، أو في مساعدة قصوري في الهندسة والرياضيات. كانت جوفانا تقدم الفطور من خبز محمص وزبد، وهناك كان هو ينظر ملياً إلى انعكاس شعاع الشمس فوق أدوات الطعام. كان الوقت شتاء

والمطر يهطل، ويصل جدو منحنياً، ليحمي من المطر قمعاً ورقياً فيه مقالي ساخنة، وهو متدثر بمعطف أزرق يكاد يصل حتى كعبي حذائه، بينما زوبعة أوراق يابسة تلف خصره.

وفي دروس الجغرافية، لم يكن هناك من هو أفضل مني في معرفة مضايق بحر الشمال دون النظر إلى الخريطة تقريباً. كان الجد يجعلني أردد بتلذذ «كاتيغات»، «سكاجرك»، «ويستكوست جوتلند». في إحدى المرات، في رعب كوابيسي المتواترة بكثرة («يا للطفلة العصبية»، تقول الطبيبة وهي تثبت فكي بعنف، لتتفحص لوزتي المتقيحتين)، قدم لي يده الدافئة والمعروقة، وهمس: «لم يحدث شيء. اهدئي، لم يحدث أي شيء. جدو إلى جانبك. لقد كان حلماً سيئاً. إنه حلم سيئ وحسب.»

ولكن جدي في يوم الأحد ذاك، هناك في الساحة، كان في حالة حرجة، ولم أكن أود سماعه كي لا تتجسد نُذُره المشؤومة. عندما يباغته الموت سأعرف بنفسي ما الذي علي عمله. سأرتجل شيئاً ما. ولكنني كنتُ في تلك اللحظة، في الثالثة عشرة، وكنتُ حية حتى النخاع، وكوني حية على هذا الكوكب يتلخص، في المقام الأول، بأنني حية مع «جدو».

في الجانب الآخر من الساحة، حيث تنق الضفادع ويطن النحل، كان أفراد عصبتي قد اجتمعوا للحس «البيكيشوكي»، وهي أقماع مثلجات مترعة، تدعمها رقائق بسكويت حلو، يبتاعونها من محل حلويات جينو. إنهم يعلقون الآن على أحداث الفيلم الذي شاهدناه للتو، بينما حليب المثلجات الملون يقطر على قمصانهم، وبلوزاتهم الأحدية البيضاء، أو يسقط على أفخاذهم الممتلئة.

سيقرر صبيان وأطفال الحي الآن أي مشهد من الفيلم سنمثل تحت الأشجار. ومن ستكون البطلة، وفي أي مكان من جسدها سيطبع المتودد إليها قبلةِ النهاية السعيدة. ستتولى إحداهن، في غيابي، دور

الضحية التي يعذبها الصيني فو مانشو، وسيكون صبي آخر هو سوبرمان المنقذ، ربما مارتين إتشاورين، ضعيف البصر الذي يضع مثل نظارة كلارك كينت بالضبط. وسيكون على أي واحدة منهن أن تؤدي دور المرأة العنكبوت، وتتجرجر على ثماني قوائم فوق العشب. وسيكون على آخرين أن يضعوا عصابة عين عوراء، كالقراصنة.

كان اللجوج ماركوس خيريا، وخداه الممتلئان الجديران بنافخ مزمار مزدوج، يستدعيني مومئاً بإصبعه السبابة المعقوفة كخطاف، بينما جدي يواصل الصمت بصورة شديدة الزخم، تغرقني في حيرة إلهام يبدو أنه يأتي ولا يخرج.

أدركت بقنوط خطورة هذا الصمت الرصين: لقد جاء يبحث عني أمام السينما، كي يخبرني رسمياً بأنه سيموت، وكي يؤكد ذلك أهدى إليّ ساعة **الإمباير ستيت بيلدنغ** التي يمكن وصفها بأنها قلبه الثاني.

- جدي، إنهم ينتظرونني - همستُ بخجل.

- أرى ذلك.

وضعتُ إصبعاً في جيب سترته.

- أرجوك.

- أتعرفين لماذا احتفظت لهذا الوقت الطويل بهذه الساعة، ولم أشتر قط ساعة أخرى من ساعات المعصم الحديثة؟

- أظن أنك فعلت ذلك لكي ترى الوقت بصورة أفضل - قلتُ بابتذال.

- لا أهمية لمعرفة الوقت. فالمرء يصل إلى كل ما هو مهم متأخراً على الدوام. لقد احتفظت بها بسبب **الإمباير ستيت بيلدنغ**.

- أضخم بناء في العالم - أضفتُ دون سعادة.

- هذا الذي أقوله لك، لم أقله لأحد قط. منذ عشرات السنين، أبحرتُ مع أخي من جنوا...

نهضتُ واقفة فجأة، وربطتُ غديرة شعري بقطعة مطاط.

ـ أعرف يا جدي أنك ستموت، ولكن أصدقائي ينتظرونني.

ـ لن تعرفي الأمر إذن. فلن أخبرك بعد اليوم بالمزيد. وأنا لا أؤمن بما يقال عن رسائل الأشباح، ولا بما بعد القبر. لن تحصلي مني على كلمة واحدة. ولا تتخيلي حدوث مشهد كذاك الذي قدمه أبو هاملت. كم درجة نلتِ في اللغة الانكليزية؟

ـ سبع درجات، كالعادة. إنني الأفضل في الفصل. إنني «الأوروبية». سبع درجات باللغة الفرنسية، وسبع بالإنكليزية.

ـ ألم تسألي نفسك يوماً، عن السبب الذي دفعني إلى وضعك في مدرسة إنكليزية!

ـ لقد رويتَ لي السرَّ مئة مرة: لأنك لو نزلت في نيويورك مع أخيك، لكنتَ الآن مليونيراً بدلاً من كونك مهجوراً مع برازك في العراء التشيلي. ولكن أخاك غرق.

ـ كان رينو قادراً على السباحة من جزيرة إلى أخرى، دون توقف، في سواحل ماليسيا. أتدرين كم يحتاج زورق بمحرك لقطع المسافة نفسها اليوم؟

ـ وكيف تريدني أن أعرف ذلك!

ـ ساعتين.

ـ حسن. ثم ماذا؟

ـ لو أنني قفزت إلى البحر، لكنت اليوم مليونيراً، ولما كنتُ تركتُ لك هذه الساعة التافهة كميرات وحيد.

لمستُ يده الباردة، بالرغم من أن الساحة كانت تلتهب بشمس شاطئ استحمام. كان قد أمال رقبته على كتفه الأيمن، وانزلقت دمعة مجهدة على وجنته، إلى أن سقطت على كمّ البدلة السوداء. داعبتُ ذقنه برقة، وأعدتُ وضع قبعته الأنيقة فوق رأسه الذي مثل رأس طائر منتوف، وقبّلت جبهته بورع.

- اذهبي إلى نيويورك يا صغيرتي. فهنا لا يحدث شيء.

- حسن يا جدو.

- كل البوصلات تشير إلى الولايات المتحدة.

- وإلى الإمباير ستيت بيلدنغ.

رفعتُ طرف حذائي الملوث بالتراب، ومسحته على ربلة ساقي اليمنى، وبقيت لبرهة غارقة في ذلك الصمت الذي بلا نسمات، وبلا أصوات. كانت العصافير قد صمتت بمؤامرة سريّة، ولم يكن ينبح أي كلب؛ وحتى الشاحنات لم تكن تزمجر وهي تفرمل عند الإشارات الضوئية. دقت ساعة الكاتدرائية، المتأخرة كالعادة، أربع دقات.

- الحياة شيء آخر يا حبي، إنها ليست...

لم أكن أعرف ذلك آنذاك، ولكنني قادرة اليوم على صياغته. فقد بحث استيبان، بزم شفتيه، وبنظرة عكرة، عن طريقة مُلطّفة ليقول «خراء».

شجعته بإيماءة لكي يواصل.

- ... هذا ملخص لفيلم سينمائي لن يُعرض أبداً في أي دار للسينما.

كان عصراً لم أكن أعرف فيه كلمة «استعارة مجازية» ولا كلمة «الحدس». زمن لم أكن أتصور فيه أنني سأكتب يوماً. ولكنني أحسست مع ذلك بأن تلك الاستعارة تنطبق عليّ بدقة، وحدست بأن نصيحة الجد كانت نبوءة.

X

احتضر إستيبان مساء يوم سبت، بحشرجات وتأوهات أكبر مما يتناسب مع طبعه الرصين. فقد أمسك به الموت، وهزه على هواه. كان الطبيب يخرج من الغرفة، بين وقت وآخر، ليتناول القهوة، ويظل في

غرفة الطعام، يتصفح ألبوم صور الأسرة. لقد جاء عازف الترومبون بهذه المجموعة من الصور، كوسيلة لتليين القلوب لدى وصوله إلى البيت في أنتوفاغاستا، قادماً من المرفأ: الآلة الموسيقية، والسلة، وفيها الطفلة البكماء، إضافة إلى صور آليا إيمار وإستيبان كوبيتا.

كان في السهر على المحتضر تشكيلة منوعة من الأصدقاء الذين ارتبط بهم الجد، واقتلعهم من حياته دون أن نعلم نحن بذلك: بقالون ماليسيون، لاعبو بوكر، خياطون، موظف كبير في شركة الهاتف. جاؤوا من الجزء العلوي من سنتياغو، من تخوم لوس ليونيس، مع أبنائهم وأحفادهم، بينهم صبيان وبنات في مثل سني، يرتدون قمصاناً ناصعة البياض، وربطات عنق رمادية أو سوداء، شعورهم مسرحة بكل إتقان، وجدائل الفتيات معقودة بصرامة عسكرية.

كانوا متنوعين جداً فيما بينهم، ولكنهم جميعهم كانوا يقطبون أنوفهم حيال ظلال منزلنا في الحي البائس. كان الأثرياء قد هربوا من المدينة نحو سلسلة الجبال، وبقينا نحن الفقراء في السهل، نرسم أحلاماً على مناديل ورقية، ونقطع أذيال السحالي في الساحة.

كان الأطفال الميتون من الضجر، ينفخون في زجاجات الكوكاكولا بعيدان من القصب مصدرين قرقرة بلهاء، بينما مذياع الجار يبث مباراة كرة القدم من ستاد سانتا لاورا. كانوا يمنعونهم من اللعب، وكان هناك طفل ممتلئ الخدين وشاحب، يدحرج كرة صغيرة تحت الطاولة المسجى عليها المحتضر، ويضع يديه حول فمه كنفير، متصنعاً صوت عشرة آلاف شخص يهتفون لتسجيل الهدف. يطل أبواه لتأنيبه، ويوجهون إليّ ابتسامة مشفقة، قبل أن يعودوا إلى ثرثرتهم في غرفة نوم الماما. وقد يمرون أحياناً بظاهر أصابعهم على خديّ.

وعندما قدّر الطبيب أنه يتجنى على أخلاق مهنته بترك الجد دون عون في تأوهاته، عاد إلى غرفة نومه وهو يشهر حقنة مورفين.

فتسلمت أنا الألبوم، ونظرت إلى صور كنا فيها مختلفين جداً.

التقاط صورة في ذلك الحين كان طقساً خاصاً. في صوري كنت أحاول أن أبدو أكثر جلافة مما هي عليه فتاة شقراء. كنت أضع يدي بصورة رجولية على خصري، أرفع حاجباً بإيماءة ازدراء، لا ابتسم في الوقت الذي يبدي فيه الآخرون مئة سن في اللقطة، وبدلاً من أن أنظر إلى الكاميرا، أحاول جعل العدسة تلاحقني، ذلك أن عيني الكستنائيتين كانتا تبحثان، مثل عيني جدي الزرقاوين، عن شيء في الداخل، وليس عن عصفور علبة التصوير.

كانت صوراً وقورة، وإن كانت تنقص بعضها الأقدام، وأخرى الأرداف، وفي بعض الحالات العيون، والجبهة والشعر. وكانت تُرتدى ملابس مزينة كي لا يظهر الفقر. والوقفة أمام الكاميرا تتصنع الانتماء إلى طبقة لا ننتمي إليها، فالهيئة شامخة ورصينة، وتسريحات النساء والسادة تبقى سليمة بقدرة مثبت الشعر.

غصتُ في الصور الأخيرة، تلك التي تتضمن ومضة تحوّل في حياة إستيبان، قبل أن يغادر أوروبا. وفي واحدة منها فقط يظهر إلى جانب آليا إيمار. كانت لحظة مفاجئة، حيث تبدو عيون الاثنين مذعورة من شيء موجود فيما وراء الكاميرا.

كان الجميع قد رووا لي نتفاً من تلك القصة الغرامية، ولم يكن ممكناً استشفاف ما في هذه الصورة الباهتة، دون ربط الوجهة التي تتجه إليها نظراتهما بالمصير الذي صرنا الآن نعرفه، حتى وإن كان تشوهاً أخرق، للحظة ربما كانت سعيدة. الوداع الحاسم الذي طوّح بها إلى العدم والأسطورة، وطوّح به إلى صحراء قروش ضئيلة وآمال خائبة.

ويظهر حول الثنائي، بيت والد جدي الحجري ما بين براميل نبيذ وكروم عنب. وفي لقطة أخرى تبدو هي مواجهة، وهو مديراً ظهره، يراقب في المرفأ سفينتين بخاريتين، لا يمكن تمييز رايتيهما.

كانت صورتي المفضلة هي واحدة من صوره مع فريق كرة السلة،

حيث ينظر بمتعة إلى أعلى.. أعلى بكثير مما هو ضروري، نحو وجه رولاندو الطويل الذي يعرض الكرة، بتسلط من هو قادر على تسجيل ما يكفي من النقاط، ليستحوذ على كأس العالم.

وبعد ذلك، تأتي هذه الصورة مع أم جدي مكللة بغديرة شعر مرفوعة فوق قذالها، متيبسة بصرامة، ومتشبثة بعناد بذراع زوجها، وهو رجل متقوس الساقين، وربطة عنقه مائلة بصورة غريبة.

وأخيراً، هناك صورة مفلتة في الألبوم، كُتب على قفاها بحبر حائل اللون «الأسرة كاملة»؛ جميعهم في مواجهة الكاميرا، بوجوه قليلة المودة. وفي طرف الصورة، فخذ عجل يشوى فوق موقد. رأيت الجد وأباه وأمه، وكلباً لا يقل عنهم وقاراً، يكاد يبدي بروفيل وجهه للكاميرا. ولكن لم يكن يظهر في أي مكان من الصورة، ولو مقطوع الرأس أو الجسد، شقيق جدي، رينو كوبيتا.

كان الموت يمضي مكشراً عن أنيابه عبر البيت كله، وقالت لي قشعريرة مفاجئة إن تلك اللقطة غريبة. لماذا كتب الجد على قفاها «الأسرة كاملة»، ووضع كلباً يدعى «بيرجير»، بدلاً من أخيه؟ أيكون غياب رينو، بسبب إحدى مآثره في السباحة؟ أيكون مستبعداً لأنه لا يحب حساء البقول؟ أم لأنه رفض أن ينفخ على فحم الشواء؟ كل شيء ممكن، ولكن لماذا كتب عبارة «الأسرة كاملة»، بحروف فخمة وشبه انتقامية؟

قررتُ ألا أتركه يغادر دون أن أسأله، وتقدمتُ بالصورة نحو الحجرة التي كان قد طردني منها قبل نحو نصف ساعة. وعند عتبة غرفة النوم، وجدتُ جوفانا التي بدلاً من أن تمنعني من الدخول، طلبت من الجميع الخروج، وأشارت لي أن أواصل قُدماً.

ـ الجد يريد أن يكلمك – قالت لي.

ـ إنه ليس جدي، أليس كذلك؟ أهذا هو ما يريد أن يقوله لي على انفراد؟

ـ إنه جدك يا مجدلينا. وما سوى ذلك هو تفصيل شامل، ولا غنى عنه مطلقاً. عليك أن تصمتي وتستمعي، مهما كان ما سيقوله لك.

ـ لن أفعل.

ـ إذا ما ضايقتِه قبل زفرته الأخيرة، فسوف أقص شعرك من أصوله، وسأمنعك من الذهاب إلى السينما.

ـ تتكلمين هكذا لأنك خائفة.

تعانقنا عند العتبة، وراحت تبكي في حميمية مباغتة، مع تأوهات عدم تفهم وغضب.

تقدمتُ حتى فراش الجد ووضعتُ يدي على قلبه لأرى إذا كان ما يزال يخفق.

ـ إنني حي ـ قال لي بصوت مخنوق.

أسندتُ شفتي على صدره العاري، وتركتهما هناك تنفخان فيه قوتي.

ـ أردتَ أن تكلمني يا جدو.

ـ بل أنتِ أردتِ أن تكلميني.

فكرتُ في الصورة التي ما زلت أحملها في يدي، وتركتها تسقط دون تعليق.

ـ أنتَ أولاً.

ـ لم يعد هناك متسع من الوقت.

وضعَ يداً على رأسي، وقال بصوت سري، وهو يغمض عينيه:

ـ أربع دقات ناقوس.

ـ حسن يا جدو.

ـ نيويورك. رينو كوبيتا.

ـ ومن هو هذا؟

ـ الناقص في الصورة.

ـ حسن.

- هل هناك ما تحتاجينه؟ هل هناك ما يمكنني عمله من أجلك؟
- لا تمت يا جدي.
- مواصلة البقاء حياً ليس في متناول يدي. لا تحاولي أبداً ما هو غير مستطاع.
- أنا مختلفة. لا يمكنني إطاعتك في هذا.
- إنني جدك، أليس كذلك؟
وقبل أن يتجمد، فاغراً فمه في تكشيرة، أطلقتُ صرخة قوية. كانت «ماما» هي أول من أطل، ومعها ومن ورائها جميع المعزين المرتجلين. شق الطبيب طريقه، وفي رمشة عين واحدة، أكد الموت. لم أشأ سماعه يقول «فليرقد بسلام» أو أي بلاهة أخرى.
ركضت نحو الحمام، وأغلقت الباب بالمزلاج، ورفعت غطاء مقعد المرحاض بضربة واحدة، وجلست لأتبول ليترات وليترات، دون أن أكبح شهقاتي.

XI

في اليوم التالي، جرت الجنازة. وقبل أن يحمل موظفو مؤسسة الدفن التابوت إلى العربة، رفعت أمي الغطاء لعلي أريد وداع العجوز. كانت هناك ستارة مسدلة على النافذة الوحيدة في الغرفة، وقد اجتاحتني قشعريرة من ذلك التضاد بين أقيانوس الضوء الأحدي وشحوب الجد.
لم تبدد أشعة الشمس رائحة الموت النفاذة التي تغلغلت في ورق جدران غرفة النوم، وحتى في بطانة السلة التي كانت مهداً لي في أحد الأيام.
أرادت جوفانا مني أن أقبّله قبلة سريعة وقوية، ولكنني أمام تلك

الجفون التي يبرزها الحاجبان الكثيفان اللذان يبدوان أكثر ملائمة لرجل فظ، أحسستُ بدوار شفقة، وضغطتُ خدي إلى خده. أرادت هي أن تبعدني، ولكنني صددتها بدفعها بيدي، فلم تجد بداً عندئذ من تقديم «جولة أخرى من القهوة» للحمالين ذوي البدلات الجنائزية.

كان هناك نوع من الزفرة العميقة، تهدئني وتمنعني من البكاء. ولم تكن لدي آنذاك الكلمات للتعبير عن ذلك. ولكنني أستطيع الآن أن أقول إنه كان العدم في داخلي: حضورٌ بُعاد يجرح كل الأشياء عندما يغيب الاتجاه والمرتكز.

انطلقنا من البيت في «الستي»، تحت شمس أفريقية تنزلق على بدلات الحِداد القديمة لأولئك المعارف الذين جاؤوا إلى المأتم، مع أحفادهم، مضحين بمتعة البقاء بين ملاءات يوم العطلة. كانت حزم الضوء تخترق الخمار الأسود الرقيق الذي ينسدل من القبعة، ويغطي عيني «أمي»، ويسبب لهما دغدغة حُبيبية تجعلهما تدمعان.

كان يقود العربة حصانان بلون الكهرمان الأسود، مناسبان لمثل هذه المهمة، ووراءها تمضي سيارة التكسي المستأجرة التي كنا نركبها أنا وجوفانا. هكذا، وحيدتان، كنا نتجنب الأحاديث عن الميت التي يهمس بها القلة الأوفياء للجد، ممن تعلموا، في روتين المآتم الكثيرة، كيفية تحريك شفهاهم المزمومة مثلما تفعل المتعبدات. وبملامح مكفهرة، كان يتبعنا في سيارة أخرى، من كنتُ أدعوهم الجبليين: مترفو الحي العالي من أصحاب المتاجر والمصرفيين.

عندئذ، وعلى بعد نصف كوادرا من البيت، لدى اجتياز ناصية الكاتدرائية، عند شارع البرازيل، رأيت فوق مظلة سينما القصر، أكبر إعلان دعائي في العالم: غوريلا أسود بلون الفحم، يحمل بين مخالبه امرأة شقراء ضئيلة، ترفس بقدميها لتفلت منه؛ بينما حشد مديني بعيون بارزة من الرعب، يهرب من مركز الكارثة، تاركاً الجميلة تحت رحمة المسخ.

وفي لحظة واحدة، انقلبت مشاعر قلبي: كان القرد يتشبث بيده الطليقة ببرج بناء **الإمباير ستيت بيلدينغ**.

أطللت برأسي من نافذة السيارة، وبمأثرة تركيزي القوية حفظت في ذاكرتي كلمات كل الحروف التي يسيل منها دم على الخلفية الصفراء حول الوحش: «فاي راي، روب أرميسترونغ، وبروس كابوت. إنتاج دافيد و. سيلزنيك.» وفوق رأس الحيوان كثيف الشعر كانت هناك ثلاث كلمات أخرى أغرقتني تلك الليلة في المعجم: *Breathaking, Staggering, Powerful*.

- إنهم يعرضون فيلم **كينغ كونغ**! - صرختُ بجوفانا، وقد فقدتُ السيطرة على نفسي.

- وماذا في ذلك؟

- سأتمكن من رؤيته أخيراً. عندما عُرض في السابق كنتُ صغيرة جداً، ولم يسمحوا لي بالدخول.

- دعك من الحماقة. لا بد أن تكون إحدانا مازوشية، لكي تدفع لهم مقابل أن يرعبوها.

وبدلاً من أن أرد عليها، أخرجتُ من حقيبتي ساعة **الإمباير ستيت بيلدينغ** الفضية الثمينة، وقلتُ لها بوقار ودقة:

- الساعة الآن الحادية عشرة وخمس دقائق.

- لم يسألك أحد عن الوقت.

- عرض بعد الظهر يبدأ في الساعة الثانية.

أدارت جوفانا عنقها بعنف نحوي، وبادرت إلى تجميدي بنظرتها وهي ترفع ستارة الخمار الذي يغطي أهدابها.

- لا أظنك ستذهبين لمشاهدة أفلام قردة في يوم دفن جدك!

فرفعتُ ذقني، وواجهت تكشيرتها المتسلطة:

- سيتململ الجد في قبره، إذا ما علم أنني لم أذهب لرؤية فيلم القرد متسلق بناء **الإمباير ستيت بيلدينغ**.

- أكبر بناء في العالم - قالت ذلك ساخرة، وهي تسوي قبعة اللِبد على رأسها.

لن يحول شيء أو أحد دون ذهابي لمشاهدة «كينغ كونغ» هذا المساء، في سينما القصر.

سأصلي للغوريلا من أجل خلود روح جدي.

وإذا أراد كل هؤلاء الجهلة صمتي المأتمي والحزين بصورة مضحكة، فليأتوا عندئذ ومعهم الشرطة ورجال الإطفاء، لإخراجي من السينما. وليجوبوا بأحزمة ضوء مصابيحهم الظلمة إيروتيكية اللذة، بين المقاعد، بحثاً عن المجرمة.

سأنظم عصابتي من الصبيان المشاغبين، ليضربوا بأقدامهم ظهور المقاعد، ويحولوا دون مرور الشرطيين بين الصفوف المسدودة بالتنانير والبناطيل القصيرة.

وفي الصفوف الأخيرة، سيُقابَل التحريون بتذمرات شبان الثانوية، الملوثين بالدبق، الذين ستنصرف ألسنتهم، لبرهة، عن لحس أعناق صديقاتهم، وسيطردونهم من السينما بأيديهم الدبقة بكل السيلان الذي يخرجونه من بين أفخاذ الفتيات، وهم يدغدغون بأصابعهم ما تحت تنانيرهن الاسكتلندية.

إذا لم تعطني جوفانا نقوداً من أجل عرض بعد الظهر، فسأستدين من خيريا، عازف الناي المزدوج، وأدفع له بعد ذلك أي ثمن يطلبه. سأسرق نقوداً من صندوق تبرعات الأبرشية التي تُجمع لبناء الكنيسة المحترقة في مايبو. سأغسل سيارات عند مخرج ميدان سباق الخيل. سأشق فراش الجد، لأُخرج منه تلك العملة الذهبية، الموجودة بين الملاءات الهولندية التي استطعت تلمسها يوماً تحت عظامه. سأقايض مع الإيطالي جينو، الشمعدان الفضي بقطعتين من مثلجات البيكيشوكي، وبطاقات عروض سينمائية لشهر كامل. سأهرب من

المدرسة. سأتنكر بهيئة رجل، وأُبحر في سفينة إلى أوروبا، سأنام في فندق باريسي بوهيمي، وسأقوم بمساع ليكون جدي الجديد هو موريس كافلييه.

XII

كم هو جميل الموت على الشاشة، بالمقارنة مع ما هو عليه في الحياة العادية.

فالرجال، في السينما، يحفرون الأرض الندية بالرفوش والمعاول، تنضح منهم قطرات عرق حقيقية كبيرة، ويصطف موظفو الدفن في نصف دائرة، مثل كورال وقور، بينما القس، وهو من أقرباء المتوفى على الدوام، يرتل بوجه جامد. وتكون ترديدة الكورال الأخيرة دوماً، مقطعاً شعرياً، يضفي مغزى على ألم جميع الأقارب، وألمنا نحن المشاهدين.

الأقارب يرتدون ملابس الحداد السميكة والأنيقة، وتتغلب الأرملة على الدوار في اللحظة الأخيرة، لتُلقي بوقار زهرةً بسيطة على النعش، قبل أن ينهال التراب النهائي فوق خشبه اللامع.

أما في مقبرة سنتياغو العامة، بالمقابل، فللتفاصيل طابع الواقع الرمادي: النعش من خشب عادي كامد، والأقارب يلبسون باستهتار، وأولئك الذين عقدوا ربطة عنق سوداء ولامعة، يذبلون في الحر. ويلقي الرجال نظرة على تنبؤات سباق الخيل، أو يغرقون في تفاصيل مباريات كرة القدم التي ستدور مساء، في ستاد سانتا لاورا. العمات يثرثرن حول مشاريعهن الاصطيافية، وبنات العمومة يدسسن أصابعهن في أنوفهن، أو يفتلن خصل شعورهن برتابة بلهاء، وليس هناك قس، ولا أحد يحفر الأرض، وموظفو الدفن المتباهون جاؤوا ملطخين ببقع نبيذ

أحمر، على ياقات سترهم. اختفى التابوت في كوة من الاسمنت، وتساقطت الأزهار على جثة مجاورة، مدفونة منذ عام 1923، اسمها لاورا بيريوس غوتيريث.

إنها مصيدة هائلة تلك التي وقع فيها إستيبان كوبيتا. فعلى الرغم من تمرغه في الفقر، وعدم امتلاكه الجرأة على القفز مع رينو إلى مياه الأطلسي الخطرة، وبالرغم من أن الريح الهائجة قد دفعته، رغم إرادته، نحو هذه الضواحي الهاجعة، فقد مارس العجوز بقايا حياته بوقار.

لم تكن هناك، قط، أي لطخة تلوث ياقات قمصانه الناصعة والمنشاة التي يرتديها أيام الآحاد. وكانت عقدة ربطة عنقه المنقطة، كبيرة ومليونيرية، ومنديل سفير يبرز من جيب سترته العلوي، وابتسامته على الدوام خفيفة، وكانت موسيقى مذياعه لباخ، أو شوبير أو شومان. ولكنها ليست مطلقاً لشونبرغ.

كُتبه كانت مغلفة بالجلد، ولم أكتشف فيها قط، صفحة مطوية ليشير إلى الموقع الذي قطع فيه القراءة. وقد كانت لديه، على الدوام، النقود ليشتري لي قطعة مثلجات في السينما، بالرغم من أنه كان يستدين في أحيان كثيرة علبة سجائر، من نوع أوبرا، من صاحب الكشك.

لقد كان جدي فقيراً، ولكنه لم يكن عادياً. وهذا السرب من الغربان المتأففة الذي يرافقنا، بدا لي أقرب إلى وكر زنابير، تطن برؤوسها التي بلا قرون استشعار، وقوائمها الدبقة فوق تابوت ملك سرّي.

كان عليّ أن أمحو الواقع من رأسي بأن أسرب إليه قصة «كينغ كونغ» التي كان الجد قد رواها لي ألف مرة. الآن بالذات يتوجب على الغوريلا أن يهرب من علب أشرطة السلولويد التي تحبسه في حجرة

عامل العرض، وعليه أن يتقدم بخطوات وحشية واسعة، نحو المقبرة، مدمراً بدوي وقع قدميه **قصر لامونيدا وفندق كاريرا**، محولاً **محطة مابوتشو** إلى عصيدة **ولابيفا** إلى حساء خضروات. كنت أتضرع إليه أن يأتي بأنفاسه الموبوءة إلى هذه المجموعة القاحلة من القبور. وأن يرفع بمخلبين من مخالبه جماعة الأقارب المنافقة، وأن يسحقهم بين أصابعه، كأنهم أجنحة عثة.

ثم يمسك بعد ذلك ببنات العمومة المغرورات من سراويلهن الداخلية الوردية، ومن مناديلهن المعقودة على رؤوسهن، على طريقة بيتي غريبل، ويسحق أعمدتهن الفقرية المتغطرسة، ليخلفها ملتوية، مثل فأرات مسرنمات حدباوات.

كينغ كونغ وحده هو القادر على أن يمتص لهم، بلحسة واحدة، مصاصات لوليبوبوس الحمراء، ذات طعم الفريز التي يلحسنها بخبث، وهن يضحكن من حذائي المدرسي، لأن جوفانا تفهم أن يوم الأحد ليس مجرد يوم في الأسبوع، وإنما هو فعل نعمة، يجب أن نلبس فيه، ونحتفل به.

كان قلبي يتضرع: هيا، تعال أيها القرد. انفخ بنَفَسك الغابيّ رماد الجثث القديمة. احجب بغيومك هذه الشمس المرعبة التي تقهقه ساخرة من الموت. ابصق نيراناً، واصهر الموتى المحدثين مع غزلان وكوندورات سلسلة الجبال[1]. اخلط الخيول السوداء اللامعة مع تماثيل الرخام القبيحة. اجعل الأكاليل الجنائزية تتطاير نحو السماء، مع طيارات الأطفال الورقية.

وبينما نعش الجد يدخل، دون أبهة ولا مظاهر، في فجوة أفقية من

---

[1] في هذا إشارة إلى شعار جمهورية تشيلي المؤلف من ترس يقف على أحد جانبيه غزال وفي الجانب الآخر نسر كوندور.

الاسمنت، كان قلبي يصرخ طالباً القليل من الرفعة الطبقية، نزراً ضئيلاً من النعمة، هدنة خنزيرة متواضعة لا تُنسى من النعمة التامة.

«يا قديسة مريم»، قال الكاهن الذي جاء راكضاً في اللحظة الأخيرة، وعصر يديه مشيراً إلى أن هذه هي نهاية الطقوس. لم تكن هناك تبجحات، ولا حتى قريب متفلسف يبصق باحتقار عبارة تأبين على هذا العدم التام.

تنويع بديع من العدم حققته برحلتك إلى تشيلي يا «جدي». وأقسمتُ أن أكون منذ تلك اللحظة، مع غوريلا أو دون غوريلا، عصية على الاستسلام.

حيث لا توجد حياة، سأتخيلها برغبة شديدة تحوّلها في لحظة ما إلى واقع. حتى لو سحقني هذا الواقع في ما بعد، وحولني إلى هلام وأعادني إلى الطين والروث الأصلي. وإذا ما أنكروا عليّ العالم، فسوف أخرج بنفسي في طلبه والبحث عنه.

لقد فهمت الآن الدرس يا جدي: كان لا بد من القفز إلى الماء مع رينو كوبيتا.

XIII

لدى العودة إلى البيت، أعدت جوفانا بسرعة سندوتشات مرتديلا مع شرائح بندورة. وفتحت زجاجتي كوكا كولا، وبدأنا تناول العشاء بصمت. ثم ظلت لوقت طويل، بعد العشاء، تنظف الفتات عن شرشف المنضدة. وعندما صار نظيفاً لا تشوبه شائبة، واصلت مطاردة نتف خبز مُتخيلة. وضعت سيجارة بين شفتيها، وتكلفت جهداً هائلاً للعثور على ثقاب.

أعلنت ساعة الجدار الواحدة وخمس عشرة دقيقة، بضربة صنج

جافة.

وكانت ساعة الإمباير ستيت بيلدينغ تشير إلى الواحدة وست عشرة دقيقة. إنها الآن آلة ذات قلب آخر وسرعة جديدة.

في هذه الساعة، يكون أصدقائي الصبيان في الحي مطليين بمرهم مثبت للشعر، لتحوّل لهم أمهاتهم شعورهم المشعثة إلى تسريحات مهذبة، بضربات مشط صارمة ولمسات موهوبة.

أما صديقاتي بالمقابل فيفعلن مثلي: يغادرن بيوتهن ببراءة بالغة، وكأنهن ذاهبات إلى قداس الفجر، ولكننا ما إن نصل إلى الساحة، حتى نجلس تحت شجرة الأومبو ونطلي شفاهنا بصورة رهيبة، مثل آفا غاردنر، ونتفحص المكياج في المرايا الصغيرة ذات مسحوق الصدف التي تسرقها صديقاتي من جداتهن.

وعلى أفواهنا الخاطئة، نتلقى بعد ذلك قبلات الصبيان الذين يكونون من نصيبنا في المقعد المجاور في السينما. في بعض الأحيان، نتوس بين الجارين. وفي مناسبات أخرى، نهرب من المقعد ومن الصف الذي نجلس فيه. وهذا يعتمد كثيراً على المكان الذي يجلس فيه عازف المزمار المزدوج، خيريا، الذي كان بديناً، بقدر ما هو حام ومندفع.

لا بد أن الجميع يتهيؤون على أحر من الجمر لمشاهدة كينغ كونغ، بينما عليّ أنا وحدي، في هذا العالم ومحيطه، أن أحمل ثقل الحداد، مجلودة بفم يزداد حيوية وحدّة مع تقدم عقارب كل ساعات البيت. عندما قرّبت جوفانا كرسيها، وأسندت رأسي إلى كتفها، لكي تطبع قبلة طويلة ومواسية على جبهتي، عرفتُ أنها اللحظة المواتية للهجوم.

ـ جوفانا ـ تصنعتُ رقة اليتيمة التي تصورت أنها لا تُقاوم ـ أعطني مصروفي ليوم الأحد، كي أذهب إلى السينما، ما رأيك؟

ـ ليس اليوم يا حبي. علينا أن نبدي لفتة احترام للجد.

ـ لا أفهم لماذا يجب أن تكون لفتة الاحترام هذه هي عدم الذهاب إلى السينما.

ـ الأمور دوماً هكذا. لا يخرج المرء للهو عندما يموت شخص يحبه. أولم تري أن المذياع لا يبث في أيام أسبوع الآلام مثلاً، إلا الموسيقى الكلاسيكية؟ يجب أن تتعلمي منذ الصغر إعطاء الموت مكانته.

أبعدتُ رأسي عنها، وذهبت للاستلقاء على الفراش، مغرقة وجهي في الوسادة، ورافسة الفراش إلى أن تشنجت إحدى ساقي. وبعد لحظات أبدية جاءت إليّ وهي تمسح يديها بالمريلة، وهذه حركة تقوم بها دوماً، عندما تتخذ مظهر الجديّة.

ـ لقد فكرتُ في أنك صرت طفلة كبيرة، صبية تتحملين المسؤولية. وأنت بحاجة إلى حيز لأشيائك، لألعابك، لصديقاتك. مكان يمكنك أن تقرئي فيه بهدوء، وتُنجزي واجباتك المدرسية. حيز يكون لك. وباختصار، لقد قررت أن أعطيك غرفة الجد، لتكون لك وحدك. يمكنك أن تُخرجي منها كل ما لا تريدينه، وأن تستبقي ما ترغبين فيه.

ـ ما ترغبين فيه أنت هو أن تبقي وحدك في غرفتنا، لكي تتمكني من إحضار رجال إليها.

فركت جوفانا كفيها لتهدئ غضبها، ولكنها لم تستطع كبح نفسها، طويلاً، من توجيه صفعة إليّ.

ـ أريد الدراجة النارية ـ قلتُ لها وأنا أفرك خدي.

ـ الدراجة النارية لم تُستخدم منذ عشر سنوات. لقد تركها الجد مهجورة، منذ أصيب بالتهاب المفاصل.

ـ ولكنني أريد الدراجة النارية على أي حال.

ـ إنها لا تسير. وإذا كانت تسير فلن أسمح لك مطلقاً بتعلم قيادتها.

ـ سأستخدم خوذة واقية.

ـ الدراجة صدئة، مثل ذاكرة الجد! إنها لا تتذكر شيئاً!

ـ أنا أعرف أشياء لا تعرفينها.

ـ إنك مدعية. ما الذي يمكن أن يكون قد أخبرك به ولا أعرفه!

ـ لقد روى لي قصة *الطوربيد* سانتثيث.

ـ لم يروِ هذه القصة لأحدٍ قط.

ـ بمن في ذلك أنت؟

ـ بمن في ذلك أنا.

ـ أتودين سماعها؟

ـ الأمر سيان لدي ـ وزمت جوفانا شفتيها.

ولكن الأمر لم يكن سيان لديها.

XIV

توجهتُ نحو دمية المانيكان الذكورية التي احتفظ بها الجد، كزينة، طوال سنوات، إلى جوار سلة مهدي. كان الرجل الدمية يرتدي عباءة من الحرير الأحمر، وقبضتاه إلى الأمام في وضعية الدفاع. ووسط دائرة بيضاء على ظهره، كُتب: «الطوربيد سانتثيث». مرة واحدة فقط، منذ حوالي سنتين، سألتُ الجد عن أصل هذا التمثال، ولأنه بقي مستاء طيلة أسبوع، لم أعد ألح على الموضوع.

في بعض الليالي، عندما كنتُ أحلم بـ «تايرون باور» بعد مشاهدة السينما، كنتُ أقبّل التمثال قبلة تخلف وفرة من أحمر الشفاه على فمه الصلف. ولكن بين يوم الأحد الذي أخبرني فيه بأنه سيموت وليلة موته، استعاد تيبي بعض الحوارات الملغاة. فبينما هو يغمس قطعة البسكويت المطلية بالزبد، في كأس القهوة بالحليب، محدثاً تلك الدوائر الدهنية التي تروقه، توجه إليّ وأنا أراجع نص إملاء اللغة القشتالية، قائلاً:

ـ وبمناسبة ما سألتني إياه عن الطوربيد سانتشيث ـ أطلق كلامه دون مقدمات، وتابع: ـ يقولون إن لي عينين زرقاوين بالغتي الخصوصية.

ـ الجميع يقولون ذلك يا جدي.

ـ الفتيات كن يرغبن في أن يرافقنني بسبب نظرتي. ولكنني لم أكن أعرف كيف أتحدث إليهن.

ـ لماذا؟

ـ كنتُ أكتب في الليل دفتراً، ولكن الكلمات تنفد مني خلال النهار.

ـ ألم يخطر لك قط أن تتواعد معهن ليلاً؟

ـ الفتيات كن يسخرن من طريقتي في الكلام. بسبب الراءات اللعينة، أتعرفين ذلك؟

الحقيقة أن راءات الجد كانت تبدو مثل تزلج على الجليد. تأتي ناعمة من عمق الحلق، وتتجرجر بين الصوتيات الوسيطة. لا بد أن يكون غررررريباً جداً الوقوع في غرررررام شخص لديه هذه الرررراءات الررررهيبة.

ـ وما علاقة الراءات بالطوربيد سانتشيث؟

ـ لأن ساحة كولون في أنتوفاغاستا، كانت وكراً لعصابات الاستفزازيين الذين يرونني نحيلاً وصامتاً، فيتخذونني جوكراً لفظاظاتهم. عندما أدنو من إحدى الفتيات، يرمونني بقشور الفول السوداني على وجهي، وفي إحدى المرات أنزلوا مخروط مثلجات، من ياقة قميصي، على ظهري.

ـ لو كان أخوك رينو مكانك لقتلهم.

ـ يمكنني أن أؤكد لك مئة بالمئة، بأن أخي رينو ما كان ليتورع عن قتلهم.

ـ وما علاقة مخروط المثلجات بالطوربيد سانتشيث؟

ـ في شارع أوريبي، بالقرب من ثانوية الذكور، كان هناك نادٍ

رياضي صغير، يديره ماريو سانتشيث، وهو ملاكم محترف، كان بطل أميركا في القرن الماضي. وكانوا يلقبونه الطوربيد لسببين اثنين: بسبب قوة يسراه الماحقة، في أيام مجده؛ وللسرعة التي كان يغرق بها في النبيذ عندما أنزلته السنوات عن منصة الشهرة.

«تسجلتُ كمتدرب وحيد في ناديه، وبعد ثلاثة أيام تنبأ لي ببلوغ الشهرة العظمى، والتألق في حلبات الملاكمة. والحقيقة أنني لم أكن راغباً في الاحتراف. فأقصى ما كنتُ أرنو إليه، هو أن أكسر سناً لأحد زعران الساحة.

وقد قال لي الطوربيد:

ـ لا يمكن للشهرة يا إستيبان أن تأتيك، وتجدك متنحياً غير مهيأ لها. سأمنحك الشرف ببيعك عباءة بطولتي.

رأيتُ جوفانا تنظر بارتياب إلى العباءة، حائلة اللون بسبب مرور السنوات، والسر الذي حولها إلى خرقة لا تفسير لها.

ـ كان يجعلني في كل ليلة أتقافز حتى الإنهاك على الحلبة، وكان يستبقيني لساعات أضرب كيس رمل، إلى أن اكتسبت عظامي الهشة متانة الاسمنت. ولكي يجعل لي خصراً رشيقاً، أجبرني على أن أقضي ليالي بكاملها، وأنا أوجه ضربات من تحت إلى كيس من الجلد. بعد ذلك علمني كيفية حماية نفسي وأنا أكشف وجهي، كما لو أن خصماً غير مرئي يسعى للنيل مني.

وبعد شهر من التدريب في النادي الرياضي، ذهبتُ لأرمي فتات خبزٍ للطاووس الذي في الساحة، وأظهرتُ نفسي، متعمدا، أمام أنظار عصبة الزعران والفتيات. انفصل مارد عن الجماعة، وأمسك بي من مؤخرة بنطالي، وقذف بي إلى جوار الحيوان. وبعد أن رفع قبضتيه، مثلما يفعل المصارعون الظافرون، خبط الأرض فوقي ملوثاً وجهي بالتراب.

نهضتُ واقفاً، بهدوء، برصانة، باحتراف، مثلما علمني سانتشيث.

نفضتُ الغبار عن سترتي، رفعت بنطالي، وتقدمت ببطء نحو المارد، وأنا أنظر إلى عينيه. كان يبتسم ساخراً، فيلمع سن ذهبي تحت شفته العليا. كان الطوربيد قد قال لي: «وجه إلى الخصوم طوال القامة لكمة في الكبد. ولكن ليس لكمة ودية. بل لكمة تفتت كبدهم منذ البداية، وبعد ذلك نواصل الحديث.» وعندئذ وجهت إليه لكمة.

- ليست ودية.

- ليست ودية.

تدخلت جوفانا مغطية فمها بيدها. كانت غاضبة، لأن الجد لم يرو لها هذه القصة.

واستطعتُ التملص منها بالقول:

- وحسب ما رواه لي الجد، فإن المارد قد وصل، قبل مجيء سيارة الإسعاف، إلى لحظة «الموت السريري».

لقد فتنتني هذه العبارة، فأفرطتُ في استخدامها خلال السنوات التالية، لأزعج الجد عندما يستغرق في المسلسلات الإذاعية، ولا يولي اهتماماً لأسئلتي.

إنك ميت سريرياً!، كنتُ أصرخ به، وأنسل تحت السرير لأتجنب أن يشدّني من أذني.

لم يكن هناك ما يستثير حفيظة إستيبان أكثر من تذكر تلك اللحظة المشؤومة (وكان يبصق حروف كلمة **مشؤومة** مثل الرصاص) لأنها عنت بالنسبة إليه، قضاء ليلة حبيس السجن، وتوجيه النائب العام إليه تهمة تبعث على القشعريرة: «الشروع في القتل»، وإرسال طلب إلى العدالة الماليسية في جيما لمعرفة إذا ما كانت له سوابق جنائية.

ولكن تدليك عضلة قلب المصاب، وإجراءات التنفس المقرفة، من فم لفم، فوق شفتي المارد المتبجحتين، والتنشق العميق للأمونياك المنعش، أعطت مفعولها الشافي في المستشفى، فشكر المارد صورة

للعذراء يعلقها على صدره كثيف الشعر، وقرر التحول إلى عمل الخير. ومضى بحثاً عن الماليسي ذي الضربة القاضية، ولم يكتف بسحب تهمة الإجرام التي كان يمكن لها أن تؤدي إلى طرد الجد من تشيلي، وإعادته إلى سواحل ماليسيا، في أوج الحرب العالمية، بل عرض عليه كذلك أن يتولى حمايته في نزهاته أيام الآحاد، مقابل تعرفة متواضعة، تُدفع كل شهر.

وافق الجد بمهانة على كل تلك العروض، واقتنع حسابياً، بأن خدمات الحماية الاحترافية التي سيقدمها إليه المصارع المصروع، لن تكلفه إلا ثلث ما تكلفه إياه دروس الطوربيد سانتشيث، فغادر النادي، وترك تقدير مأثرته يتزايد أسطورياً في النزهات الأحدية.

بقي الأمر على تلك الحال، إلى أن حدث في ليلة متأخرة، أن تمكنت فتاة من فتح حوار معه، وكانت فتاة سمراء لا نهائية، ذات فم واسع، وعينين زائغتين، وفخذين محرقين (حرفياً عن الصحفي بافلوفيتش). جعلته يدعوها إلى السينما، ولدى الخروج، عرض عليها إستيبان «الصداقة» دون أي التزام من أي نوع، لأنه ينتظر خطيبته التي قد تصل، في يوم ما، من وطنه. ووافقت السمراء على الاتفاق (حرفياً حسب بافلوفيتش أيضاً) لأنها ذات «قلب كبير، وكبير جداً»، في تلميح إلى أغنية بوليرو شائعة بصورة تبعث الغيظ.

- هل تشعرين بالغيرة يا جوفانا؟ - قلتُ منهية.

XV

- كل شيء ما عدا الدراجة النارية - قالت جوفانا وهي تنهض - يمكنك أخذ كل ما تشائين. وما يتبقى سنبيعه، لأنني لا أعرف مم سنعيش.

ـ حسن ـ قلتُ وأنا أنظر برعب إلى تقدم الساعة ـ أريد السرير، وملاءات الحرير، وصندوق القراصنة مع كل مفاتيحه، ودمية الطوربيد سانتشيث، والدراجة النارية.

ـ يمكنك أن تأتي بأشيائك إلى الغرفة عندما تشائين.

ـ بعد مشاهدة عرض بعد الظهر في السينما.

ـ لن تذهبي إلى أي عرض سينمائي هذا الأحد.

ـ على الرغم من رغبة الجد الأخيرة؟

ـ وما هي رغبة الجد الأخيرة هذه؟

ـ عندما طلبتِ مني أن أراه، قبل أن يخرجوه في التابوت، همس في أذني: «رغبتي الأخيرة هي أن تذهبي لرؤية **كينغ كونغ** في السينما».

تناولت جوفانا حزاماً ذا إبزيم كبير من أحزمة الجد، وشدّت عليه غريزياً.

ـ عندما اقتربتِ منه كان ميتاً.

فقلتُ مصححة بتسلط:

ـ كان ميتاً سريرياً.

ـ ولماذا يكرس زفرته الأخيرة، ليوصيك برؤية فيلم القرد؟

ـ هذا ما يتوجب عليّ أن أتقصاه!

رفعتُ إصبعاً قسرياً. لقد أحسست بطريقة ما، بأن كل الفضول تجاه كل ما رواه الجد لي وحدي، وما صمتَ عنه من أجلي، بدأ يُفقدها استقرارها. فقد كان عليها أن تتعايش، بالمصادفة، مع سرٍّ لسنوات. وتبين لها الآن، أنني أنا من تملك، على ما يبدو، مفاتيح ذلك السرّ بعد صمت العجوز النهائي.

ـ يخيل إليّ أنه لم يفعل ذلك من أجل القرد، وإنما من أجل **الإمباير ستيت بلدينغ**.

فقلت:

- أعلى بناء في العالم.

أخرجت محفظة صغيرة، تضعها دوماً في حقيبتها أو في مريلتها. وأخرجت منها قيمة تذكرة الدخول إلى السينما.

- لا بأس، ولكن لا تنسي وأنت تشاهدين الفيلم، أنك في حالة حِداد.

- أجل.

- إذا كان هناك مشهد كوميدي، فلا تضحكي.

- لا تقلقي من هذه الناحية. فهو فيلم رعب.

- حسن.

كان الوقت في ساعة نيويورك هو الثالثة عشرة وخمسين دقيقة. وفي ساعة الجدار، الثالثة عشرة وإحدى وخمسين دقيقة.

بعد أن اشتريتُ البسكويت والحلوى، وطليت شفتي تحت شجرة الأمبو، ثم دفعتُ قيمة تذكرة الدخول إلى سينما القصر، في الساعة الرابعة عشرة، في الوقت الذي بدأ فيه إطفاء الأنوار بالضبط. وباعتبار أن الوصول من سريري حتى كوة التذاكر في السينما، بعد اجتياز ساحة البرازيل، والوقوف في الدور من أجل التذكرة، وطلي شفتي، يتطلب مني عادة خمس عشرة دقيقة على الأقل، فإن الرقم القياسي الذي سجلته في ذلك اليوم، يمكن اعتباره معجزة تُنسب إلى الجد.

ساعة الساحة، المتأخرة دوماً، دقت أربع دقات في الوقت نفسه الذي بدأت فيه زمجرة أسد ميترو غولدن.

XVI

في الساعة الخامسة مساء، وبينما أنا أمسح أحمر الشفاه عن شفتي، وأعيد وضع منديل الحِداد حول عنقي، وبينما لثتاي متخمتان بالسكاكر ومثلجات الفانيليا، وعيناي تدمعان من حدة الشمس

المائلة، والسخط من مغادرة أدغال نيويورك إلى هذه الساحة الريفية الخاملة، جلستُ إلى جوار أصدقائي من أجل توزيع الأدوار.

الحقيقة أنني كنتُ مهتمة بدور الغوريلا أكثر من اهتمامي بدور الشقراء فاي راي، ولكنني لم أكن أعرف كيف يمكنني إقناع الصبيان بأن تقوم بنت بأداء دور شخصية الغوريلا.

ومع ذلك كله، بدأ ينمو في داخلي، منذ ذلك العرض، هاجس مُطَعَّم بالخبث تجاه «تيبي». ففي نهاية أسماء المشاركين في صنع الفيلم، كان هناك اسم، شدّني بتلك الضراوة التي ما زلت أشعر بها تجاه الكلمات. فكمساعد إعداد الخدع في الوحدة الثانية، ظهر اسم **راي كوبيتا** بحروف بيضاء. ولم يكن الاستنتاج بأنه يمكن لراي كوبيتا، أن يكون هو نفسه رينو كوبيتا، البطل الهارب من الوطن الماليسي والذي غرق في ميناء نيويورك، والشقيق المشؤوم لجدو، يتطلب أكثر من رمشة عين، وحياة تواطؤ وإضمار مع إستيبان.

في أحد الأيام، قال لي طويل العمر رولاندو الطويل، بعد تناوله زجاجة خمر، إن الجد لا يرغب في الحديث عن رينو، لأنه كان مجرماً.

ـ كان مجرماً؟ ـ سألته.

فضرب رولاندو كعب الزجاجة، وهز كتفيه وهو يبتسم، طالباً المعذرة لانتهاء القصة وزجاجة الشراب.

لقد كانت علاقتي بآل كوبيتا جوهرية بصورة سطحية (لا أجد طريقة أخرى أقل تناقضاً لطرح الأمر)، ولكن بين قائمة الكنى الطويلة التي تملأ العالم، لم يختاروا لي في سواحل ماليسيا أي كنية منها.

لقد أسموني مجدلينا وحسب.

دون كنية.

فأبي، محارب سري، وربما يكون قد مات، وأمي لحقت به إلى

الخنادق لتطبخ له المعكرونة العريضة.

لا يمكن لي أن أكون من آل كوبيتا، لأن حفظة أخبار جيما في أنتوفاغاستا، الذين لا يكتبون التاريخ وإنما يبصقونه شفوياً، في مقاطع متفرقة، ما بين جولات البوكر أيام السبت، في النادي الماليسي، يؤكدون جازمين أن إستيبان لم يمس آليا إيمار، ولو ببتلة سيدة.

- جدي؟

- ما هو هذا الكلام عن بتلة، وعن سيدة؟ ردّ عليّ تيبي.

- إنها استعارة مجازية يا «جدو».

- شكراً. ولكني لستُ شاعراً.



لكن المهم، في يوم الأحد ذاك، هو تقديم نسختنا من **كينغ كونغ**، في ساحة البرازيل. لم تكن مجرد لعبة صبيانية، وغراميات مملة. جميعنا كنا صبية في حوالي الثانية عشرة من عمرنا، ولكننا مخلصون إلى حد اللعنة لتخيلاتنا. فالتوافقات بيننا كانت أكبر من الاختلافات، ولا نستثني هنا حتى خيريا، عازف المزمار المزدوج.

وقد كان خيريا هذا، حين تحلّ لحظة تمثيل الدور الذي اختاره، يغوي، يدفع، يثير الحقد في عيون المنافسين، ويطلق غازات شديدة النتانة ليفرض نفسه.

في ذلك اليوم كانت الاستثارة شديدة، وحِدادي كبيراً، إلى حد أن الجميع غفروا لي تسلقي شجرة الأمبو، وتقليدي صوت الطائرات، وضجة حركة المرور في مدينة نيويورك الهائلة، وأدائي دور الغوريلا، حتى قبل توزيع الأدوار بصورة ديمقراطية.

الفتيات كن يلمسن صدورهن، ليتأكدن كم كبرت نهودهن خلال ذلك الأسبوع. وكنت أنا نفسي قد تقدمت بعض الشيء: ففي

موضع الحلمتين، بدأ يبرز نتوء، حدده بائع المثلجات جينو، على أنه «واعد».

يجب أن يكون توزيع الأدوار نسبياً. بحيث يحصل كل واحد منا على ما لا يقل عن خمس دقائق من البطولة، بمن في ذلك كنّاس *الأمباير ستيت بيلدينغ*. وكل متضرر، بالتعيين أو بالقرعة، عليه أن يملأ تفاهة دوره بالتخيلات، لأن ذلك سيكون موضوع أحاديثنا طوال أسبوع. وكانت شاعرة تشيلية قد كتبت للتو: «جميعنا نريد أن نكون ملكات». أما نحن، جميعنا، فنريد أن نكون ممثلين سينمائيين.

لقد كان الواقع ضَجَراً كاملاً. وكنتُ أنا أعتمد على تمنياتي وحدها، لبلوغ النجومية. فقد كان نهداي مجرد حبتي عنب فرانسيسكانيتين بالمقارنة مع الدراقتين الربيعيتين لدى كل واحدة من البنات الأخريات. ولكن، لم يكن هناك أحد سواي يعرف، بالإنكليزية، ثلثي أغنيات ديانا شور، وبيغي لي، وبيري كومو، وكامل أغنية *Because of you* **(من أجلك)** لتوني بينيت. ولسوء حظي أننا كنا فقراء. فقد كانت شركة RCA قد أطلقت الفونوغراف الآلي ذي 45 دورة في الدقيقة، وكانت «خبطة» السنة هي *شباك الحب*، حيث يغني ماريو لانزا *Be my love* **(كن حبيبي)**، ولم يكن لدى جوفانا قطعة نقد واحدة في محفظتها.

Be my love, cause nobody else can end this yearning[1].

في الثالثة عشرة من عمري، كان يحرقني اليقين بأنني لن أجد الحب أبداً، وأن أحداً لن يهدئ معاناتي تلك. وخاصة بعد أن صار الجد تحت التراب. فقد مات وزير علاقاتي العامة.

والآن، ونحن في ساحة البرازيل، أملت علينا الشراسة بأنه لا بد لكل نسخنا من قرود الشاشة، أن تنتهي نهاية قيامية. فالجميع يجب أن يموتوا، باستثناء البطلين، من أجل قبلة النهاية اللعينة وحسب!

---

[1] بالإنكليزية في الأصل «كن حبيبي، ولا تسمح لأحد أن ينهي هذا التوق».

لقد كانت النهاية السعيدة شرطاً تُجمع عليه كل البنات. أنا كنتُ أوافق على المنهج بقرف، على أمل أن أراكم الخبرة، لأعرف في يوم ما، كيف أُقبّل تايرون باور عندما يشدّ على خصري، ويجذب نحو فمه خوختيّ شفتي الرعديدتين.

المجازر والمآسي الطبيعية التي كنا نحاكيها من السينما، من الفيضانات، والزلازل، والحرائق، والأعاصير، كانت تُحدث تأثيراً مُطهِّراً في أرواحنا؛ ولكنها تحدث أضراراً لا سبيل إلى إصلاحها في بلوزاتنا وبنطلوناتنا، وتعذيباً لأمهاتنا، وكسوراً في العظام، ونزلات صدرية، ودمامل تعرضنا لتعذيب أطبائنا. لم يكن هناك في تشيلي نقود تدفع للدكاترة، ولكن كان لدينا جميعنا «عم» ما من النقابة، يأتي بحقيبته وحقنه المجانية، بل ويُحضر معه حلوى لترافق فنجان الشاي الذي نقدمه إليه.

كان عرضنا متكاملاً تماماً، حتى إنه كان لدينا ماركوس خينا، الخبير بكل ما له علاقة بالموسيقى التصويرية والمؤثرات الخاصة: وقع حوافر خيول، بوق هجوم «الرينجر» على ذوي البشرة الحمراء، ريح عاتية تهب على الكثبان، حيث تذوي مومياءات مخبأة؛ ورسل من الفيلق الأجنبي؛ وقاذفات نيزكية أسرع من الضوء، تندفع لتدمر النازيين في هامبورغ.

كنا نحدد، بصرامة، موقع الأحداث، ومن سيكون **كاوبوي** أو هندي. ومن هو **الشريف** أو الغريب المشاكس. ومن هو الساقي في البار، ومن هي الغانية. ومن سيكون عازف البيانو سام، في «**كازابلانكا**»، ومن هو بوغارت. ومن سيكونون المستكشفين، ومن هم أكلة لحوم البشر.

لم تكن التفاصيل تهمني، اللهم إلا عندما تتعلق الدراما بنيويورك. عندئذ أكون أنا من تتمتع بامتياز تحديد أن يكون التحري، في السطو على محل المجوهرات، هو خيريا. وأن يكون الأخوان سيلفرمان

هما اللصين، وبيدرو بابلو بالاثيوس هو أستاذ المدرسة. وأن تؤدي كارمن لويسا اسبينوسا، دون سواها، دور بيتي سمبسون.

XVII

كانت بيتي سمبسون هي بطلة كل أفلامنا، وهي من يتوجب عليها أن تقدم، في النهاية، القبلة للمنتصر. وكان عليها أن تضع، في مشهد الذروة، طبقة مزدوجة من طلاء الشفاه القرمزي، وأن تحرك لسانها بإيقاع إيروتيكي، من أحد جانبي فمها إلى الجانب الآخر.

وكانت القرعة، على تمثيل الدور، تتم بكسر أعواد ثقاب. فمن تسحب من القبضة المطبقة أطول العيدان، تهرع لتتزين وراء شجرة الأمبو، ويختبئ المتودد الوسيم معها، حوالي دقيقتين، خلف الشجرة، ليلحسها على سبيل التعارف.

جميع فتيات الحي، باستثنائي أنا، كن يتلهفن لأداء دور الآنسة سمبسون. وكن يحملن في محافظ نقودهن، وحتى في حقائبهن المدرسية، إصبع «ريفلون» من علبة تجميل أمهاتهن. وفي أيام الآحاد، نعلقه بسلسلة فوق صدورنا الناهدة. فقد توصل قلم الشفاه إلى أن يكون، بدلاً عن الصليب الكاثوليكي، رمز فتيات العصبة، وبطريقة لا تقل بلاغة عن المقاليع التي يحملها الفتيان في جيوب بناطيلهم الخلفية.

ولكن طقس عيدان الثقاب فقد مصداقيته، عندما حصلتُ على النجومية مرتين، وحصلت عليها آنا ماريا ليبي، أميرة الثرثرة، في ثلاث مناسبات متتالية. ونادراً ما كان الحظ، بالمقابل، يواتي كارمن لويسا إسبينوسا التي تبدو كما لو أنها قد رُسمت لتكون غلافاً لمجلة بلايبوي: كانت شفتاها تتضخمان بالتمدد الحراري الذي يصعد من

فخذيها، وعيناها تزيغان وتدوران بانتشاء، عندما تأتي أفواه الرجال بألسنتها المشهرة لتقبيلها، وبينما هم يُدخلون لعاباً بين أسنانها اللامعة، تلامس هي نفسها نهديها الناضجين والصلبين.

كانت ثنائية إسبينوسا ـ سمبسون تبعث الجنون في الفتيان.

فألغوا عندئذ القرعة بعيدان الثقاب، واختاروا أسلوب التصويت الديمقراطي بالأغلبية البسيطة. وكانت نتائج هذا التصويت دوماً، أربعة أو خمسة أصوات لصالح **ملكة جمال ساحة البرازيل**، كارمن لويسا إسبينوسا ـ بيتي سمبسون. ولم يكن الصوت المعارض، في الغالب، إلا خطوة تكتيكية، لا تؤثر على انسجام جماعة الصبيان، ولكنه كان مع ذلك لفتة لباقة لا تُقاوم، حيال الهيجان الجنسي الذي يبديه الصبيان عندما يكونون عديمي التجربة تماماً. فكانت الديمقراطية تجد العزاء في هذا الصوت المنشق، وتناضل المتطلعات إلى أداء دور بيتي سمبسون، بأحمر الشفاه، وبالعطر، وبفتح الصدر، لكسب صوت إضافي في يوم الأحد التالي.

الأسماء الأخرى كانت تتبدل، حسب إلهام أو هوى كل واحد منهم. بالرغم من أن بعض تلك الأسماء كان يفقد سمعته أسرع من غيره، إلا أنه لا يلبث أن يؤكد مكانته باسم بديل من قائمة تضم **جيمس سميث، توني ويلسون، روبيرت جونس، وألان غولد.**

وقد قررت أنا، في هذا الأسبوع بالضبط، في يوم دفن جدو بالذات، أن أدشن لنفسي اسماً أقسمت، في قلبي، أن أبقى وفية له مدى الحياة؛ مهما كان الدور الذي سيكون من نصيبي، سواء أكان دور متسولة أم مليونيرة، ملكة أم جارية، رائدة فضاء أم عاملة منجم، فأرة أم أفعى، ماسحة أحذية أم عاهرة.

ـ وما هو هذا الاسم؟ ـ جأر البدين خيريا.

فرفعت صوتي وذقني، وقلتُ:

ـ آليا إيمار كوبيتا.

لقد مات الجد، ولا يمكن لأحد أن يتهمه بزنى محتمل، إذا ما كان قد مارس الحب فعلاً مع فتاة لها هذا الاسم في جزيرة جيما، جدتي المفترضة التي اغتصبها الجيش المعادي. وإذا ما افتروا عليه، واعتبروني دليلاً واضحاً على علاقته غير الشرعية مع جدتي، فإن عباءة التراب التي تغطيه، ستخفف من وقع الصدمة عليه.

وفي تلك اللحظة نفسها، ومن ظلمة أعمق من ظلمة ظلال شجرة الأمبو، سُمع فجأة صوت بيدرو بابلو بالاثيوس الأجش الذي صار، منذ ذلك الحين، نصفي الآخر، من هذا الحيوان القذر وغير المرئي الذي صرنا إليه. كان كما لو أن الجد قد أرسله إليّ من الجنة.

هذا لا يعني أنني كنت أراه للمرة الأولى، ولكنني لم أكن أعرف من قبل أن تجعدات شعره مشعثة إلى ذلك الحد، وأن حاجبيه الكثيفين يضفيان عليه هذا المظهر الراشد، وان في سترته الجلدية السوداء شيء من الهمجية والجنوح.

- إذا كان بإمكان أحدنا أن يختار لنفسه اسماً إلى الأبد، فأنا أريد أن أضع لنفسي اسماً، أرغب فيه كثيراً.

- وما هو؟ - سألتُه، منتفعة من السلطة التي تمنحني إياها شفافية أنني اخترت إسماً تمتلئ به حياتي بالمغزى. لم أشعر بمثل تلك الاستثارة من قبل. فقد أحسستُ للمرة الأولى بالرغبة في أن أكون بيتي سمبسون، وأن يدس هذا الجانح بيدرو بابلو بالاثيوس لسانه في فمي.

- إنه اسم أقصر من اسمك يا آليا إيمار كوبيتا، ولكنه أكثر رواجاً بكثير.

- ما هو الاسم الذي ترغب في أن تتخذه؟

- سأكون صريحاً يا رفاق. أريدكم أن تنادوني منذ اليوم باسم **نيويورك**.

نظر الصبيان والبنات بعضهم إلى بعض بذهول، باستثنائي أنا، فقد كان ب.ب.ب.، أي بيدرو بابلو بالاثيوس، قد ناداني باسمي

الجديد، فانتفخ قلبي مثل عصفور متأهب للتحليق. لقد أحسست بذلك التعميد في بطني. ولو نادوني في تلك اللحظة **قُبَّرة**، لبدأت أطفو محلقة. ولو نادوني «**فيل**»، لاقتلعت شجرة الأمبو بخرطومي. ساد صمت غير معهود في هذه الأعمار، وراح يتعاظم بينما كانت بيتي سمبسون تفقد مكانتها كبطلة دائمة، وكان وجهها المتورد آخذاً بالانطفاء.

ـ لن أذهب في أحد الأيام لأعيش في نيويورك وحسب ـ قال بيدرو بابلو بالاثيوس، وهو يمر بمعصمه على فمه، مثل رشة مسدس رشاش ـ بل سأكون أنا نفسي نيويورك أيضاً.

كان خيريا هو أول من استبق إلى التفكير السليم، والتفكير السليم في تشيلي متوافر بكثرة، مثل البراز. فقد أفتى قائلاً:

ـ هذا غير ممكن.

ـ لماذا؟

ـ لأنه اسم مدينة. ولأن هذا سيكون كأن أُطلق على نفسي اسم **هونغ كونغ**.

ـ لا فرق عندي ـ حدّد سيلفرمان الكبير ـ فأنا أرى أن الاسم لا علاقة له بالشخص. وإذا ما أطلق خيريا على نفسه اسم **هونغ كونغ**، فإنه سيبقى بديناً على أي حال، وسمجاً ومملاً.

أخرجت كارمن لويسا إسبينوسا اللبان من فمها، عجنته بلعابها الحارق، ما بين إبهامها وسبابتها، وصاغت صوتاً لشيء يرتجف في حنجرتها:

ـ حاذروا من هذه اللعبة يا صغار. فأنا بيتي سمبسون أكثر مما أنا كارمن لويسا إسبينوسا. فبيتي سمبسون تحدث لها أمور كثيرة جداً. لديها حلي ماسية من مستوى ريتز، ومعاطف من فرو النمس المسكي، وتسبح في مسبح ذي كشافات ضوئية متعددة الألوان، ويأخذها خطيبها للتنزه في ماليبو بيتش في سيارة مكشوفة حمراء، وتنال سبع درجات في الغناء وفي الفيزياء، والجميع يحترمونها لطيبة قلبها. أما

كارمن لويسا إسبينوسا بالمقابل، فالشيء الوحيد الذي تفعله هو الذهاب كل يوم من أيام السنة إلى ضجر المدرسة، بهذه الكنزة الزرقاء المقرفة!

جعلت من اللبان كرة، برّدتها بماء الخرطوم، وأدخلتها في فمها، وحين مضغطتها هزت كتفيها بالتزامن وقالت:

- إذا كنتَ تريد أن يكون اسمك نيويورك، فإن ذلك لن يزعجني.

تطلعوا جميعهم بأسف وارتياب. ففي سن الثانية عشرة لا يوجد ما هو أكثر جدية، بصورة رهيبة، من اللعب.

قضم سيلفرمان الصغير قطعة من أحد أظفاره، وحين بصقها قال:

ــ نصف أفلامنا تجري في نيويورك. وتصور أنت أن يكون نيويورك في نيويورك. إنه شيء غريب.

فسارع سيلفرمان الكبير إلى القول:

- وإذا كان فيلم غنغستر، فالوضع أسوأ. «أين نيويورك؟» «إنه في شيكاغو». غير منطقي!

نظرتُ إليهما بازدراء، بينما أنا أفكر بسرقة بطاقة هوية فارغة من مكتب السجل المدني، والتقاط صورة شخصية في الساحة، وصنع بطاقة هوية باسمي الجديد. كنتُ أتفهم موقف بابلو بيدرو بالاثيوس بطريقة كاملة وساطعة، بدا لي معها غريباً ألا نكون الشخص نفسه. لم يكن حباً. لقد كان تفهماً، ببساطة وبالكامل. كان ذلك كما لو أن «جدو»، من قبره، يريد أن يقول لي: «إذا لم يكن لكِ جدّ فاصنعي من نفسك جدك، وإذا احتجتِ إلى أبٍ، فكوني أنتِ نفسك أباك. فالجذور يا حبيبتي ليست وراءك، وإنما هي أمامك».

ـ أُفضل استبدال أصدقائي على استبدال اسمي ـ قال ب.ب.ب. بإباء.

- وأنا أيضاً ـ صرختُ مصعرة وجهي.

- أنتِ لا تعطي نفسكِ أهمية، لأننا غضضنا النظر عن الاسم الذي

اخترته لنفسك.

- ليس اسم آليا إيمار كوبيتا!

- وإنما اسم نيويورك هو الذي يزعجنا - وضرب سيلفرمان الصغير التراب بقدمه - إنه اسم شديد... شديد **السنوب**!

في ذلك الحين، كانت كلمة سنوب شائعة جداً، لأنه كان هناك صنف مثلجات بالشوكولاته والجوز، على شكل سترة سموكينغ وربطة عنق يساوي، في السعر والنكهة، ضعف المثلجات الملونة التي نمتص منها حوالي ثلاثة كل يوم.

ذهبت الشلّة للتداول بالقرب من البركة، حيث كانت الأسماك قد أبيدت على يد المتسولين، ولم يعد هناك الآن سوى نقيق الضفادع وتقافزها. استلقيت أنا وبيدرو بابلو بالاثيوس على العشب، بانتظار صدور الحكم. وضعنا قشة من العشب بين أسناننا، ورفعت أنا تنورتي لأسمح للنسيم بتبريد فخذي. وضع هو نظارة قاتمة بديعة. مدّ لي يده وشددت عليها. وبعد بضع دقائق رأيناها «**هي**» تقترب.

- إنني قادمة لأتحدث باسم الشلّة.

- أأنت آتية باعتبارك كارمن لويسا إسبينوسا أم بيتي سمبسون؟

فردت بوقار:

- باعتباري بيتي سمبسون.

- ماذا قررتم؟

مرت بإبهامها، جيئة وذهاباً، على شفتها السفلى، ثم شدّتها إلى الخارج، وأفلتتها فجأة، محدثة «**بلوب**» مقلقة. ما كنتُ مستعدة لأن أشاطر كارمن لويسا سندوتشة من المرتديلا في الفسحة الأولى صباحاً، عندما يضطر الجوع إحدانا إلى قضم أقلام الرصاص، ولكنني كنت مستعدة بالمقابل إلى سرقة مصارف مع بيتي سمبسون، وركل أمريكيين في لاس فيغاس، والذهاب إلى الفضاء الخارجي مخطوفة في طبق طائر، وغرس خنجر في بنكرياس كيرك

دوغلاس...

- بالنسبة لكِ أنتِ أولاً - بدّلت الساق التي تستند إليها - لك كل الحرية في أن تطلقي على نفسك اسم كابيتا أو كوبيتا، لأن كنية كوبيتا ليست إلا مجهولة بامتياز.

- حتى الآن فقط - عضضتُ على الكلمات.

- المهم هو أن تواصلي اختلاق السيناريوهات لنا.

هذا الجزء الإبداعي الذي كان يوكل إليّ في التسلية بتمثيل الأفلام، لم يكن أكثر من تمرين للذاكرة الجيدة. فمن دوني، كان يمكن للعصبة أن تبني مشاهد إطلاق رصاص، وإطلاق طوربيدات، وصراع سكاكين، وولولات، وطبول وكمانات، ولكن دون تلك الحوارات التي كنتُ أحفظها وأنقحها في لحظة التمثيل، سيتحول الصبية المساكين إلى مجرد جوقة موسيقى تصويرية مبتذلة. ففي الأسبوع الماضي، على سبيل المثال، كنا قد التهمنا فيلم غانفستر، تقول فيه البطلة للقاتل المأجور المسلح بالمسدس، على الطريق العام: «عندما لا يكون المرء متوجهاً إلى مكان معين، فإن كل الدروب تؤدي إلى ذلك المكان».

وقد أصابتني تلك الجملة بجنون وإثارة أشد من المجزرة النهائية. وقد قلتُها لسيلفرمان الكبير الذي كان يؤدي دور روبيرت ميتشوم، وظللت غير عابئة بأصوات الرصاص، وزوابع الغبار التي تثار برؤوس الأقدام، من أجل زيادة المؤثرات. وحتى سيلفرمان نفسه، نفخ على أصابعه التي تحمل المسدس المتخيل، وأوقف التمثيل في لحظة انتشاء، وخبأ المسدس الوهمي في قرابه، وقال: «*Beautiful*».

كانت رسالة بيتي سمبسون واضحة تماماً: فالشلّة تعترف بأن الكلمات لا تقل أهمية عن صوت الرصاص، وبأنني أنا، كوبيتا أو كوباتا، من تقرؤها وتتذكرها وتبتدعها.

ثم توجهت إلى بالاثيوس:

- قضيتك صعبة جداً. ولكننا كي نُظهر لك حسن نوايانا، جئناك باقتراح اسم جديد.

رفع ب.ب.ب. حاجبيه. ثم قال:

- ما هو؟

- يمكنك إذا شئت أن تسمي نفسك **يورك نيو**.

قدرت هي برمشتين طويلتين وقع ما قالته، وتركت فترة صمت مهيب تمر. ثم أضافت عندئذ بإيقاعية جذابة:

- مستر يورك نيو.

نهض بالاثيوس وهو يطوح بقشة الحشيش على المرج، ودعك فكه وكأنه يحك لحية قرصان شوكية، وأعلن:

- منذ اليوم سيكون اسمي يورك نيو. ومن سيدعوني باسمي السابق، سأحطم وجهه. أخبروا أبويّ بذلك.

XVIII

بعد عودة الأخوين سيلفرمان قمنا بتمثيل نسختنا من **كينغ كونغ**، فأدت آليا إيمار كوبيتا دور القرد وبيتي سمبسون دور فاي راي. وتمت القبلة النهائية، وفق اتفاق مسبق، بين يورك نيو وبيتي سمبسون. وفي حوالي الساعة السابعة، عندما أخذنا بالتفرق، أوقفني النيويوركي الذي عُمِّد باسمه الجديد للتو، من ذراعي، وطلب مني أن أرافقه إلى بيته لتناول شوكولاته بالحليب وأكل البسكويت.

قمنا بجولة طويلة، كنا نخطط خلالها لرحلتنا الوشيكة إلى الولايات المتحدة؛ فوصلنا إلى البيت في موعد تقديم العشاء. وضع أبوا صديقي طبقاً إضافياً على المائدة، واقتصرنا جميعنا على استخدام الملاعق باسترخاء. وكان أبوا «يورك» يتبادلان النظرات المواربة بين حين

وآخر، ثم يعودان إلى الحساء متنهدين. أما أنا فأضفتُ إلى الشعيرية طبقة سميكة من الجبن، وباستثناء هذه الشراهة، تصرفتُ كآنسة من أسرة طيبة.

كان دون لورينثو هو أول من انتهى من تناول الحساء، وعندئذ، وبما يشبه المصادفة، تظاهر بأنه وجد ورقة في جيب قميصه، فأخرجها، وقرأها وهو مقطب الجبين، وبقي ينظر إليها لوقت أطول مما يتطلبه اقتضاب الرسالة.

ثم قدم بعد ذلك النص إلى زوجته، وبينما هي تقرأ، انقضت بحركات مهذبة على السلطة. وفي أثناء ذلك، كان تنميل دافئ يصعد عبر ربلتي ساقيّ، ويضخ مثل مِكبَس. كان يورك نيو شاحباً ببياض كامل، يكاد معه أن يكون شفافاً من الجزع. توقف عن الأكل، وصار يكتفي بملامسة خضروات السلطة المغروسة في الشوكة بشفتيه. تنحنح الأب كمن يهم بالكلام، ولكن شيئاً حدث جعله يبدل رأيه، وراح بدلاً من ذلك يملأ بالماء كأسه وكأس زوجته. عندما ذهبت هي إلى المطبخ لتأتي بقدر العدس، مسح الأب شفتيه بالحافة العلوية للفوطة وقال:

- كيف كان الفيلم يا **يورك نيو**؟

التقطتُ قطعة خبز محلى من طبق الخبز، وقسمتها إلى نصفين، قضمت أحدهما بحماسة، نفخت رئتي باستنشاق كل هواء غرفة الطعام، ووضعتُ إحدى قدمي على حذاء يورك نيو لأحول دون خروجه محلقاً، وسمعته يقول بصوت أكثر وضوحاً من المعهود:

- إنه فيلم رائع يا بابي!

ذهبتُ يوم الاثنين إلى المدرسة بربطة عنق الحداد وساعة الجد. وقد خففت عقاربها المسلية من رتابة درس التاريخ. وأخذت معي كذلك سندوتشاً مختلطاً من شرائح الأفوكاتو والجامبون، وقصاصة من جريدة **الميركوريو**، فيها صورة فاي راي تغمز للكاميرا. وفي أثناء

الفسحة، علّقتُ بمشبكٍ رسالة مغفلة المرسل في صفحة أستاذ اللغة القشتالية، وهو اشتراكي مع فتائل تبغ على شاربه، كان يعلن، حتى في منتصف قراءة نص لغونثالو دي بيرثيو، أن الثورة الاشتراكية آتية إلى تشيلي وأن البرجوازيين الصغار سيُعلقون على أعمدة النور. والبرجوازيون الصغار الذين يعنيهم هم نحن بالطبع.

كان نصي مقتضباً: «التلميذة مجدلينا تستبدل منذ اليوم اسمها رسمياً. الرجاء مناداتها باسم آليا إيمار كوبيتا». أخبرتُ أصدقائي المقربين بمضمون الرسالة، وعند إجراء التفقد، تبادلنا النظرات بتوتر. كان سيلفرمان الكبير ينظر إليّ بسخرية، من جانب القاعة الآخر. ولمجرد تكهني بالسعادة التي سيشعر بها إذا ما فشلتُ، ملأت قلبي بالتصميم، بحيث لا يتمكن أحد من ليٍّ قدري، ولا يتاح لأي شخص أن يتجاهل هويتي.

انتقل الأستاذ من حرف الألف إلى الباء، ومن هناك انتقل إلى التاء دون أن يقرأ اسمي، وعندما وصل إلى الفاء نطق بلامبالاة **مجدلينا**، ولأنني أحسست بثقل تلك العيون المستهزئة التي تسربلني بالعار، لم أقل «حاضر»، وامتنعت عن الرد.

تناول المعلم قلمه الأحمر، دون أن يرفع نظره، وكتب إلى جوار اسمي «متغيبة».

تصورت الآن فم سيلفرمان الكبير الممتلئ باللعاب، يتلمظ لهزيمتي، والسخرية البليدة التي تطل من عينيه حسيرتي البصر، وبعد ذلك لسانه الصاخب وهو ينشر في الباحة، مع حلول الغروب، خبر مذلتي. أبقيت نظري مصوباً إلى جزء من السماء أبيض بلون الكوبالت، تحدده الأغصان الزمردية لنخلة الباحة الهرمة.

كان يورك نيو بانتظاري لدى الخروج ومعه سندوتش جامبون وجبن، قسمه إلى نصفين. رحنا نمضغ الخبز دون حماس لمسافة كوادرتين على الأقل. وفجأة قال لي:

- أخبروني بأن الأمر لم يسر معك على ما يرام.

- كان سيئاً جداً. والأسوأ هو أنهم وضعوا بجانب اسمي «غائبة» وأرسلوا في طلب ولي أمري. وقد كلفني الأمر كذلك تسجيل ملاحظة موجهة إلي في سجل الدروس، لأنني كتبت رسالة إلى الأستاذ في وثيقة عامة.

- أكان سيبولبيدا؟

- أجل، إنه الأستاذ سيبولبيدا.

- لقد شخ عليّ أنا أيضاً. تكلمت معه شخصياً لكي يبدل اسمي. فسألني لماذا. وعندما أخبرته راح يمسح يديه بسترته، وكأنني أثير قرفه. وقال لي إنني «أصفر» و«برجوازي قذر» و «مُستلب».

- أولم يقل إنك سنوب؟

- بلى. قال لي إنني إخطبوط سنوب.

- هذا يعني إنه خوزقك...

- وعندما أجرى التفقد، توقف عند اسمي، وقال وهو يعض على أسنانه: «بيدرو بابلو بالاثيوس».

- وهل قلت «حاضر»؟

- وماذا يمكنني أن أفعل؟ إذا ما أرسلوا لإحضار أبوي مرة أخرى، فسوف يطردني المدير... هل اشتريت مجلة **إيكران**؟

- إنها في حقيبتي.

- فلنذهب لقراءتها في بيتي.

ما إن دخلنا غرفة نوم يورك نيو حتى أصابتني الدهشة. فأبوا صديقي كانا أكثر دهاء من الأستاذ سيبولبيدا. فقد صمما على حرف اهتمامات ابنهما، بتحويلها إلى حوافز تربوية. أحضرا من مكتبة لوبي دي بيغا مجلدين ضخمين، أحدهما ***تأسيس منهاتن*** والآخر ***هارلم والجاز***، مع صور للنوادي الليلة والكثير من اللقطات للويس أرمسترونغ. إضافة إلى ملصق كبير للامباير ستيت بيلدينغ، دون قرد، حيث

يلامس المبنى القمر.

فتح يورك نيو ذراعيه محيطاً بهما العالم وما حوله، ثم أشار إلي كي افتح الحقيبة، وأُخرج منها المجلة.

ـ هل تلاحظين الفرق الهائل بين التربية الأسرية والتربية في المدرسة؟

ـ بكل تأكيد. ولهذا السبب سيسقط الرئيس إيبانيث.

ـ والأستاذ سيبولبيدا هو عجوز خرائي.

ـ موافقة.

ـ ومن هي فتاة الغلاف؟

ـ إنها بيتي غريبل.

وبينما هو يتصفح المجلة، ركزت نظري على الملصق وضممت يديّ إلى بعضهما في صلاة. همست لنفسي بمهمة. أغمضت عيني وتركت الأوامر تترسخ في ذهني: ستكون نيويورك هي بوصلتي، مستقبلي، تتويجي.

XIX

حدثان تكاملا لزيادة محني وتأجيج غضبي. فقد ذهبت جوفانا إلى الموعد الذي حدده لها الأستاذ سيبولبيدا، من أجل مناقشة تصرفات ابنتها غير السوية، وجائحة تبديل الأسماء بألقاب بطولية أو جغرافية التي اجتاحت المدرسة. عندما أوضحت له جوفانا، أن طفلتها كانت تحت صدمة موت جدها، وأنها تريد تكريمه فقط بالإبقاء على كنية المتوفى المحبوب متداولة، أحس المعلم الجلف باحتشاء عاطفي، وراح يبكي أمامها مغموماً مثل أرملة.

وبعد أن شرب نصف إبريق ماء، وقُدمت له سجائر، هدأ الأستاذ،

وقال لأمي وهو يضع يديه على ركبتيها، وينظر إليها بعمق، إن كل ذلك كان سوء تفاهم؛ وإنه لم يفكر قط في إيذائي، وإنه غضب إلى ذلك الحين، لأن ابنتها تستغل كنية **كوبيتا** بوقاحة، وهو كما تعلمين يا سيدتي اسم مشهور، في موسوعة للشهداء السياسيين في أوروبا.

فكوبيتا العجوز، دون المضي أبعد من ذلك يا سيدتي، قُطع رأسه، في كمين نصبه له الامبرياليون النمساويون ـ الهنغاريون في السفينة **كارونتس**، وكان مصيره مشابهاً جداً لمصير الأيرلندي مايكل كولينز، وهو ما يعلمنا نحن، نحن الاشتراكيين ـ أضاف وهو يشعل سيجارة من نوع «عنبر خصوصي» - أنه يجب عدم التفاوض مطلقاً في أرض العدو. فأي موعد هو كمين. وإلا اسألي ساندينو... هل تهمك السياسة يا سيدة جوفانا؟

ومن أجل ضياعي، ردت ولية أمري بالقول: «كثيراً». وصارت منذ ذلك الحين تنمي نظرة صارمة كلما حدثوها عن غابرييل غونثالث فيديلا وملاحقته للشيوعيين، وعن هرب الشاعر الكبير بابلو نيرودا على صهوة حصان عبر سلسلة جبال الأنديز، وكذلك الجنرال إيبانيث وحركته المدعوة «المكنسة» التي أقسم أن يكنس بها كل الفساد من الوطن. لم أسمع منها في تلك الأيام، كلمة واحدة مؤيدة لرمي الحجارة التي يكسر بها المتظاهرون زجاج الحافلات، احتجاجاً على رفع التعرفة، ولكنها في نهاية أحد الأسابيع، عندما لم يدفعوا لها أجرها كعاملة خياطة في إحدى دكاكين شارع ماتيه، انضمت إلى المتظاهرين، وأحدث لها شرطي جرحاً في رأسها بهراوته.

عند ذلك الحد توقفت ممارسة أمي السياسية العملية، أما النظرية فلم تتوقف كما سنرى فيما بعد.

أسفر الاجتماع مع المعلم عن أنه يمكنني استخدام كنية كوبيتا، حتى الإشباع، طيلة فترة الحداد، إذا ما أثبتُ (حسب قول سيبولبيدا حرفياً) جدارتي به: هذا يعني ألا أنال أقل من سبع درجات

في التاريخ، وعدم انخفاض هذه الدرجة لأي سبب في الرياضيات واللغة القشتالية. أما اللغة الإنكليزية فليس هناك ما يدعوني إلى القلق، قال ذلك لجوفانا بقرف، وأضاف إنه يأمل بألا أحصل في أي حال من الأحوال على أقل من أربع درجات في السلوك.

لم يكن الأستاذ سيبولبيدا يريد في الصف تلاميذ من المتزلفين للنظام. كان يعرف كيف يجأر بكلمتي «وعي» و«هوية» بصوت هادر. أما كلمتا «عدالة» و«مساواة» فتجعلانه أحول من الاستثارة. ومع ذكر اسم لينين، يتأجج مثل فجر اشتراكي. وكان يؤدلجنا: «كون المرء طليعياً لا يعني أنه يجري إلى الأمام، وإنما امتلاكه موهبة جعل الآخرين يركضون إلى الأمام».

تم تمجيد وثائقي المدرسية بكنية كوبيتا، وكان على ولية أمري أن تعترف والدموع على وجنتيها، بأنها تلقت صدمة فيتامينية. فللمرة الأولى في تشيلي، مع وجود حرب عالمية وراء الظهر، حيث ينتزع الناس أحشاء بعضهم بعضاً لأمور غير مفهومة، هناك شخص، «فارس حقيقي»، عرف كيف يُشعرها بأنها أحدٌ في الدنيا، وأن كوبيتا العجوز قد منحنا عظمة مفاجئة، ثروة مهمة مثل من حصل على الجائزة الكبرى في اليانصيب.

ولكن عندما ظهر المعلم دانييل سيبولبيدا، بعد أسبوع من ذلك، في البيت وهو يدخن سجائر «عنبري خصوصي»، ومسلحاً ببطاقتين لحضور فيلم «**المدرعة بوتمكين**»، قررت أنه عليّ أن أسرّع الإجراءات وأهرب إلى نيويورك.

كنت قد شاهدت مع يورك نيو، في مرتين على الأقل، أفلاماً عن متسللين في سفينة، يسافرون دون دفع الأجر، وكذلك فيلماً مرعباً، حيث يختبئ مهرّب بنمي بائس في عنبر السفينة، بمساعدة ضابط صف، في رحلة بحرية تطول شهوراً، حتى مرسيليا، بين جرذان ومعدات. البحار الذي كان حاميه يصاب بأزمة قلبية، ويموت، فيلقون

به إلى البحر وهم يطلقون رشقات من الرصاص، وخلال أسابيع الإبحار لم يعرف أحد شيئاً عن البنمي الذي نراه يحتضر، دون أن يجد نسمة هواء، أو كسرة خبز أو قطرة ماء.

الصورة الأخيرة في الفيلم هي لقطة رعب كلاسيكية. فالمصباح اليدوي لبحار يشبه جيرار فيليب، يسلط ضوءه نحو عمق عنبر السفينة، فيكشف الهيكل العظمي للبنمي منثوراً على الأرض، كل عظامه معروقة من الجلد واللحم والعروق. كان كما لو أنه قد أُعدّ لحمله وتعليقه، مثلما هو، في كلية الطب من أجل درس في التشريح. يضاف إلى هذه التجربة، ولنقل غير الشخصية، هروبي الشخصي جداً المحبط، في طفولتي، في عابرة المحيطات الإيطالية.

ـ العائق ـ قال يورك نيو بتروٍ ـ هو أن السفن تنطلق من بالبارايسو. يتوجب علينا أن نصل إلى هناك أولاً.

فأطبق غضبٌ مندفع على حنجرتي:

ـ اسمعِ يا مستر يورك نيو. تريد الذهاب إلى نيويورك، وتتبول في ثيابك خوفاً من رحلة تافهة إلى الميناء.

ـ ليس الأمر هكذا. ولكن أبي وأمي سيقلقان. وأمي مريضة في هذه الأيام.

لم أستطع أن أصدق ذلك. فخلال فترة ثلاثة أسابيع، تحول رفيق أحلامي إلى مدلل بابا وماما. نظرت إليه بتكبر ذئبة:

ـ هنا ينفصل طريقانا يا بيدرو بابلو بالاثيوس.

ـ لا تأخذي الأمر على هذا النحو. فلننتظر إلى أن تنتهي المدرسة. ولنحاول ذلك خلال الإجازة.

ـ سأذهب وحدي.

ـ ولماذا العجلة؟

ـ أريد الذهاب إلى قلب الإمبريالية المتعفن، قبل أن يتمكن الأستاذ سيبولبيدا من أدلجة جوفانا.

في تلك الليلة بقيت بعيدة عن الجماعة، بينما كانت ولية أمري

تشاهد مهرجان بحارة روس، يطلقون النار على الشعب في ميناء أوديسا. لقد كان بالاثيوس على شيء من الصواب. فلا بد من امتلاك بعض النقود. وبها يمكن الحصول على شيء يؤكل، ومكان للنوم عند الوصول إلى منهاتن. قبل تحقيق النجاح بالطبع.

فلنر، فلنر، قلت لنفسي، ما الذي يعنيه النجاح بالنسبة لي؟

أولاً مغادرة سنتياغو. فالجد استُنفد، متحولاً إلى كتلة من العذوبة، ولم يخلّف أدنى أثر في التاريخ، لأنه لم يقفز إلى الماء. أما أخوه راي كوبيتا بالمقابل، فقد أبدع غوريلا مرعباً، ولا شك أنه يملك مليون دولار في المصرف... كرر القلب طفرته. راي كوبيتا لا يمكن أن يكون إلا رينو كوبيتا. المساعد الثاني في الخدع السينمائية الخاصة. راي كوبيتا هو دون أدنى شك عمي، شقيق جدي، بشخصه.

وفكرت: هذا يعني أنه يكفي أن أصل إلى هوليود باسمي المزيف، وأن أفعل بعد عشر سنوات، ما كان قد فعله عازف الترومبون مع استيبان قبل عشر سنوات: أطرق بابه وأقول «ها هي حفيدتك قد وصلت». وترجمت ما قلته بصوت عالٍ:

Knock at the door and say: here is your niece.

XX

بالرغم من أن عرض **المدرعة بوتمكين**، كان في الساعة الثامنة، إلا أن جوفانا لم تكن، عند انتصاف الليل، قد رجعت إلى البيت، لترعى ربيبتها. كانت حجرة الجد بالنسبة إلي، أشبه بمعطف فضفاض جداً. وكانت هواجسي تحفز الأرق. إذا ما أردتُ الوصول إلى الولايات المتحدة، فلا يكفي أن أردد كلمات أغنيات، ونصوص أفلام، وأن أنال سبع درجات في درس *The principal parts of the human body are the*

trunk, the head and the limbs[1]. بل لا بد لذلك من استراتيجية أكثر ملاءمة. ففضلاً عن أنني قد أشتبك في تبادل رصاص مع جنود الرينجر، على حدود نيو مكسيكو، فإنني لن أتمكن من أن أطأ أرض تكساس، وأنا قاصر وبلا جواز سفر صالح.

كل شيء يشير إلى أنني، بعد فترة من الزمن، سأعود لأكون مجدلينا. وعندما تسمح لي سني ـ ثمانية عشر عاماً، كما قال المحامي يانوس مانثييّا ـ يمكنني الحصول على عقد عمل، مع عمي شقيق جدي راي كوبيتا. The sooner the better: درس حول المقارنات في كتاب let's talk English. وعلى طاولة الجد بالذات، وبريشته الثخينة المغموسة بحبر الدواة الزجاجية، كتبت على بطاقة بريدية لمنظر رابية سان كريستوبال ودراجين يقودون دراجاتهم نحو «لابيرخين» العنوان المحتمل لعمي شقيق جدي.

مستر راي كوبيتا
استوديوهات هوليود
كاليفورنيا
الولايات المتحدة

وبما أنني لا أملك الآن نسخة من تلك الوثيقة، فإنني لا أستطيع أن أتأكد إذا ما كانت إنكليزيتي سليمة، ولكنني أتذكر جيداً تفخيمي وتسرعي.

كتبت:

الجد العزيز: ستفاجأ حين تتلقى هذه البطاقة البريدية من تشيلي. أنا حفيدة أخيك، واسمي آليا إيمار كوبيتا، حفيدة آليا إيمار وأخيك تيبي. لقد مات، فليضمه الرب إلى ملكوته. تعازيّ الحارة.

أنا أريد الذهاب إلى الولايات المتحدة، the sooner the better.

ويبدا لي هنا، أنه من المشجع أن أورد بعض المقاطع من «عين

---

[1] الأجزاء الرئيسية في الجسم البشري هي الجذع، والراس، والأطراف.

النسر»، وهو برنامج إذاعي ضد الحمر، يُبث قبيل الغداء، برعاية قسم الإعلام في السفارة الأمريكية، ويبدأ بجملة تعزيم سحرية تقول: «في أعالي جبل شاهق، كان هناك رجل علم يحرس. إلى جميع أولئك الذين يريدون فرض هيمنتهم على العالم الحر، فليتذكروا أنه ليس هناك ما يغيب عن عين النسر».

السبب في تسرعي في الكتابة إليك هو أن ولية أمري قد وقعت في مخالب رجل أحمر يحاول الهيمنة على العالم الحر.

إنه يطلق الشتائم ضد بيري كومو، وضد نات كينغ كول، ويكره «ذي فور لادس» ويقول إن توني بينيت مخنث. وهذا الشخص الأحمر سيقتلني عاجلاً أو آجلاً، لأني معجبة بأفلام جين كيلي وفرانك أوكونور، وجيمس دين، وأنتوني بيركينز.

ويقول إن كلارك دوغلاس ينتمي إلى كوكلاكس كلان.

أريد الذهاب للعيش معك، ولأكون ممثلة في هوليود. إنني أتكلم الإنكليزية، ولكنني لست جذابة المظهر. تنقصني أشياء في الصدر وأكثر منها في المؤخرة. يقولون إن لي ابتسامة معدية. ولكنني قلما أستخدمها، لأني تعسة. إنني بحاجة لأن ترسل في طلبي. عما قريب سأكمل أربعة عشر عاماً، ولكن إحدانا لا تبلغ سن الرشد هنا، إلا في الثامنة عشرة من عمرها. وحتى ذلك الحين، سيكون قد تكوّن لي صدر ومؤخرة.

باسم أخيك تيبي الذي كان يحبك حتى العبادة، أرجوك أن تساعدني في لحظة الكرب هذه.

مع محبتي وتقديري الكبيرين.

آليا إيمار كوبيتا،

شارع كومبانيا 2020، سنتياغو دي تشيلي.

ملاحظة: لقد رأيت فيلم كينغ كونغ. واو!

خبأتُ الرسالة تحت الحقيبة، بعد أن مررت عليها بورق النَّشَّاف، وثبَّتُ نظري على الساعة، عندما دقت معلنة الواحدة ليلاً.

جوفانا لم تأتِ، وكبرياء يتيمة مبكر جعلني أنساها. فتحتُ صندوق الجد.

كان مملوءاً بأشياء ثبّت على كل منها بطاقة مربوطة بخيط، يذكر فيها السعر التقريبي. وبين تلك الأشياء، كان هناك مصباح زيتي، ومنفاخ دراجة، وطقم ملاعق فضية، وفنجانا خزف تشيكوسلوفاكي مع صحنيهما، وميزان معادن ثمينة، وقميصان جديدان بياقة عالية ملفوفان بورق حرير، ومذياع من نوع فيلكو له عين إلكترونية خضراء، وبوليصة تأمين على الحياة منتهية الصلاحية، لعدم تسديد أقساطها، وصورة جماعية يظهر هو في منتصفها إلى جانب لاعب كرة القدم ميسايل إسكوتي، وعلبة برونزية مقفلة بقفل صغير، وبطاقة تعريف كُتب عليها «أوتو» وعدة دفاتر مكتوبة باللغة الماليسية: تضم في معظمها قصائد، داعبتها أصابع لم تكن نظيفة على الدوام.

وفضلاً عن ذلك، كانت هناك مظلات لم تُستخدم، ومدية من الذهب عليها سعر مغرٍ: خمسة وعشرون ألف بيزو. ربما تم اقتناء الميزان من أجل وزن هذه المدية فقط. كان لها نصل مرهف، وفي تلك اللحظة، فكرتُ في أن قطع أوردتي بسكين من الذهب ـ إذا ما تجاهل العم راي رسالتي ـ سيكون مشهداً رومنسياً وفيلماً بديعاً. ومع ذلك، فإن أكثر ما هو حميمي بين تلك الغنيمة، هو مغلف أزرق، كبير الحجم، كأنه علبة شموع، يضم وثائق ملكية دراجته النارية ماركة إنديانا.

توصلتُ إلى أن هذه الثروات الممسوحة بعناية، والنظيفة من الغبار، تساوي وزنها في دكان للعاديات. أخرجت أثمنها قيمة، ولففتها بورق جرائد، ثم بورق مقوى بعد ذلك، ووضعتها تحت لوح خشبي متحرك

في الأرضية، كنت قد رأيت الجد يرفعه في أحد الأيام.

عندما فعلت ذلك، رأيت مغلفاً من جلد، أصغر بكثير. وضعت الغنيمة الجديدة، وانتزعت القديمة. كانت الساعة الثانية فجراً، ولم تكن جوفانا قد رجعت بعد. وضعت وثائق ملكية الدراجة النارية تحت وسادتي، وفتحت المغلف بحذر حتى لا يتمزق بأظفاري.

لم يكن فيه شيء ثمين: لا شيك، ولا نقود. ولا مجوهرات كذلك. وإنما أوراق فقط. وهي للعلم، مقال من جريدة ماليسية، يؤشر فيه بخطوط صغيرة تحت كنية كوبيتا أحياناً، ورسالة مكتوبة بالإسبانية إلى سفير سواحل ماليسيا في تشيلي، مؤرخة في فيينا، وترفق بها ورقتان مكتوبتان بخط اليد، وعليهما توقيع سيدة تدعى غابرييلا ميسترال. وكان الجد قد كتب في أعلاها بالإسبانية، ودون أخطاء إملائية، كلمة «خاص». كنتُ في أثناء ذلك أُقنع نفسي بفكرة أنه إذا ما كان للخصوصية من صلاحية بعد الموت، فإن هذه الورقة مستثناة.

الورقة الأخيرة تتضمن قصيدة عنوانها يقول بالماليسية: *Cetri Suon*. وإلى جانبها كان تيبي قد كتب الترجمة **«أربعة نواقيس»** وإهداء ذاتياً مع إشارة تعجب **«تفكيرا»**.

XXI

الأمر المستعجل الآن هو الدراجة النارية. يمكن لجوفانا أن تستبقي لنفسها سيبولبيدا، أما أنا فسآخذ الإنديانا.

إذا ما عارضت جوفانا حصولي على الدراجة، فسوف أعترض أنا على حصولها على سيبولبيدا.

الأمر المهم الثاني، في نهاية الأسبوع هذه، هو الحصول على نقود

من أجل يوم الأحد. فموجة أفلام الرعب تتوالى الآن بإنتاج نسخة جديدة من فيلم قديم عنوانه *M*، وهو بالتحديد عن قاتل أطفال. مثل سيبولبيدا.

فالحروف الحمراء التي تبعث على القشعريرة، تسيل من مظلة سينما القصر، متوعدة بالتسلل إلى فراش فتيات عزل، تتركهن ليلاً أمهات طائشات، ليذهبن إلى المواخير مع شيوعيين ذوي أسنان دامية، مثل أسنان دافيد واين.

في مجلة «**إيكران**» يعلنون عن الفيلم على أنه نسخة جديدة من فيلم فريتز لانغ، حققها جوزيف لوزي. كان يمكن للإعلان أن يحول لسان تيبي وأسنانه إلى فتات: فالشعار يدفع إلى الزمجرة من الرعب، والبكاء من الغضب: «قد يكون ابنك هو الضحية التالية».

وبما أن بيتي سمبسون قد بالت في سروالها، عند مشاهدة **كينغ كونغ**، فقد أوصانا موظف شباك التذاكر، عند عرض فيلم M، بأن نحضر معنا سروالاً داخلياً في حقائبنا. مقال مجلة **إيكران** الذي كتبه غابرييل ميخياس، يقول إنه عند عرض الفيلم في نيويورك، كان البول ينساب من دور السينما إلى الشارع 24 باتجاه نهر هدسون، وأن رجال إطفاء منهاتن، كانوا يعملون ليلاً بين أبوال الدعاية، ليزيلوا بخراطيم الماء هكتولترات من البول، للتخلص من رائحة الأمونياك.

موظف شباك التذاكر الذي كان يراقب، على الدوام، عروضنا في ساحة البرازيل، بعد مشاهدة الأفلام، عرض علينا أن يشتري سراويلنا الداخلية المبتلة، أو يستبدلها ببطاقات دخول إلى العرض المسائي ليوم الأربعاء، عندما يعرضون فيلماً عن فرانسيسكو الصغير، الكلب المتكلم، من بطولة دونالد أوكونور.

نمتُ منهارة من وصايا عشر من الرعب: احتمال أن يغضب تيبي من العبث بأوراقه. وأن تظهر لي الأشباح لتعيد الأشياء إلى نصابها. والخوف من يكون السفاح واين، قد استبق وصوله إلى الشاشة وراح يجوب

المدينة. والهلع من أن يدخل سيبولبيدا، بينما أنا نائمة، ويضع لي كلورفورم، ويرسلني في طائرة سوفيتية، لأزرع الأرض البروليتارية في معسكر اعتقال في الغولاغ، بموافقة جوفانا. والقشعريرة من أن يتسلل موظف شباك التذاكر من النافذة، متشمماً روائح ما بين ساقي، لينزع عني البيجاما ممزقاً مطاطها بأسنانه.

استيقظتُ صباح يوم السبت على رائحة قهوة وتبغ. كانت جوفانا بالروب البيتي في المطبخ، نظرها مثبت على الجدار، وكأنه شاشة سينما تعرض هي نفسها عليه الصور المحفوظة في ذهنها. ابتسمت حين رأتني، وأطلقت بقوة عمود دخان من سيجارتها من نوع «أوبرا»، ذات الورق المحلى.

ـ لقد نمتِ تاركة النور مضاء.

سكبتُ قهوة وحليباً في الفنجان، ثم وضعتُ بعد ذلك كمية وفيرة من الحلوى على الخبز المحمص، ورحت آكل، بينما هي تزم شفتيها، ممسكة بالجزء السفلي من فمها، كما لو أنها في مأزق.

ـ سأُخرج الدراجة النارية من المستودع ـ قلتُ وأنا أمضغ السندوتش.

ـ وماذا ستفعلين بها؟

ـ سأفعل شيئاً في البدء، ثم سأفعل بعد ذلك شيئاً آخر.

ـ ما معنى هذا؟

ـ سآخذها إلى الساحة، وسأمسحها أنا وأصدقائي حتى تصبح نظيفة تماماً.

ـ وبعد ذلك؟

ـ سننفخ عجلاتها. ثم سنأخذها إلى محطة بنزين. وهناك سأطلب أن يمرروا سلكاً مغلفاً باللباد والبرافين في الأنابيب لتنظيفها. وبعد ذلك سيعيرونني بطارية. وبعد ذلك سنضع فيها ليتراً من البنزين، وعندئذ سنعرف إذا ما كانت تشتغل.

ـ ثم ماذا؟

ـ سأذهب على الدراجة إلى بالبارايسو.

ـ من أجل ركوب دراجة نارية لا بد من بلوغ الثامنة عشرة، ومعرفة قيادتها.

ـ أناس كثيرون يقولون لي إنني أبدو أكبر مما أنا عليه.

ـ قد يصدقون أن عمرك أربعة عشر، أما ثمانية عشر...! لم يظهر لك شيء بعد.

ـ هناك قليل من الشعر.

ـ لن ترفعي تنورتك أمام رجال الشرطة.

أشعلت أمي سيجارة أخرى. منذ أن تعرفت على سيبولبيدا، صارت تحب تشكيل دوائر من الدخان. وصارت تحلم بجيرار فيليب، بالثورة الفرنسية، وبوضع مقصلة يوماً لقطع رؤوس الرأسماليين التشيليين الخنازير.

ـ هناك شخصان مهتمان بتعليمي قيادة الدراجة. سيأخذانني خارج سنتياغو، على دروب لا تمر منها إلا سيارات قليلة.

ـ ومن هما؟

ـ الشاب الذي يعمل في محطة البنزين، وقاطع التذاكر في السينما.

ـ سأكلمهما.

ـ إذا ما تدخلتِ في شؤوني سأترك البيت.

ـ إلى أين؟

ـ إلى نيويورك.

أطفأت بغضب السيجارة التي أشعلتها للتو، ساحقة إياها في المنفضة.

ـ هل أنتم آل كوبيتا مصابون بجنون وراثي! ظننت أن هذيان نيويورك سيختفي من الأسرة بعد موت الجد.

ـ أريد الذهاب لزيارة رينو كوبيتا. لقد حقق النجاح في هوليود وسيتولى رعايتي.

ـ أليتا...

ـ لا تناديني «أليتا»، لأني أشعر كما لو أنني صوص!

ـ آليا إيمار كوبيتا: الجد تيبي كانت به لوثة. فأخوه رينو مات غرقاً عندما ألقى بنفسه في الماء قبالة نيويورك.

ـ وكيف تعرفين ذلك؟

ـ لقد أكلته الأسماك، وامتصت الإخطبوطات حتى كبده بمجسات أذرعها.

ـ أهي «الإخطبوطات الإمبريالية» يا مامي؟

ـ سيبولبيدا رجل طيب. إنه يهتم بفقراء هذه البلاد. وهو صديق للدكتور الليندي.

ـ ومن هو هذا؟

ـ مثالي آخر مثل سيبولبيدا. في السنة القادمة ستكون هناك انتخابات. لمن سيصوت آباء أصدقائك؟

ـ لا أعرف لمن، ولكنهم سيصوتون بالتأكيد ضد هذا الذي تتكلمين عنه.

ـ يجب تنظيم أهل الحي. سيبولبيدا سيتكلم غداً بعد القداس في الساحة. سيقوم بمسيرة جوع!

اصطبغتُ بالحمرة من الغضب. إذا كنت لا أطيق الأستاذ في المدرسة، فإن رؤيته الآن وقد تسلل إلى بيتي، ويعظ في ساحة البرازيل، منصة عروضنا الضخمة، دفعني إلى تسريع خططي.

على الدراجة النارية إلى نيويورك!

XXII

بمساعدة سيلفرمان الكبير وكارمن لويسا إسبينوسا، أمضينا مساء السبت كله في فرك الإنديانا وتنظيفها إلى أن حولناها إلى جوهرة. اختفى الصدأ، واستعادت المرآة العاكسة بريقها. وعندما

أخذناها إلى الساحة، اجتمع فريق من الكبار للتفرج عليها. وعرض علينا السباك الذي عند الناصية، أن يستكمل جمالها. جاء بكومة من الصحف القديمة، ومسدس لبخ الطلاء. عرض علينا اللونين الأصفر والرصاصي. فبدا لي أن طلاء الدراجة باللون الصارخ، سيجعلها لاذعة؛ أما اللون الرمادي المعدني، فسوف يضفي عليها مذاق الدراجات التي تستخدمها شرطة نيويورك.

وبينما هو يعمل، جاء الرجل الذي يبيع البنزين بالعجلتين وقد نُفختا جيداً، فجلسنا عليهما لوقت طويل، ونحن نرى كيف كان طلاء الإنديانا ينمو أمام أعيننا، مثل جوهرة تشع بريقاً لا يُقاوم.

ظل الميكانيكي بولكانو بارغاس واقفاً بين الجمهور دون مبالاة، وكان قد ترك ابنه مارتين وحيداً، يلعب بصغار الضفادع في المستنقع، إلى أن حانت اللحظة التي يتوجب فيها على اللعبة أن تُثبت وجودها. ذهبتُ مع عصبتي والكبار، بمن فيهم بولكانو، إلى مزوِّد البنزين. فركِب لها البطارية وملأها بالوقود. وقام بوصل بعض كابلات، ونفخ في البوق، وبأمل لا يقل عن الأمل في مسلسلات السينما، ضغط ريتشارد بقدمه أول مرة على الدوّاسة.

استجابت الدابة بأنّة مخنوقة. وبعد لحظة انتظار، ضغط عليها الرجل بقدمه بقوة أطلقت قذيفة دخان، وزمجرت الدراجة النارية بوقاحة وكبرياء. وحتى فاغوست خيريا الذي كان يحاول إظهار ملامح متراخية، في موقف لامبالٍ، على طريقة روبيرت ميتشوم، سكب بعض الدموع.

لم يكن قد أتيح، من قبل، لجماعة صبية في مثل سننا لمس دراجة نارية، ناهيك عن أن تكون من طراز إنديانا، مثلما هي هذه الدراجة التي لم يعد لها مثيل في السوق. فقد تعفنت بقية زميلات جيلها، وأكلها الصدأ في الورش. وجاءت هذه لتسقط مثل ملاك من الماضي، أو مثل شخصية من شخصيات الخيال العلمي، بفضل التهاب

مفاصل الجد الذي كانت لديه العادة السعيدة بعدم التخلص من شيء من الأشياء القليلة التي يملكها.

كان تيبي قد تنزه عليها، طيلة شهور، مثل شبح، في انتوفاغاستا. وكان يتدبر أموره، في مدينة ثروتها الوحيدة المرئية هي الشمس، ليظل مصاباً على الدوام بالزكام والشحوب. احتضنه الماليسيون المزدهرون، فعمل جابي ترام، وموزع دلاء ثلج، لتبريد البيرة في متاجر مركز المدينة. وهكذا، بعد توزيع قوالب الثلج الملفوفة بأكياس، كان يمضي ليعمل مساعد شواء، في مطعم الكريسبو الذي يرتاده، أيام الآحاد ليلاً، الرابحون في رهانات سباق الخيل.

وعمل بعد ذلك مراسلاً لدى أول مقاول ماليسي، تعهد تركيب أعمدة خطوط التلغراف. ذلك الثري الذي كان يسكن عند ناصية بارزة، تقاطع شارع باتا مع برات، سمح لنفسه بعد غداء تخلله شراب كثير، بالتصادم مع سيارة أخرى من السيارات الثلاث التي يمتلكها، عندما أراد التوقف قبالة مسكنه. فاصطدمت السيارة بعد ذلك بالعمود الذي سقط بدوره فوق مظلة مدخل البيت وحطمها. عندما جاء الشرطي ليعنفه، ويقدم إليه ورقة المخالفة، دخل الثري العجوز إلى بيته وهو تمتم محتجاً: «ولماذا المخالفة؟ السيارتان لي، والبيت لي».

حيال صدور فرقعة الإنديانا المجيدة التي اشتراها تيبي بمدخرات مهنه المختلفة، رأيت بولكانو بارغاس يدنو مني، وهو يمسك ابنه الصغير مارتين بيده، ويرسم ابتسامة كشفت خلو فمه من بعض الأسنان.

- اطلبي ثمناً لها.

أطفأ بائع البنزين ريتشارد محرك الدراجة، ووضع في يدي مفتاح التشغيل، وظل ينظر إليّ باهتمام.

قدرتُ للحظة أنني قد وجدت طريقة للحصول على ثمن تذكرة السفر إلى نيويورك، وسلفة لبلوغ المجد.

ولكنها الأداة لاسترداد تيبي أمام الله والعالم.

فالجد لم يخلّف أي ميراث آخر باستثناء رسائل باللغة الماليسية، وصور باهتة، وحزن على آليا إيمار شذبته السنون، دون أن تقوضه.

لم يخلف لي الجد شيئاً باستثناء دراجة الإنديانا. خامرني الشك في أنه كان كسولاً، إلى حد عدم تكلف مشقة نشر إعلان اقتصادي، يوم الأحد، في جريدة الميركوريو، بالعنوان الشعبي الشائع «دراجة للبيع».

هذا يعني أن الدراجة el moto ـ مثلما كان يسميها الجد، وليس la moto، لأنه لم يكن قادراً على فهم منطق اللغة الإسبانية الذي يتيح استخدام أداة التعريف المؤنثة (la) لاسم ينتهي بحرف O – هي جزء من ميراث لا يتوجب علي أن أديره وحسب، وإنما أن أفسره أيضاً.

ـ الدراجة ليست معروضة للبيع – قلت بشراسة، وتلا ذلك تصفيق رفاقي الصبية وحماسهم.

مسَّد بولكانو حاجبيه الكثين الهنديين، وأظهر مرة أخرى ابتسامته الخفيفة.

ـ انظري يا جميلة، يمكنني أن أقدم عرضاً سخياً مقابلها.

ـ لا يهمني.

ـ وما الذي ستفعلينه بهذه الدبابة؟ أنت لا تعرفين حتى كيفية قيادتها.

كانت حركة رجولية تماماً. فقد رفعني ريتشارد من خصري، ووضعني على الكرسي الجلدي الأسود، ثم قال لبولكانو بازدراء، وهو يخفض ذقنه:

ـ هذا أمر سأتولاه أنا.

جلس أمامي على مقعد الدراجة، ثم التفت ليطلب مني أن أحتضنه بذراعي، وأن أثبّت ساقي جيداً على الهيكل، وألا أرفع قدمي لأي سبب عن الركابين المعدنيين. ثم جعلها تندفع بدوي أكبر مما هو

ضروري، ورافقت روحي تلك الطفرة التي انطلقت بها دراجتي من محطة البنزين باتجاه جادة البرازيل. فتمسكت، مرتجفة، بظهر السائق، ولمست أصابعي قلبه عندما احتضنته.

كان غروباً ربيعياً باهراً، وبعد اجتياز الطريق الذي تحف به أشجار الحور، قاد ريتشارد الدراجة نحو الجنوب، باحثاً عن أكبر الجادات ليجرب سرعة الماكينة. ذهبنا حتى جادة بلانكو إنكالادا بسرعة قابلة للمنافسة مع إيقاع حركة المرور. وعندما صرنا عند حافة نادي الفروسية، ضغط عامل محطة البنزين على ذراع السرعة، فتلقيت قوة الريح في وجهي ورأيت شعري يتبعثر في كل الاتجاهات، عندئذ أقسمت إنني إذا ما سُئلت يوماً عما أريده، فسأقول بعينين مخضلتين: «*هذا*».

بعد ذلك توغلنا في دروب ترابية داخل حديقة كوسينيو. واشترى ريتشارد زجاجتيّ عصير «بابايا» مثلجتين من عربة جوالة، وذهبنا لتناولهما تحت ظل شجرة عملاقة. أسند الدراجة إلى جذعها، ثم أسند كتفه، ممتصاً السائل بقصبة، وناظراً بتأمل نحو أفق الغروب.

وأنا أيضاً شفطت مرطبي، ووضعت الزجاجة المثلجة على خديّ المتوردين من الانفعال.

- شكراً يا ريتشارد - قلتُ له.

- لا تشكريني يا صبية. الشكر لكِ أنت لأنك لم توافقي على بيعها.

- هذا شبيه بالسعادة.

- انتظري إلى أن تجلسي في المقدمة، وتكوني أنت من تقودين.

- لعمل ذلك يجب أن أبلغ الثامنة عشرة.

- إنها حماقات يقولها المسنون. أما نحن فعلينا أن نمضي بسرعة كبيرة، وإلا فإن الموت سيلحق بنا. انظري إلى جدك. اشترى الدراجة عندما لم يعد بإمكانه استخدامها. كل شيء يجب عمله الآن.

ـ جوفانا ستقتلني.

ـ يجب ألا تعلم بذلك.

ـ كيف؟

ـ سنرتب الأمر، وأنا سأعلمك.

ـ متى؟

وضع يده على خدي، ونقلها من وجنة إلى أخرى. كان جسده كله يعبق برائحة البنزين. وخطر لي بأنه لو قرّب منه أحدهم عود ثقاب، فإنه سينفجر لهيباً. لقد كان يبدو أشد سمرة وهو في الظل، وقد بدا لي فمه أكثر اتساعاً، وكانت أسنانه تلمع بارزة بين شفتيه.

ـ هل قبّلكِ رجل من قبل؟

ـ في السينما.

ـ من؟

ـ صبيان الساحة.

ـ بشفتين مطبقتين؟

ـ طبعاً!

أحاط خصري بذراعه وجذبني نحو جسده. أسندت رأسي إلى جذع الشجرة، ورأيت بانتباه كيف وضع إصبعاً بين شفتي.

ـ افتحيهما.

انصعتُ، وأبقيت عيني مفتوحتين عندما أحسست أنه يضغط على أليتي، رافعاً إياي لأكون عند مستواه، بينما لسانه يتقدم فوق لساني، ثم يضمه في فمه. بقينا على تلك الحال هنيهة، إلى أن تراجع وهو يمسح بإصبعه اللعاب الذي يبلل جانبي فمي، ثم رفعه حتى جفوني ليطبقها بتلك الرطوبة. أحسست بعد ذلك بفمه على إحدى أذني.

ـ سأبدأ بتعليمك شيئاً فشيئاً. وخلال شهر ستتقنين قيادتها.

ـ هذا جيد يا ريتشارد.

ـ هناك أشياء كثيرة لذيذة يمكننا، أنا وأنت، أن نمارسها.

ولكنني سأنتظر إلى أن تكبري. هل أعجبتكِ القبلة؟

ـ همم - دمدمت خجلة.

ـ هل كانت لذيذة؟

لم أستطع الرد عليه. كان وجهي كله مصفوعاً بنار. ابتلعت لعابي، وكبحت نفسي حتى لا أبلل ما بين ساقي، وأنا أترصد كل نفس من أنفاسه بين صوان أذني ورقبتي. على الطريق الترابي، بين ظل أشجار الحرج عند حافة الغروب، مر دركيان على حصانيهما.

ـ أريد أن أكون الأول عندما تكبرين، هل تفهمينني؟

ـ أجل.

ـ قبل خطيبك، صحيح؟

ـ أكيد.

أبعد الإنديانا عن مسندها. وضع كمه كمنديل، ونفخ على المرآة العاكسة، ثم فركها ليمسح البخار. أدار المفتاح، وضغط بقدمه على دواسة التشغيل.

ـ اركبي.

تمسكت بخصره، ووضعت رأسي على أفرهول عمله. رفعت يدي إلى أعلى، وأوقفتها عند مستوى قلبه. مضينا الآن ببطء شديد، كما لو أن النهار بلغ نهايته، وكان هذا المشوار للعودة إلى البيت هو خاتمة حلم.

XXIII

بعد حوالي شهر من ذلك، حدث شيء لم يكن في الحسبان.

لست أدري إذا ما كانت إحدانا تأخذ، في روتين الأسابيع، بمراكمة طاقات خفية، إلى أن يصادفها فجأة، برج كواكب

مشؤوم، أو سوء تفسير إيماءة أو عبارة ما، أو تلهف لتسريع المستقبل؛ لأن المرء لا يمكنه أن يصدق، عندما تقترب سنوات العمر الأربع عشرة من الاكتمال، بأن الحياة ليست سوى هذا: مسعى من أجل أن يُظهر القدر ومضة، أو إشارة سعادة، أو عاصفة تطوح بأوراق الخريف المتيبسة في الساحة.

في أثناء ذلك تتراكم المحن، وتخرج إلى الضوء تلك الوحوش القابعة في الظلمة الداعرة، تكشف عن أسنانها الشرهة.

ومع ذلك، فقد بدأ النهار على أحسن ما يكون. في الساعتين الأوليين، كان لدينا درسا لغة إنكليزية. وأحضر الأستاذ فونوغرافه ذا خمس وأربعين لفة، مستلهماً فيلماً يتوصل فيه المعلم إلى تحقيق الأعاجيب مع تلاميذه المنحرفين، بجعلهم يستمعون موسيقى؛ ووضع لنا بعض الأغنيات الرائجة التي تروقنا.

معظمها كان صاخباً وغائم الكلمات، لأن الكبار يعتقدون دوماً، أنه لا يوجد في رؤوسنا، نحن الفتيان، سوى الضجيج، وإنهم يوفرون لنا السعادة، بحشر مزيد من الدوي في رؤوسنا. أما أنا، فلم أكن أتبنى، في أعماقي، إلا الموضوعات الموسيقية الرومانسية، وكلما كانت هناك كمانات وساكسيفونات كئيبة، كان تأثري وانفعالي يزدادان.

إذا كانت المغنية امرأة، فإنني قادرة على فهم أسباب معاناتها، بكل تلوناتها، وإذا كان المغني المنفرد رجلاً، فإنني قادرة على مواساته إذا ما وضعه القدر بين يديّ. كانت أغنيته المفضلة هي *cry* «بكاء» لجوني راي الذي يقال عنه إنه أصم. فإذا كانت هذه الإشاعة المشينة صحيحة، فلا بد من القول إنه أصم مثل بتهوفن.

«يئن بأناقة تتشرب معها حباله الصوتية بصوت ديك خارج عن المألوف، يؤنسن الكلمات ويؤججها حقاً».

لقد أعادوها علينا ثلاث مرات، وحصلتُ على سبع درجات لأني

استنسخت كلمات الأغنية كلها، بلفظها الصحيح وقواعدها النظامية. وما زلت حتى هذا اليوم، في هذه الوحدة المتوترة، أتذكر مقطع الأغنية: «إذا ما بعثت إليك حبيبتك رسالة تقول فيها وداعاً، فليس سراً أنك ستشعر بالتحسن إذا انفجرت بالبكاء».

لقد قال الجد **وداعاً**، وغرقتُ أنا مؤخراً في كآبات مفاجئة، لأنني لم أبكِ ما فيه الكفاية. وكنتُ محكومة بقدر الأسرة التي لا نعرف فيها آباءنا، ونختار في جنوننا ذاك الذي لم يكن لهم، فنسرق أسماءهم. أنا لم أستطع أن أكون مجدلينا، ولستُ أريد بأي حال أن أخفق في ألا أكون آليا إيمار.

الآن «**أنا**» سأقول وداعاً، وستطهو جوفانا طعاماً لنفسها فقط، ستتناول القهوة مع سيجارة، وستشذب أظفارها من الضجر، وربما سيأخذها سيبولبيدا مرة في الشهر إلى السينما لمشاهدة أفلام ذات مضمون اجتماعي.

في أحد الأيام ظهر سيبولبيدا بعينين محمرتين وقبضة متشنجة، وأوصانا بأن نذهب إلى المسرح، لمشاهدة مسرحية ***عناقيد الغضب***، لعلنا نرى أن هناك في العالم ما هو أروع من طلاء خدودنا بالمساحيق أو ركل كرات بين حجرين: الإضراب. *Remember sunshine can be found, behind a cloudy sky, so let your head go down and go on and cry.*

في استراحة الظهيرة، عندما كنتُ عائدة إلى البيت، بالضبط، لأحضر حساء الغداء، اعترضني سيبولبيدا بوجه متجهم وصوت أجش:

- أريد التكلم معك.

- لا يوجد ما يمكن قوله بيني وبينك. ولولا هذه المدرسة و«مامي»، لما كنتُ نظرت إليك.

- وأنا أيضاً لا أستلطفك. ولكنكِ تجاوزت الحد هذه المرة.

- وماذا فعلتُ يا أستاذ؟

كان هناك مطعم عند الناصية، يعلنون فيه على سبورة عن وجبة

اليوم: وكانت الوجبة «طبيخ خضار بلحم البقر»

- تعالي لنتناول الغداء وسأخبرك.

جلستُ بجوار النافذة، وتوقفت زميلاتي في الفصل ليتفرجن علينا، وكأننا مشهد على الشاشة. أخرج سيبولبيدا سيجارة، بصق شائبة تبغ صغيرة على الزجاج، وأبقى السيجارة في فمه وهي مشتعلة.

نظف يديه بعد ذلك في ثنيتي ياقة سترته، ووضع فوق المنضدة بطاقةً، تعرّفت عليها برعب. إنها رسالتي إلى راي كوبيتا، هوليود، الولايات المتحدة، مختومة بعدة أختام، وبعد ذلك بخاتم كبير صاخب: *return to the sender*. أي تعاد إلى المرسل.

- من أعطاكَ الإذن بفتحها؟

- طبيبك النفسي.

- أي طبيب نفسي؟

- الذي سيعالجك! لا يمكنك المضي في العالم مثل مجنونة، تملأ رأسك الترهات التي تأتين بها من السينما، وتفترين على الناس.

- وهل قلتُ شيئاً كاذباً؟

- تصورينني كما لو أنني الغول في قصة للأطفال. كما لو كنتُ آكل أطفال.

- الشيوعيون يأكلون الأطفال.

- وأنت أكلت دماغك الدعاية البرجوازية، ووصوليتك المؤيدة لليانكيين.

- دماغي خالٍ من الأسلاك الشائكة. ورأسي ليس معسكر اعتقال.

- اسمعي أيتها البهيمة. لولا الشيوعيون، لكان جميع أهالي سواحل ماليسيا الآن، سجناء في معسكرات اعتقال. ليس لك أب، لأن أباك قدم حياته وهو يقاتل، مع الأنصار، ضد النازيين. لا بد لذكرى الأبطال من أسرتك أن تبث فيك شيئاً من الكرامة!

ـ وهل تحترم أنت جدي بتحرشك بجوفانا؟
ـ لا يوجد بيني وبينها سوى صداقة جميلة.
ـ هذا النص أعرفه من فيلم كازابلانكا. لقد أدخلتَ أفكاراً في رأسها.
ـ هذه الأفكار هي مستقبل تشيلي. حرية، فرص للجميع، مساواة.
ـ ومن هم ليسوا مثلكم، ستعلقونهم على أعمدة النور.
ـ من أين تأتين بكل هذا البراز؟

أحضرت لنا النادلة الحساء. تناول سيبولبيدا قرن فلفل أصفر حار، وفتته كما لو أنه كبدي. ثم ألقى الفتات بقوة في الحساء. راح يحركه بغضب. بدا كما لو أنه قد أكل الفلفل حتى قبل أن يتذوقه. كان أحمر بحمرة إشارة ضوئية. غمس الملعقة بسرعة، ثم توقف لثوان، كي يشرب كأس نبيذه الأحمر.

ـ ما هو فيلمك المفضل؟ – أطلق السؤال فجأة.
ـ *M* [مجرم].
ـ أتعرفين لمن هو؟
ـ جوزيف لوزي.
ـ وتبقين هادئة!
ـ ماذا تريدني أن أفعل؟ أليس للوزي؟
ـ الذي يعرضونه الآن هو للوزي. ولكن قبل سنوات طويلة، كانت هناك نسخة أولى، أخرجها فريتز لانغ. إنه كلاسيكي.
ـ لا أعرف ما معنى كلاسيكي.
ـ عمل فني لا يؤثر فيه مرور السنين. وبالمناسبة، أتعرفين أين هو جوزيف لوزي؟

فقلت وأنا أغرف ملعقة الحساء:

ـ لا أجد سبباً يفرض علي معرفة ذلك.
ـ هناك في هوليود، فردوس حريتك، لجنة نشاطات معادية

لأمريكا، تطارد كل كبار الفنانين لتعاطفهم مع الشيوعية.

ـ وماذا فعلوا بلوزي؟

ـ أضطر للذهاب إلى أوروبا. وربما كان جدك راي كوبيتا مضطراً إلى الاختفاء، حتى لا يدخلوه السجن.

نظر بحقد إلى الرسالة، وأشار بإصبع صاعق إلى مقطع فيها:

ـ «يقول إن توني بينيت مخنث»، متى قلتُ هذه البذاءة؟

أخفضت عيني، حتى كاد أنفي يلمس البطاطا وقطعة اليقطين المسلوقة التي يتصاعد منها البخار.

ـ لقد قلتَ قبل أيام عن ممثل آخر إنه مخنث.

ـ قلتُ ذلك عن رونالد ريغان، لأن هذا المخنث جداً، ذهب إلى لجنة النشاطات المعادية لأمريكا، ليشي بزملائه الممثلين.

ـ فتّان، وجهه سكران؟

ـ تكلمي كامرأة، وليس كطفلة بلهاء ومدللة. ثم إن توني بينيت هو المغني المفضل لدي.

ـ لا أصدق يا أستاذ. فكل من يغني بالإنكليزية هو في نظرك مُستبل.

ـ مُستلب يا بهيمة. أي من لا يعترف، أو من يتنكر لهويته الثقافية، وتاريخ وطنه، ونضاله من أجل الاستقلال، وفولكلوره، وفنونه الحرفية اليدوية.

وفي حركة ليس فيها شيء من العفوية، بصقتُ معيدة إلى الطبق الملعقة التي كانت تحرق فمي. فضمن شلة أصدقائي، كنا نمقت الفولكلور والفنون الحرفية إلى أبعد الحدود. وكنا نتصنع التقيؤ قرفاً حيال الشراشف المطرزة بزهرة الكوبيهوي التقليدية. وكانت أغنية الديك الملون الذي قفز الحاجز، وظل عالقاً فيه، تثير فينا مفعول مُسهِّل. وكان مرأى الأرغن وصبي الطبل الذي يخبط قدميه برقصة الكويكا الشعبية، يدفعنا إلى الهرب من الساحة إلى محل حلويات

خينو، لكي نغلق آذاننا بأقماع المثلجات.

- هل يمكنني أن أسألك يا أستاذ، لماذا أحضرتني للغداء؟

- لكي أوضح لك أنني لم أقل قط عن توني بينيت أنه مخنث. وأنه ليس لدي شيء ضد المخنثين الذين لهم مكانهم ضمن الطليعة الثورية. هل تعرفين أغنية *أولد مان ريفر* لبول روبسون؟

- بول ربسون.

- إنه مغنٍ أمريكي.

- يانكي؟

- يانكي، وزنجي، وشيوعي. أي أغنية تعرفين من أغنيات بينيت؟

- *From rags to riches*. وأنت؟

- بيكوز أوف يو *Because of you*.

- لا أصدق ذلك.

عندئذ نزع سيبولبيدا بقوة الفوطة التي كان يضعها كمريلة على صدره، ومسح فمه بها، ثم تنحنح وراح يغني بصوت مترنم وعالٍ، إلى حد خشيت معه أن تتفتت مرآة المحل.

لم يشأ أن يأخذ في الاعتبار ملامح جمهور زبائن المطعم الذين ظلت ملاعقهم في منتصف الطريق، دون أن يتمكنوا من إطباق أفواههم. بل غرس أصابعه في جيب بنطاله، ووضع ورقتين نقديتين فوق المنضدة. ثم مسح بالفوطة بقية عرق ضمخ به المجهود الغنائي جبهته، وانصرف دون أن ينظر إليّ.

XXIV

بدل الذهاب إلى البيت، انتظرتُ قليلاً تحت شجرة الامبو، إلى أن جاء بيدرو بابلو بالاثيوس - يورك نيو سابقاً - كأنه يمر عرضاً، وسأل

عن الدراجة النارية. فقلت له إنني آخذ دروساً لتعلم قيادتها. واعترفَ لي بمذلة بأن الروتين قد عاد إلى بيته؛ فأمه معتلة الصحة، وأبوه دون لورينثو يظل في البيت للعناية بها.

طلب مني الا أحسب حسابه في فرقتي من المهاجرين. وقال إن اسمه بكل بساطة هو بيدرو بابلو بالاثيوس. أما يورك نيو فكان دباً من المخمل، لعبتُ به في طفولتي. قلت له، دون قناعة، إن بيدرو بابلو بالاثيوس اسم رنان، حربي، وحنون، وإنه لا يمكن استبدال تقليد عائلي راسخ بنذالة هوليودية. استخدمت لصالحه المفردات نفسها التي عذبني بها سيبولبيدا قبل قليل. أضف إلى ذلك أن نيويورك، تغص بالفنفستر الأوغاد، والعاهرات، ومدمني المخدرات.

جاء انشقاق ب.ب.ب. ليفاقم الإحساس بالقلق الذي شرخ يومي، بعد المجد الصغير الذي تلا درس اللغة الإنكليزية. لا أحد كان، بشفافية، هو نفسه. ما كان التكهن ممكناً بما يمكن للأستاذ سيبوليدا أن يفعله، وبأنه يمكن ليورك نيو أن يتبدد، مثل دخان سيجارة، ويتخلى عن الهجرة أمام أدنى عقبة.

ذهبنا إلى غرفته، واستمعنا إلى أغنية الفيس برسلي *love me tender* عدة مرات، إلى أن خيم الظلام. وعندئذ، أحسست فجأة بالبرودة، فاحتضنت نفسي. وجاء بالاثيوس إلى جانبي، مرَّ بذراعه فوق كتفي، وقال إنه يجدني جميلة جداً، وإنه يشعر بالغيرة لأنني أسمح للأولاد الآخرين بتقبيلي في عروض بعد الظهر، وإنه يحب أن نكون أنا وهو «حبيبين»، اي الا أسمح لأي ولد آخر بأن يدس يديه بين فخذي، أو أن يلوث شفتي باللعاب.

سألني إذا ما كان يستطيع أن يقبلني، فوضعتُ يديّ متقاطعتين على فمي. فالرجل لا يطلب إذناً. إنه يترك جسده يتكلم قبل كلماته.

ذهبتُ إلى البيت وانا أرتعش من الإحباط والوحدة. مرحلة البلوغ كانت سجناً، وكل حلفائكِ ما هم إلا حراس بلا أخلاق، يتخلون عن

أسمائهم بسبب الضعف، وعن أحلامهم بدافع الخوف، وعن غضبهم بسبب الالتزامات. وقبل أن أدخل إلى حجرتي، دون حماسة للعشاء، بقيتُ قليلاً في الفناء الخلفي، بجانب الدراجة النارية، أداعب عجلاتها. واستحضرت إلى ذاكرتي، في أثناء ذلك، الريح وهي تشعث شعري، يوم الأحد، خلال النزهة في الحديقة. وبعد لحظة، أحسست بحرارة شديدة، وتلت ذلك رعشة كما الحمى. عندئذ دخلتُ إلى البيت المظلم، عبر باب المطبخ.

استوقفني تنفس أمي المضطرب. تقدمتُ نحو حجرتها، ورأيت فوق الكوميدينو لافتة ضخمة تغطي الجدار: «سلفادرو ألليندي رئيساً».

XXV

كنت سأمحو السنة التالية من هذه الصفحات، ومن ذاكرتي، لولا فاجعة أخرجتني من الممارسة العملية، واضطرتني إلى الاستغراق في التأمل. فقد كشفت الصور الشعاعية عن وجود قروح في الرئتين. وقالت جوفانا بمزاج معكر، كمن تبصق: ربما كان الداء هو الإرث الوحيد الذي خلّفه لي استيبان. ولفظت مرة واحدة، برعب، كلمة «سلّ». ولكنها ظلت تتحدث، على امتداد شهور، عن نزلة صدرية، أو التهاب الغشاء الرئوي، أو ذات الرئة. وكلها تمريرات تخفف بها من وطأة الحقيقة.

أنا لا يمكنني أن أكون أقل من العجوز كوبيتا، وقد كنت أنتظر إصابة مؤكدة بالسرطان.

ظللتُ معزولة في حجرة مستشفى، دون رفقة أخرى سوى شجرة وارفة، رأيتها تتعرى في الخريف. جمع تلاميذ فصلي نقوداً ليشتروا لي مدفأة تعمل بزيت البرافين. في الشتاء، لم أكن أشكل خطراً في

نقل العدوى إلى أحد، لكنني كنتُ أنهكهم بتقاريري الأدبية: فقد قرأت كميات كبيرة من الكتب، ابتداء من بيرل بيك، وحتى إنريكي آرايا، ومن **«الحصن»** لكرونين إلى **«أجساد وأرواح»** لماكس فان دير ميرش، ومن **«تورتيلا فلات»** لشتاينبك حتى **«الطفل الذي جن حباً»** لادواردو باريوس. وبدأت أحب الحياة بطريقة أخرى.

وابل الضعف الذي هوى بثقله على جسدي، قلّص من نشاطي... ومحا الخوف من الانتكاس تسرعي المتلهف للسفر إلى نيويورك. صرت أفضل الموت في ساحة البرازيل ــ حيث أعرف بالتفصيل جحور السحالي وبرك الضفادع ـ على ثلج منهاتن الصديدي الذي يكشف عن مئات الجثث في الشوارع بمجرد ذوبان الجليد في الربيع.

عندما أعادوني إلى البيت، مع الأمر بالاستراحة لعدة شهور أخرى، رأيت الحي ممتلئاً بمكبرات صوت معلقة على أعمدة النور. لقد كان هناك مهرجان في تلك الليلة لـ **«مرشح الشعب»**. وكان لدى جوفانا دفتر رياضيات، دونت فيه أسماء المنضمين إلى حملته الانتخابية. وكانت طوال ليلة المهرجان تملأ بقلم رصاص أحمر، أسماء أفراد رعيتها الأوفياء.

وبعد المظاهرة التي تابعتُها من السرير، عبر زمجرة مكبرات الصوت فقط، أحضر سيبولبيدا وجوفانا الدكتور ألليندي إلى حجرتي. شدّ على يدي بكلتا يديه، وبينما هو يضع بين شفتيه سيجارة غير مشتعلة، ويرفع نظارته إلى ما فوق حاجبيه، نظر من خلال ضوء المصباح إلى صوري الشعاعية الحديثة. ثم قال بعد ذلك، وهو ينزل ذقنه نحو رقبته القوية ويهزها بحماس: الطفلة تتماثل للشفاء. إنها مسألة أيام، ويمكنها أن تعود بعدها لتفتن المتوددين إليها في شوارع سنتياغو الفسيحة.

في اليوم الأول الذي سمحوا لي فيه بالخروج إلى الساحة، غطت أمي كتفي بشال عجوزٍ هرمة. ووضع موظف شباك التذاكر، بين

فخذي، بطاقتين مرقمتين لعرض يوم الأحد المسائي. حيث يقدمون فيلم «مغنياً تحت المطر». وقال لي إنني شاحبة، لكنني جميلة. وإنه يمكنني أن أحضر رفيقاً معي إلى العرض، وإلا فإنه سيأتي هو نفسه ليجلس إلى جانبي في الصف الأخير.. للحظة فقط.

كان خيريا يتابع دورةً في التحكيم لكرة القدم. وقد توقف عن المشاركة في أعمالنا التمثيلية بعد الخروج من عروض بعد الظهر، لأنه صار يعتبرها حماقات أطفال صغار. أما مهنة الحكم الرياضي، فلها مستقبل كبير: لأن الجميع يريدون تسجيل أهداف، وقلة هم الذين يعرفون قواعد اللعبة. لكن معرفة شيء محدد، والنجاح في الحياة بفضل هذا التحديد، سيكون أفضل من التحول إلى جامع ذباب وفئران، في المخابر، مثل الأخوين سيلفرمان. وأضاف إن أهدافاً كثيرة قد أُلغيت، بسبب التسلل، في الدوري الأخير. وقال أيضاً إنه تخلى عن عزف الناي المزدوج؛ فمع أن عدد عازفي الناي المزدوج كانوا قلة، إلا أن وجود فرقتي أوركسترا فقط، في البلاد، يجعل الطلب عليهم ضئيلاً أيضاً.

طردت بيتي سمبسون جوقة صبيان الحي، لأنها تريد أن تتحدث معي، حديث امرأة لامرأة. كان وجهها يزداد، أكثر فأكثر، شبهاً بممثلة سينمائية. وإذا كانت بالأمس تكبرني بسنة، فإنها تبدو اليوم أكبر مني بخمس عشرة سنة. كانت كما لو أن كل القبلات التي تداولت فمها قد جعلته أكثر شهوانية. وكان نهداها يتفجران تحت البلوزة المدرسية، ولمسة ظلال تسقط على رموشها عندما تُنزل جفونها، غارقة في إيقاع البلوغ.

كما أنها هجرت «أفلمات» الشلة، فهي الآن منخرطة في فريق تمثيل حقيقي. إذ اكتشفها أستاذ من مدرسة المسرح الليلية، في الساحة، وقدم لها دعوة لحضور دروسه. وكانت قد تخرجت على يديه ممثلات عديدات ممن حققن فوزاً في المسرح التجريبي. وقد شاهدت

هي بعض تمارين الطلاب. كان على الطلاب أن يتخيلوا أن هناك برداً شديداً، إلى أن يظهروا متجمدين، ثم أن يشعروا بحزن عميق إلى حد البكاء، وبعد ذلك أن يكونوا جداراً أصم، لا تعبر ملامحهم عن أي شيء.

وعندما غادر الطلاب الدرس، دعاها البروفسور ديتور إلى المنصة، وسلط عليها ضوء أحد مصابيح الإنارة. قال لها إنه سيعلمها الآن كيف يتبادل الممثلون الحقيقيون القبلات في السينما.

في البدء أمسك بوجه بيتي سمبسون، أغمض عينيه، وأطبق فميهما بيديه. ثم أمال بعد ذلك رقبته بنشوة، و«دون أن يلمس شفتي، أصدر فرقعة خفيفة بلسانه، وتراجع وهو ينظر إلي بعمق». كانت تلك هي القبلة السينمائية التقليدية التي تمارس في أفلام مصطنعة، دون مضمون إنساني حقيقي، ودون واقعية عاطفية. فالممثلون يتظاهرون بأنهم يتبادلون القبلات، إلا أن كل واحد منهم يشعر، في الحقيقة، بقرف من الآخر.

ولكن، ثمة أسلوب آخر، يا بيتي سمبسون، يمكنه تحويل بيتي سمبسون إلى كائن من لحم ودم مثلك؛ يحوّل كارمن لويسا اسبينوسا إلى نجمة مبهرة. لا شيء من مثبتات الشعر والمكياج. وليُلقَ خارجاً قناع الحياء، والخجل من إظهار التعبير الحقيقي عن الأفكار، وعن شهوانية العاطفة. لأنها إذا أرادت أن تكون ممثلة حقيقية، عليها أن تكون امرأة حقيقية أولاً. مثل طليعيات السينما الأوروبية العظيمات اللواتي يرفضن التزيّن والأصباغ، ويعرضن شفاههن الرطبة والشبقة أمام المصباح العاكس. يستمتعن بتهيج احترافي، بالمحرضات التي يدخلها فيهن زميلهن في التمثيل، لكي تنفتح تلك الشفاه الجامحة، الطافحة بالشهوة، والمتيمة حباً.

هكذا هو الأمر يا بيتي سمبسون. كارمن لويسا إسبينوسا، إنه الحب اللذيذ الملعون، الحب الذي يطلب أن تُعضَ، في فمك، الثمرة

الريانة الموشكة أن تتفزر، هذه التضوعات المنبعثة من شفتيك. لأنك في كل مكان ستكونين أنت هي أنت، حقاً أنت، في اضطرام خديك، في السائل الذي يبلل سروالك ويقطر على فخذيك، في العرق الذي ينفر من نهديك العذراوين.

كل شيء فيك يا بيتي مصنوع من أجل السينما. أفلامك ستنتهي بقبلة مجيدة، وأنا سأعلمك بغيرة مهنية، بعاطفة تعليمية، بعفوية صريحة، تتجاوز كوميديا العشاق. والآن، يا مليكتي، يا زنجيتي اللذيذة، ستفتحين فمك قليلاً، وستتركين لساني يغوص في لعابك، مثل غريق يائس يتشبث ببشرتك، مثل هذه الأفعى التي تريد الولوج في حلقك. أنت لا تفعلي شيئاً، سوى التجاوب باهتمام حقيقي، بهياج تواصلي. وعندئذ، عندما تشعرين أنك لي، عبدة لساني، يدي، قلبي المضطرب، ضعي يديك على رقبتي، واطلبي مني المزيد بجسدك. لا، لا، لا، لا تتكلمي بفمك، لا يمكن أن تتسلل بيننا وصمة الكلمات. الممثلة هي إيماءة موحية، هي دم، هي جسد، هي سخاء لانهائي. إنها سمو وانتشاء. ليست كلمات على الإطلاق، ولا عبارات زائفة، ولا تفاهات جبناء... قبل كلماتك، دعي قبلتك تتكلم، دعي لعابك البديع يتكلم. ما رأيك يا آليا إيمار كوبيتا؟

XXVI

ما رأيي، يا آليا إيمار كوبيتا؟

رجعتُ إلى البيت باحتدام حرارة جعل أمي تعتقد أنني وقعت ضحية انتكاسة صحية. رباه، ليستِ مهيأة بعد للخروج إلى الشارع. هواء سنتياغو الملوث مجرم، والسياسيون لا يفعلون شيئاً. من يدري الآن كم من الوقت سيكون عليها أن تلازم الفراش، وربما سترجع إلى

المستشفى. وستضيع منها سنة دراسية أخرى. سيبولبيدا انفصل عن زوجته: إنها بهيمة ضارية تمتصه بالكامل. فهي نفسها تقبض راتبه في نهاية كل شهر، وتكاد لا تعطيه إلا الفضلة ليشتري سجائره. وقد ذهب المسكين، بدافع الوقار، ليعيش في نزل. أنتِ مريضة، وكل ما نقوم به من عمل لا يكفي لتغطية النفقات. ترشيح الليندي أصاب الناس بمس من الجنون. إنه بلد نعاج. يطلبون أن يعود ابن السبع، ليأكل الخراف مرة أخرى. أوغاد بلا وعي. استفتاءات الرأي متفائلة. الليندي يتأجج في صدور الشعب. حرارتك مرتفعة... ثمان وثلاثون درجة، رباه. ما كان علي أن أسمح لكِ بالخروج. حاولي أن تنامي قليلاً.

أنام قليلاً؟

كيف هو ديتور؟ فم عريض، وجنتان نحيلتان، ذقن غير حليقة، وكآبة العشاق الأبدية. لقد ملأ تكورات بيتي سمبسون بالشبق. تبدو المسكينة كأنها ستنفجر في زيها المدرسي. إنها متورمة بالوفرة، ولكنها متورمة أيضاً بالإشارات الحمراء في دفتر الدرجات المدرسية.

في اليوم التالي، استحممتُ تحت الدوش، وطلبتُ من جوفانا أن تأخذني إلى المدرسة. لم يكن بي أي أثر للحمى، وإنما تصميم متأجج. كانوا يعطوننا في درس اللغة الإنكليزية قصيدة آلن بو: «**الغراب**». وكنت أتمنى لو أموت في المستشفى، ويكتب لي أحدهم أبيات شعر كتلك. نيفرمور. ليونور إيمار كوبيتا.

في الساعة السادسة مساء، ذهبت بالدراجة النارية إلى محطة البنزين. ارتديت بلوزة شفافة دون صدرية، وطليت شفتي بأحمر شفاه فاقع. كانت تلك هي ساعة خروج ريتشارد من العمل. كان شعره يلمع بالبرينتين، وعلى قميصه بقع ماء من أثر الاستحمام. وكان يضع سيجارة غير مشتعلة، ويمشي باندفاع نحو موقف الحافلة.

عندما قدمت إليه مفتاح الدراجة النارية، ضغط عليه لحظة في قبضته، ثم قذفه عالياً في الهواء، والتقطه بدقة بهلوان.

قلت له:

- أريد أن أنجز وعدي لك.

- أي وعد يا آليا إيمار؟

- أن تكون الأول. قبل خطيبي.

أشعل السيجارة وهو يحمي بيده شعلة النار. وبقي وقتاً طويلاً يهز عود الثقاب المنطفئ، ولم يطلق نفثة الدخان إلا بعد مرور بعض الوقت. كان ينظر إليّ، من حذائي ذي الكعب المتوسط الذي سرقته من جوفانا، حتى شعري المشعث بصورة نزوية، مثلما رأيتُ في صور الممثلات الفرنسيات. فقد كانوا يعرضون في سينما ركس فيلم **المومس المحترمة**. للكبار فقط.

- هل صار لديك خطيب أيتها «العصفورة الصغيرة»؟

ملأني اللقب بالخجل والغضب. ألا يلاحظ نهدي الصغيرين والصلبين البارزين تحت القماش الشفاف؟

- إنه فرنسي.

- أوه، لا، لا.

- طبيب فرنسي. تعرفتُ عليه في المستشفى.

- وما اسمه؟

- ديتور. الدكتور ديتور.

هبت نسمة شبه متواطئة مع ضوء النهار الآخذ بالتردي. امتص سيجارته، واستبقى الدخان في فمه، بينما هو يمسح بإحدى يديه متن الدراجة الإنديانا. وقال:

- آلة عظيمة. متينة وسريعة.

- هذا بفضلك.

- اصعدي إذاً أيتها العصفورة الصغيرة.

ركب هو أولاً، ودفع الدواسة بقدمه، فاختنقت الدراجة مثلما حدث لها قبل سنة. لكن عمري كان آنذاك اثنتي عشرة سنة، وأنا

سأكمل الآن أربع عشرة، بعد شهر واحد.

قادها دون إسراع، ودون وجهة تقريباً. كان يتوقف ساهماً أمام أضواء إشارات المرور الحمراء، ولا ينطلق فوراً عندما تتحول الإشارة الضوئية إلى الأخضر. لقد كان هناك ما يؤخره عند كل ناصية. ظننت في البدء أنه سيأخذني إلى حديقة كوسينيو، لينجز في الموقع نفسه، ما كان قد بدأه كلاماً قبل شهور. كان الوقت مناسباً، ولم يكن الجو بارداً، بالرغم من نداوته.

ولكنه لم يشأ التوغل في الغابة هذه المرة، بل توجه بالإنديانا نحو مضمار التنزه، حيث يقيمون السباقات والعروض العسكرية. كان المدرج يبدو عريضاً وأملس، فزاد ريتشارد سرعة الدراجة، مستمتعاً بزمجرتها. ثم نزل عنها، ورفع كيلوغرامات جسدي القليلة في الهواء، ووضعني في المقدمة قائلاً لي:

ـ ستقودينها أنت.

خلال بضعة أسابيع قبل المرض، كان قد أعطاني بعض الدروس التي تابعتها بحماسة أكبر من استيعابي لمهاراتها. كنت أعرف كيف أُبقي الآلة متوازنة، وكيف أتقدم بها بانسيابية، طالما لم تكن هناك حاجة لتبديل تروس الحركة. ولكن، عندما يتوجب ضبط تروس الحركة فقط، تبدأ الدراجة بالتقافز مع التبديل، ونادراً ما كنت أتمكن من إعادة التوازن إليها.

ـ منذ زمن طويل لم أقدها.

ركب على مقعد المرافق، وهو يتنشق أنفه.

ـ نقطة العطالة، أول، ثاني، ثالث.

ـ بسرعة أم ببطء؟

ـ إنك تتلهفين إلى السرعة أيتها الصغيرة.

ـ وإذا ما متنا؟

وكنت خلال الحوار أضغط على المُسرِّع وأرخيه، مثل ثور يعفر

التراب في الحلبة، قبل أن يندفع مهاجماً.

ـ سنظهر في الصحف.

ـ لن نموت مجهولين!

ـ لا شيء مما تفعلين يا آليا إيمار سيكون مجهولاً.

أحاطني بذراعية من الخلف، ووضع يديه الدافئتين على نهديّ. ضغط عليهما بنعومة، وشعرتُ في لمسته المجربة باللذة نفسها التي أحسست بها عندما لحس صوان أذني.

ـ لقد تحولتِ إلى ألذ فتاة بين فتيات ساحة البرازيل!

ـ ألذ من كارمن لويسا إسبينوسا؟

ـ كارمن لويسا إسبينوسا ليست سوى ضيعة بالمقارنة معك. أما أنتِ فمدينة.

ـ مدينة بناطحات سحاب... مثل نيويورك.

ـ بالضبط. مدينة مثل تلك التي لا يراها أحدنا إلا في السينما. مدينة ليست لنا أيتها العصفورة الصغيرة.

ـ عندما أُنهي المدرسة سأذهب إلى نيويورك.

ـ مع ديتور؟

ـ محتمل.

ـ ماذا يقول لك؟

ـ أشياء.

ـ هل تُحَمِّيك الأشياء التي يقولها لك؟

ـ لا أدري.

ـ وماذا يقول لك؟

ـ أشياء بالفرنسية.

ـ مثل ماذا؟

ـ *Chérie*

ـ وماذا أيضاً؟

تذكرت أغنية لـ نات كينغ كول.

- *Darling, je vous aime beaucoup.*

غطى ريتشارد جفوني، ألصق خده بوجنتي. وسمعت صوته الأجش.

- عندما أرفع يدي عن عينيك أيتها العصفورة الصغيرة، ستبدلين السرعة، وتندفعين بسرعة إلى أن تطير هذه الآلة.

- مهما كان ما سيحدث؟

- وما الذي يمكن أن يحدث لي، في الحياة، بعد هذا يا آليا إيمار؟ بعد أن يطير بائس مثلي مع أميرة؟

هنالك شيء في الدراجة النارية لا يمكن أن يفهمه إلا من قادها، أول مرة، بأقصى سرعة، ودون خوذة واقية. العالم كله يصير شيئاً آخر. مثلما يجب أن يكون. إذا ما تحدثت عن *الجموح* فإنني أعني خفقة تجعل المرء يطفو طائراً، وليس عن شيء له أي علاقة بكلارينت الموسيقي آرتيه شاو وهو يعزف بهدوء مقطوعة بهذا الاسم.

إذا ما كتبتُ أن الريح تبعثر شعر المرء، محولة كل شعرة فيه إلى هوائي، يلتقط ذبذبة ترددات الجو السرية، فلن أتوصل إلى التعبير الدقيق عن التأثر. وإذا ما وصفت انسجام حركة الرسغين، وهما يضبطان مبدّل السرعة، وقارنتها بلحن يعبّر عن عملية هروب، يعزفه معلم بيانو، فسوف ينقصني الإلهام والنَّفس.

لم أكن قد أشبعتُ رغبتي، بعد انقضاء نصف ساعة، ولكن البنزين نفد.

بعد الفرقعة الأخيرة، أمسكتُ الدراجة من مقودها، بينما طوق ريتشارد كتفي بذراعه، ومشينا طويلاً، بصمت، حتى وصلنا محطة البنزين، حيث ضخ لنا زميله ليترين.

اتخذ مجلسه على مقعد القيادة، وبالغفلة والحذر السابقين نفسيهما، أوصلني حتى باب بيتنا.

شيء ما في داخلي قال لي إنه يجب عليّ أن ألغي كلمة «شكراً» الجاهزة في فمي. لقد كانت ليلة بدا لي فيها كل شيء غائماً. وكان هناك ما هو أكثر دقة من اللغة، إنه صمتي في تلك اللحظة. فقد كنت أعرف أنني سأجرح شعور رجل محطة البنزين، حتى لو أنشدته سيمفونية بتهوفن التاسعة.

اكتفيت بالصمت العنيد. واحتفى هو بصمتي، فدخن سيجارة كاملة. وبعد أن سحق عقب السيجارة بقدمه، انطلق، دون أن يودعني، باتجاه موقف الحافلة العامة.

XXVII

كان آخر أيام السنة الحار أشد وطأة على بعض الأشخاص مما هو الخريف على الأشجار. فقد أفلس أبوا بيدرو بابلو بالاثيوس في مصنع التوابل، وبعد ذلك في مؤسسة لتوزيع عيدان الفانيلا من أجل حلوى «ذيل القرد» لأعياد الميلاد، وخلال شهر واحد أشهروا إفلاسهم، عندما تحمس أبوه للمتاجرة ببعض أصبغة الأنيلين من ماركة ابانيكو، تصبغ الملابس التي تعالج بها جيداً، ولكنها تؤدي بالمقابل، إلى انكماش حجمها إلى مقاس سترات الأطفال. صار دون لورينثو يغلق ثقباً فينفتح له آخر. وعندما توقف الأصدقاء عن تقديم القروض إليه، عمد، ليس بسوء نية وإنما بسبب الضيق، إلى تقديم شيكات بلا رصيد، مما قاده إلى الهرب من العدالة، دون أن يترك عنواناً.

ولأن التحريين يعرفون أن ابنه تلميذ في مدرستي، فقد كمنوا عند الناصية في سيارة مموهة، لاقتفاء أثر بيدرو بابلو لدى خروجه من المدرسة، والوصول بذلك إلى مخبأ أبيه. أحس الفتى بالخطر، وكان آخر اتصال له مع زملاء المدرسة، هو اتصاله بي هاتفياً. كان لديه

الكثير ليقوله، لكنه فضل الإيجاز. قال لي إنني سأجد في الكوخ القائم وسط ساحة البرازيل، حيث يحتفظ بستانيو الحديقة بأدوات عملهم، لفافتين. إحداهما تضم مجموعة أعداد مجلة **إيكران** مربوطة بحبل من القنب، والأخرى تضم الفونوغراف ذا الخمس وأربعين لفة، تحت ورقة مكتوب عليها، دون أدنى خطأ إملائي:

آليا إيمار: كنت أحب أن أراكِ شخصياً وأودعك. لقد حلّت كارثة تجارية بأسرتي، وسنتحول بين يوم وآخر إلى فقراء، مثل جيمس ستيوارت في *It's awonderful life*. والفرق الوحيد هو أنه لن يأتي أي ملاك لإنقاذي. وفي هذه الأثناء، سننقل إلى إحدى مقاطعات الجنوب أو الشمال، حيث سيختبئ أبي من دائنيه. بما أننا لن نجد في بعض الأيام نقوداً لشراء الخبز والحليب، فإنني أشك كثيراً في أنني سأكون قادراً، مثلما كنت من قبل، على شراء أسطوانة جديدة من محلات **«روليك»** كل يوم سبت، وأعرف أنك لن تفتقري إلى ورقة نقدية تشترين بها معزوفات السولو، لسام كوك، التي وصلت للتو. يؤسفني جداً أنني خيبت أملك بحكاية الذهاب إلى نيويورك. والآن، بعد أن فُرض علي أن أكون هارباً، فإنني سأبقى إلى جانب أبوي، لأنهما سيموتان إذا ما صارا يتيمين فضلاً عن فقرهما. ويتوجب عليّ، على أي حال، أن أقدم لك تفسيراً حول سلوكي، لأنه يخرج من روحي ببساطة.

عندما دفنتُ يورك نيو، لم يكن ذلك رغبة في أن أخونك، ولا بسبب الجبن. لقد عرفنا في هذا الأسبوع، أن أمي مصابة بالسرطان، وأن احتمالات بقائها على قيد الحياة معدومة، وأن نفقات العلاج الكيماوي غير مجدية، وستودي بنا إلى الدمار. لقد خسر أبي مدخراته، وهو يبحث عن عمل كعامل طباعة، بعد أن كان رب عمل منذ أن وعيت على الحياة.

الحياة غريبة يا آليا إيمار: لقد كنت أرغب دوماً في أن أكون صبياً مشعث الشعر، وسخ الوجه، تنبعث مني رائحة تبغ أسود...

واحداً من أولئك الذين تعشقهم النساء بمجرد النظر إليهم، والنتيجة أنني أكاد لا أكون ابناً صالحاً، وإنما مجرد ابن بابا وماما المدلل، العاجز عن كسر بيضة. كنتُ أحب أن أكون شريراً مثل سيدني بوتر في **بذرة الشر**، وأن أمزق بنطال أستاذ الكيمياء بسكين. ولكنني سأكون عزاء لأبي، دون لورينثو، وسأرافق أمي إلى أن لا تبقى لديها دمعة تسكبها على وجنتيها. أحمل معي صورةً لكِ، سأضعها إلى جانب سريري. وعندما سأراكِ نجمة سينمائية في إعلان ضائع، في أحد الأقاليم، سأخبر الجميع بأننا كنا صديقين، وبأننا حلمنا في أحد الأيام بالسفر معاً إلى نيويورك كمتسللين في سفينة شحن.

بيدرو بابلو بالاثيوس.

أدرت رقم هاتفه، ولكن الخدمة كانت مقطوعة، بسبب عدم الدفع. كنت أريد أن أقول له شكراً، وربما شيئاً آخر يخطر لي ونحن على الخط. لكن ذلك لم يكن ممكناً، وكان لا بد لي من ابتلاع تلك الكلمات غير المحددة.

لم يرجع إلى المدرسة كذلك عازف الناي المزدوج خيريا. كان الصيف قد أنحله، وتعاقد معه معلم موسيقى أعمى، ليكون دليلاً له، مقابل دروس خصوصية. ولكن عليه أيضاً أن يكرس نفسه مئة بالمئة للموسيقى. وما كان يقدمه إليه المعلم من التقنية وشحذ الذوق، عليه هو أن يدفع مقابله من عينيه. بعد سنة من الممارسة، سيكون في وضع يؤهله لأن يكون «عازفاً شكلياً» في الاوركسترا، بل ويمكنه أن يعزف فعلاً خلال موسم التوسع الثقافي في الصيف، عندما يسافر المعلم إلى الولايات المتحدة لإجراء عملية جراحية دقيقة في الشبكية، كانت نتيجتها تقريباً، مثل نتيجة تلك التي أُجريت للكاتب الأرجنتيني بورخيس.

وقد جاء إلى غرفة الصف، خلال درس الرسم، ودعاه الاستاذ

بيراليو ليعزف لنا شيئاً؛ فاختار مقطوعة خفيفة لموزارت، فصفقنا له غيظاً. لكن خيريا طلب منا الصمت، وكبح دمعة، عندما قال لنا إن الموسيقى ليست سوى زبد الموجة. وإن البقية هي الحياة. وإنه سيكون سعيداً لو استطاع تغيير قدره كدليل أعمى، مقابل يوم واحد يقضيه معنا، مع أن ميله الكبير البائس، هو كل ما له علاقة بـ **«دوريميفاصول»** وحسب.

الأخوان سيلفرمان بقيا في الصف. الكبير منهما وضع على ركبتيه واقيتين كبيرتين كنجمتين، والصغير يعمل في متجر بطاقات بريدية قديمة، تحمل صور فتيات التشارلستون، وسادة بشوارب كثيفة، يسترقون النظر إلى ما بين نهودهن، أو يشحذون سيفاً قبل أن يضربوا به إليتين محزمتين بأربطة سوداء.

الكبير منهما يقضي وقت الفسحة محاكياً تحكم لاعبي كرة القدم المحترفين بالكرة، دون أن تستجر مآثره تصفيق مشاهديه الضجرين.

أما بيتي سمبسون، فلم تحضر الدروس منذ اليوم الأول في المدرسة. وبعد أسبوعين من ذلك، لم يعد الأستاذ سيبولبيدا يذكر اسمها وهو يقرأ التفقد. لكنها في أواسط شهر نيسان، أوقفت سيارة مكشوفة أمام باب المدرسة. وعندما خرجنا متزاحمين لنلتقي بالمتوددين إلينا عند الناصية، نزلت هي من السيارة الفخمة، ووضعت أمامنا كيساً مملوءاً بالشوكولاته، وبعض المثلجات التي تلتصق فيها الكريما على العود، والمغطاة بطبقة من الكاكاو المقرمش. ودعتنا لأخذ واحد آخر «إلى الحلوى يا صغيرات»، ووضعت ساقيها في وضع هجومي مثير، بحيث يظهر جوربها المخرم، ويُبرز قماش الفستان الضيق مؤخرتها، وفق ذوق السينمائي الفرنسي، أكثر المؤخرات كمالاً في سنتياغو.

ـ كيف ترونني؟ سألتنا، بينما كان مرافقها يتفحص توقعات

سباق الخيل في جريدة **الميركوريو**، ويشير بصلبان على أسماء بعض الخيول.

ـ مثل شيء مبتذل - قال لها سيبولبيدا وهو يُخرج قطعة شوكولاته من لفافتها.

XXVIII

العزيزة آليا إيمار، العزيزة جداً مجدلينا سابقاً:

الآن وقد توفي جدك، وضميري الخبيث لا يتيح لي النوم، مؤنباً إياي لأني لم أحضر جنازته في سنتياغو؛ قررتُ، على سبيل التعويض المتواضع، أن أرسل إليك بضع صفحات من مذكراتي التي تروي لحظة عميقة المغزى من حياتك، ربما لا تعرفين باطنها. فقد كان جدك استيبان محترفاً للصمت، وأشك في أنه أسرَّ لك بما أرويه هنا.

تسلمي مني إذن الصفحات التالية، مثلما كتبتُها في حينه، بلسعات تهكم من البلاغة الساخرة التي طالما تخللت نثري. ومن أجل تعزيتك، أريد أن أقول لك إن هذه الصفحات قد تجد طريقها إلى النشر. ولكنها إقرار حقيقة يتناسب تماماً مع انعدام المعنى في نظرتي الارتيابية إلى الحياة.

أرجو ألا تحبطك هذه الكلمات. فأنا أعرف أنك تكتبين نوعاً من الرواية (هذا سرّ أطلعتني عليه جوفانا)، ويسعدني حقاً أن تواظبي عليها. فهناك شيء مشتعل في حياتك، لا يمكن مقارنته بروتين قلبي الصدئ.

أحبك، وإليك ما كتبته عن جدك.

روكي بافلوفيتش.

هل لاحظتَ حضرتك، أن هناك أشخاصاً في الحياة يفتقرون إلى البروز؟ لا ينتظر منهم أحدنا شيئاً غير مألوف. يحملون قدرهم مكتوباً في نظرتهم وليس على راحة يدهم. إنهم أناس يودون بالغجريات إلى الإفلاس. إنهم مُتوقَّعون مسبقاً، مثل مراحل القمر، وثابتون مئة بالمئة. وعندما يرون شيئاً يدهشهم، يفضلون الاعتقاد بأنهم ضحية احتيال.

أحد هذه الشخصيات المنطوية في الظلمة، هو صديقي الماليسي إستيبان كوبيتا. وفضلاً عن عاديته، هناك واقع أنني أعرفه منذ قناطير من السنين، بل إنني كنتُ المتواطئ معه في عمله الاستثنائي الوحيد: نشرت له في صحيفتي الدلماسية، قصيدة مريعة، مهداة بنفسٍ فيه من الإحباط أكثر مما فيه من الإلهام، إلى المرأة التي أحبها. ولا أظن أن تلك الأبيات المقتضبة، هي التي دفعت ملهمته إلى اتخاذ قرارها بالزواج من آخر. ولكن لا بد أنه كان لها بعض الأثر في ذلك.

وبالرغم من أنني أكبره بعقدين من السنين، إلا أنني، مع مرور السنوات في أنتوفاغستا، رحت أشعر أكثر فأكثر بأنه في مثل عمري. وكانت حفيدته مجدلينا تعاملنا، عملياً، كصديقين في السن نفسها. فأي رجل تجاوز الخمسين، هو شيخ مسن في نظر الأطفال، ولا فرق لديهم بين شخص في الخامسة والخمسين وآخر في الثامنة والسبعين. أضف إلى ذلك أن معاناة حسرات الحب، مضافاً إليها التعلق بأمل واهم، يسرّع الشيخوخة أكثر من إدمان الشراب. وقد كان استيبان كوبيتا محترفاً في هاتين الرياضتين.

لقد كان لبعض عبارات الحماسة القومية في مقالاتي، في سواحل ماليسيا، تأثير على سلوك بعض الشبان المندفعين. ويؤلمني، وإن كان دون ندم، أنني جملت بقلمي شيئاً كان على قدر كبير من القبح في الواقع. وأخشى أن تكون بعض مرافعاتي، وخطاباتي الحماسية، وتحقيقاتي الصحفية المنحازة، وهذا أقل ما يمكن أن يقال عنها، قد ضللته، وألحقت به بعض الضرر والخبل اللذين لم تتجرأ وداعته على

تأنيبي عليهما. ولهذا فإنني أزوره في بيته بين حين وآخر. إنني أشبه بأب رعديد، غير واثق من ابنه، يزوره بين حين وآخر ليتأكد من أن أموره ما زالت على سوئها. لقد كان الكاهن بريغيل، في جزيرة جيما، يقول إن إستيبان كوبيتا هو خروف.

أما أخوه رينو، الذئب، فيفترض أنه يمضي ملتهماً النعاج في نيويورك.

منذ أن دفنا نفسنا في أنتوفاغاستا، لم يأت هذا الرجل إلى بيتي قط. والسبب في ذلك بكل بساطة، هو الكسل، أو لأنه غير معتاد على ذلك. فهو شخص عليه، من أجل اكتساب عادة جديدة، أن يمتلك طاقة البدء بشيء مختلف. كما أن عينيه الزرقاوين البديعتين لا تعرفان التمعن في الأفق، إلا حيث يجب أن تتجسد خطيبته في شبابه: آليا إيمار. وأنا أراهن، بوضع يدي تحت فأس الجلاد، على أنه حين يغمض وميض حدقتيه الكوبالتيتين، تمتلئ أحلامه بصورتها.

في مباريات كرة السلة، في نادي سوكول الرياضي، يتصرف بأخوية، على الرغم من ضخامته، حيال خشونة الخصوم خبيثة النوايا، ممن يسعون، دون طائل، إلى انتزاع كأس الفوز السنوي من الماليسيين، ويمكن القول إنهم حمر مدرسة الليسيه، وهامشيو رينكورت. وهؤلاء الأخيرون لهم ملعبهم بالقرب من المقبرة، حيث دفنوا في إحدى المرات حكماً لم يكن مواتياً لهم في مباراة نهائية.

وباختصار، كان استيبان كوبيتا مخلوقاً على بركة الله؛ عصفور دوري جريح، يُقدِّم إليه الموتُ شريحةً يومية، مقطّعة في رقائق نحيلة جداً. ولهذا، عندما رأيته يدخل، مثل خدروف، إلى منزلي، بعد أن طرق الباب بقبضة بنّاء، طفر قلبي من الفم. لم يكن شعره غير مسرح وحسب، بل كان مشعثاً. واتخذ صوته المترنم نبرة حلقية.

ـ لقد اختفت الطفلة يا سيد بافلوفيتش. هناك من رآها تنزل باتجاه البحر، ولم ترجع من هناك.

ـ اهـدأ يـا رجـل. فالأطفـال مثـل الكـلاب، يعرفـون دومـاً كيـف يرجعون إلى البيت.

ـ لقد ذهبت ومعها حقيبـة، وقـد رأوهـا تـصعد إلى زورق! أنـت رجـل متنفذ، افعل شيئاً!

ـ لا تلهث هـكذا يا استيبان. فقد ينفجر قلبك.

ـ القلب فـي حالة حسنة يا دون روكـي.

أدرت رقـم هـاتف الـشرطة. لم يـكونـوا قـد عثـروا علـى أي طفلـة ضالة. ولم يـكن لـديهم كـذلك، فـي يوم الأحـد ذاك، عناصـر شـرطة للقيام بدورية فـي المدينة. طلبتُ سيارة أجرة، وأمرت السائق بأن يوصلنا إلى المينـاء. ومـا إن قفـز استيبان مـن الـسيارة إلى رصـيف المرفـأ، ورأى شبح عابرة المحيطات، وبحارتها المنهمكين فـي رفع المرساة، حتـى بـدأ بخلع سترته، وقميصه، وحذائه، مشيراً بإصبع لجـوج باتجـاه الـسفـينة. وصرخ:

ـ الطفلة هناك!

ـ وكيف عرفت؟

ـ وما أدراني! لقد عرفتُ وحسب!

ولم ينس، المتحفظ والوقـور، فـي لحظـة الطـوارئ تلـك، إحـساسـه بالحياء، فبقي لابساً بنطاله. وبمأثرة جـديرة بفطـاس، ألقـى بنفسه إلى البحـر، وبدأ السباحة بضربات جبـارة مـن ذراعيـه، متغلبـاً علـى الأمـواج الضخمة الهائجة التي تُحدثها الريح.

ضـممتُ راحـتي، وتـضرعت بـصوت خافـت ألا يحـدث شـيء، وألا ينهار جسد مـواطني المـاليسي العجوز فـي تـلاطم هـذا المحـيط الـذي لا يرحم.

وكنـتُ شـاهداً، والـذعر يـسيطر علـيّ، علـى انهمـاك البحـارة فـي رفع المرساة آلياً، فلوّحتُ بمنديلي منبهاً طـاقم الـسفـينة، لكـي يوقفـوا

عملهم. كنت أريد أن أشير إليهم إلى أن هناك رجلاً يسبح بيأس نحوهم. وشاءت سخرية القدر أن يُخرج السائحون الذين في السفينة مناديلهم، ليلوحوا لي مودعين بتهذب، كما لو أنني واحد من الوطنيين يتمنى لهم رحلة موفقة.

- هناك رجل في الماء! - صرختُ بذلك وأنا أعرف أن تحذيري سيتحلل ضائعاً وسط قعقعة سلاسل المرساة، وزعيق النوارس، وصخب فرقة الموسيقى العسكرية التي تعزف مارشات عسكرية بروسية، من جهة الكشك، في ساحة كولومبس.

لم أشأ بذل مزيد من الجهد في هذا العمل غير المجدي. وحيال خواء يوم الأحد المقفر، وغياب الزوارق عن المرسى، وانصراف الصيادين الهواة الذين خاب أملهم ببحر هائج يقطّع صنانيرهم، لم أجد سوى التركيز على استيبان الذي بدا كما لم أنه يسرّع إيقاعه كلما اقترب من عابرة المحيطات، كأنه يوجه ضربة هراوة مع كل متر يتقدمه، برأسه البارز، وساقيه المتحولتين إلى مروحة طاقة، وجسده كله المندفع مثل قذيفة طوربيد موجهة لإغراق السفينة.

لقد نمت له عضلات، من تلهفه. وتلاشت سنوات عمره غارقة بين الطحالب. وضج في عروقه جنون شبابي من ملح وشمس. رأيته يتحول إلى حربة صيد حيتان، تندفع لتنغرس في السفينة العملاقة التي بدت كأنها مسخ رخوية بحرية. لم يكن بمقدور الزبد البحري الذي تبصقه آلهة الغرقى المعادين أن يوقف رجل الصخور المرجانية والأعاصير ذاك. إيقاعه أشبه بإيقاع سيمفونية تجرف معها كل الآلات الموسيقية، خاصة طبلة ذراعية، وشحنة أسنانه المشدودة المتفجرة. أما الرئتان اللتان أعلن الأطباء المحليون انتهاء صلاحيتهما، فكانتا تنتفخان الآن بقدرة ملاك هذياني.

آه يا استيبان كوبيتا! عساك لا تفقدها، ألا يضيع هذا الحب

الصغير مثلما يضيع الزبد على الطحالب! وأن تمكنك أنفاسك من الصعود إلى الحديد البارد لهذه السفينة التي لا تسمع الحيوان الضاري المزمجر والصارخ في قلبك! وأن يكون هناك عهد تعويض سري، فيلي جحيم عذابك، فردوس صغير، وتهدأ هيجانات روحك بحسن طالع! لقد رأيتك ألف مرة على امتداد السنوات، ولم تتصور عجرفتي قط، أن في أعماقك الوديعة يوجد حيوان عميق قادر على الإحساس إلى حدّ الانتحار! فليحملك الرب والمحيط ذو الأجنحة المتجعدة إلى مرفأ الأمان! إنك جدير بكل جلد السماء الأزرق!

XXIX

قبل بضعة أسابيع من الانتخابات، جاء ألليندي للعشاء في بيتنا. كان اجتماعاً سياسياً نظمه سيبولبيدا. أعدّت جوفانا طبيخاً قوامه الدواجن، واكتشف مرشح الرئاسة وجود عباءة ملاكمة الطوربيد سانتشيث، وارتداها.

قال إن طوربيد كان أسطورة في الرياضة التشيلية، وأراد أن يعرف ما هي العلاقة بينه وبين الجد تيبي. رويت له كل ما أعرفه، واستمعت جوفانا إلى القصة مرة أخرى، بالريبة السابقة نفسها.

ضحك ألليندي عندما علم بمأثرة جدي في ساحة كولون، في أنتوفاغاستا، وقال إن له هو نفسه قصة مع الملاكم بيدرو ***ديناميت*** سيلفا، ستصيبنا بالضربة القاضية. لقد تعرف عليه قبل وقت قصير في كالاما، استجابة لرغبة الرفاق في لجنة الحزب الاشتراكي المحلية هناك، ونظراً لشعبية هذا الرياضي الذي يلقبونه «وريث الطوربيد سانتشيث»، ألحوا على ألليندي أن يطلب من الملاكم شخصياً، أن يدعم ترشيحه للرئاسة.

لكن دون سلفادور كان متردداً في عمل ذلك. كان واضحاً لديه أن أي صوت، من أينما أتى، سيكون موضع ترحيب. المشكلة الوحيدة هي أن سيلفا، بعد أن كسب لقب بطولة أميركا اللاتينية، في مواجهة خصم من غواياكيل، بضربة قاضية ساحقة، تجاوز الحد في الاحتفال، ولم تعد تمضي ليلة إلا ويطلب مائدة عامرة من البيرة، ليتقاسمها مع معجبيه، ومع مدربه، أو لمجرد متعته الشخصية.

ومنذ شهور، قال الدكتور ألليندي، لم يعد هناك من يصعد إلى الحلبة لمواجهة «ديناميت»، لأن اسمه منح تشريفاً كبيراً للكمته. فضربة منه، موجهة من أسفل، تؤدي إلى كسر فك خصمه، وإصابته بارتجاج دماغي يصعب شفاؤه، قال ذلك بحكم خبرته المهنية.

تفحصني الدكتور ألليندي بعد هذه الكلمات، ومن المؤكد أنه استطاع رؤيتي أرمش مفتونة بطريقته في القَصّ، شديدة الزخم، والمناقضة لصرامة سيبولبيدا.

إنني أفكر يا بنتي، في أنها ستكون ذريعة قوية، أن نذهب غداً، أنت وأنا، إلى كالاما، لنطلب مساندته السياسية. ونقدم إليه عباءة الطوربيد سانتشيث نفسها، كهدية.

اشتعل بي خجل، بدأ أولاً من أصابع قدمي، ثم اندفع بعد ذلك هائجاً عبر الصدر، إلى أن انفجر بحمرة رمانية في خديّ. فالدكتور ألليندي يطلب مني، أنا آليا إيمار كوبيتا، التلميذة التافهة والنكرة، أن أشارك في حملته الانتخابية في منطقة الصحراء، حيث رست بالضبط كآبة جدي ويأسه، في مطلع القرن، ليتحول إلى شبح مأساة ما زلتُ غير قادرة على جمع فتاتها.

سيكون عليّ بالطبع أن أتنازل عن هذه العباءة الأثرية التي تساوي أكثر من مئة صندوق مترعة بكنوز القراصنة. ولكنها ستكون لفتة في سبيل تشيلي، ضوءاً سيشع في ضريح الجد، بعد عقود من إبحاره

في عتمة الذكرى، وعقم الآمال. الآن، وبعد سنوات قليلة من موته، تتاح للجد إمكانية الدخول في الممارسة، التوغل في المستقبل. أما ريتشارد وكارمن لويسا إسبينوسا اللذان كانا يعتبرانني شخصية مدعية، بخيلة ومتسلطة. فليموتوا بغيظهم! مثلما تقول القصص الإسبانية التي تباع في كشك المجلات.

- يسعدني ذلك يا دكتور! - هتفتُ، دون حاجة إلى التدرب على الابتسامة التي اندفعت من أعماقي. ثم نظرت بطرف عيني إلى سيبولبيدا، وأضفت: - المشكلة الوحيدة هي أن لدي دروس رياضيات غداً.

- أنت مأذونة - غمغم سيبولبيدا.

XXX

في بار «كامبو ليندو»، شكر الدكتور ألليندي الملاكم ومدربه على كرمهما، وإيمانهما بالأفكار الاشتراكية الديمقراطية، ورافق سيلفا لبعض الوقت، بالرغم من أن هذا الأخير لم يكن يخرج عن موضوع وحيد ممل، هو عدم وجود منافسين له.

«إنني دب بلا عسل»، كان يردد ذلك، بينما هو يُفرغ في جوفه زجاجات متتالية من البيرة، دون أن يتيح لها الوقت لتفقد برودتها. في تلك اللحظة بالذات، انتبهتُ إلى أنه، خلال ترديد الملاكم لشكواه، كان هناك على مائدة في العمق، شخص طويل جداً ونحيل، له يدا عازف بيانو، يداعب جبهته، ويشرب بين حين وآخر، جرعة ماء معدني ماركة «بانيمافيدا».

عندما انهار مدرب سيلفا مخموراً، فوق الزجاجات الفارغة، اقترب

النحيل من الملاكم، وبادر بلطف إلى إشعال سيجارة له. بعد النفس الأول، احترم الرجل صمت الرياضي، وظل واقفاً إلى أن أومأ له الملاكم بأن يجلس.

- هذا شرف لي أن أجلس مع بطلين - قال -، بطل في الملاكمة وبطل في السياسة. البطل الحالي للوزن المتوسط، ورئيس تشيلي المستقبلي.

فابتسم ألليندي:

- يجب أن أكسب الانتخابات أولاً. في أي قطاع تصوّت حضرتك؟

- في أنتوفاغاستا.

- أقدم لك نصيرتي آليا إيمار كوبيتا.

فقام الرجل بإيماءة احترام، كما لو أنه يخلع قبعة لا يلبسها.

- تشرفتُ يا آنسة.

- هل تهمك الملاكمة أيها النحيل؟ - همهم سيلفا وهو في شبه غيبوبة.

- كثيراً.

- والمصارعة؟

- بعض الشيء.

- تنقصك اللياقة الجسدية، أليس كذلك؟

- وقوة الضربة. ولكنني سريع.

- سريع في أي شيء؟

- في الانطلاق.

ابتسم ديناميت، مخرجاً لسانه من فجوة السن الأمامية التي تنقصه، وقدم إلى محدثه كأساً.

أومأ النحيل بذقنه إلى المدرب النائم، وظل متجمداً إلى جانب المقعد الذي دون مسند:

- يبدو لي أنك بحاجة إلى مدرب آخر أيها البطل.

ـ أحتاج إلى خصم أكثر من حاجتي إلى مدرب.

ـ يروقني أن أشاركك في واحدة من هذه المباريات أيها المعلم.

ـ لدي مدرب - وأشار الملاكم إلى مساعده المنهار إلى جانب القوارير - ما اسمك؟

ـ أوليفر. ولا أشرب سوى ماء «بانيمافيدا».

ـ مياه معدنية؟ لم تُهدِ الحياة إليك، كما يبدو، أية أوجاع أيها النحيل!

ـ ماتت أمي عندما كنتُ في الثالثة من عمري. وترعرعتُ يتيماً.

ـ يؤسفني ذلك يا رجل.

ـ حدث ذلك من زمن بعيد. أما أبي فقُتل في مذبحة مدرسة سانتا ماريا دي إيكيكي.

وضع ألليندي يده على كتفه.

ـ أنا كنت أرغب، من قبل، في أن أصير لاعب كرة سلة. أعني، بسبب طول قامتي. ولكن لا وجود في تشيلي لكرة سلة احترافية.

ألقى النحيل كرة متخيلة في سلة وهمية.

بقينا جميعنا صامتين، إلى أن أخرج أوليفر من جيب بنطاله قبعة من الصوف، واعتمرها.

ـ إلى أين وصلنا إذاً؟

أفلت ديناميت فواقاً، وقال:

ـ عم تكلم؟

ـ بما أنه لديك مساعد، فلأكن خصماً.

ـ أتريد أن تلاكمني؟

ـ الجائزة المعروضة عالية، وأنا بحاجة إلى نقود.

ـ ولماذا تريد المال؟

ـ لأذهب إلى الجنوب. لا وجود هنا إلا لشجرة واحدة. تنمو على بول الكلاب. لا يوجد ماء لسقايتها.

ـ «فلنبحر، فلنبحر، لا يهم إلى أين الذهاب، صليب الجنوب، صليب الجنوب موجود على الدوام حيث تكون، حيث تكون أنت» ـ غنى سيلفا، ثم قال:- يا لك من مسكين يا...

ـ ... أوليفر.

ـ يا لك من مسكين يا أوليفر. إنني محترف لا يُهزم.

ـ مع أنك تشرب كثيراً.

ـ هذا بسبب الوحدة. ليس لدي خصم ولا خطيبة.

ـ ولكن لديك أفكار سياسية. يقال إنك أهديت كل أموالك لحملة الدكتور أللِيندي.

ـ احتفظت بجزء منها للبيرة. تناول واحدة معي.

ـ لا، شكراً.

رفع أوليفر جسد المدرب المساعد، وأجلسه بوقار إلى المائدة.

ـ ومتى ستكون المعركة؟ - ابتسم ديناميت ساخراً.

ـ لنقل خلال أسابيع.

ـ في أي يوم من الشهر؟

ـ اليوم الأول. يروقني مطلع الشهر.

ـ سأقتلك أيها النحيل. إنني أحبك، ولكنني سأحطم فكك.

ـ الشراب سيقضي عليك قبل أن تفعل ذلك أيها المعلم.

ـ يتعين علي أن أضربك الآن بالذات، بسبب عجرفتك.

ـ ليست عجرفة. إنه علم.

ـ اشرح لي ما تعنيه.

ـ سأعمل منذ الآن حتى مطلع الشهر في التدرب على إجاصة الملاكمة، وسأصلّب ساقي في صالة الألعاب. وفي الليل سأراك تسكر وتدخن إلى أن تنقطع أنفاسك. أنت نفسك ستوفر لي نصف هزيمتك.

ـ أنت طائر غريب يا أوليفر. إنك ببغاء طويل اللسان ومتبجح. سأهشم منقارك، وسأنتف ريشك، ريشة فريشة.

ـ هذا ما سنراه أيها البطل.

وللمرة الثانية، وجّه اهتمامه إلى المرشح الرئاسي. كان طويلاً مثل زفرة، أخرج ورقة ذات مربعات. دوّن عليها تاريخ الأول من تموز. رشف كأس مياهه المعدنية، وقام بفرغرة راضية، ثم قدم إليه سيجارة.

ـ راهن عليّ يا دكتور.

XXXI

كل شيء في كالاما يمضي ببطء، ما عدا الفضائح.

سرعان ما انتقل خبر التحدي، من البار الصغير إلى مكاتب تحرير الصحيفة المحلية في أنتوفاغستا، حيث قرر المدير بافلوفيتش أن يتولى بنفسه مسؤولية كتابة تحقيق صحفي يقوض به سمعة ألليندي. حوّل تبرع الملاكم بأمواله للمرشح الاشتراكي إلى علاقة رمزية. فالدكتور مدير أعمال الملاكم ديناميت، هو مرشح الثوريين ذوي الرؤوس الحامية، وهو يظهر متقدماً في استطلاعات الرأي على المرشح المحافظ، الوقور، المتزن، خورخي أليساندري الذي وصفه بالرجل المسؤول، التكنوقراطي، ذي العينين «الزرقاوين»، والشريب العظيم للمياه المعدنية، ماركة سوكسون، وهي من منتجات المنطقة.

«أما ألليندي - أضاف بافلوفيتش - فيحب الويسكي بقدر حب الملاكم ديناميت للبيرة.»

ولم يتوانَ عن إنهاء تقريره الصحفي، بهذه القراءة الثانية المخاتلة التي يحتفي بها اليمين التشيلي بإعجاب: مباراة القرن هي ملحمة سياسية.. ملحمة المتزنين ضد السكيرين.

هناك من جانب، نحن الباخوسيين الدمويين، أي الملاكم سيلفا والمرشح الرئاسي ألليندي اللذان يجمعان بين الكتاب المقدس ولينين.

وفـي الجانـب الآخـر، راقـصو ينـابيع المياه الحـارة الانـسجاميون، مثـل خورخي أليساندري ورروكـي بافلوفـيتش، ملوك الوقـار والاتـزان، فـي أفنائهم تسبح بجعات ذات أعناق سوداء، ملهمة كتبة مدققين، صانعي خطط خمسية للمهندسين المحافظين الذين سيجعلون تشيلي تنمـو دون اضطرابات بمعدل عشرة بالمئة.

ومع مرور الليالي، كان أوليفر، وهو مجرد هيكل عظمي، يصير رمزيـاً أيـضاً، بفـضل الـسطور الـشيطانية الـتي يولّـدها الـصحفي الماليسي، كل صباح، كإسهام شمالي في الحرب الباردة.

كل واحد من الملاكمين التزم بالإستراتيجية المعلنة:

أوليفـر، يقـوم بـالجري يوميـاً مـن كالامـا حتـى تـشوكيكاماتا، والتدرب على إجاصة الملاكمة، وتمرينات تقوية للساقين بعد القيلولة، وحمية قوامها تفاح أرسله إليه عمه من الجنوب، واستعراض قوة يقدمه راؤول ماتاس من راديو مينيريا، في الساعة السادسة مساء. وبعد ذلك، ذهاب إلى البار والجلوس إلى المائدة المنفردة في العمق، من أجل التمتع بارتشاف زجاجته من ماء بانيمافيدا، ورؤية سـكرة الديناميت سيلفا. ثم خلوة روحية في التاسعة ليلاً.

أما «ملاكمنا» (ذلك أنني امتلكته مذ بدأ يتجول مرتـدياً عبـاءة الجد): فالغداء فخذ مشوي مع الخردل والنبيذ الأحمر. وبعد الظهر في سينما الأمير، لمشاهدة عروض أفـلام ليبرتـاد لامـاركي الاسـتعادية. ثـم قـراءة، وإعـادة قـراءة، ألبـوم قـصاصات مـسيرته الظـافرة كملاكـم. وزيـارة إلى البـار مـع المدرب، لتنـاول متـر مكعـب مـن الـبيرة، وتـدخين سيجارة بعد أخرى، وهو ينظر بسخرية إلى أوليفر البعيد.

وفـي سـنتياغو، كنـا نجتمـع نحـن أنـصار الليـنـدي، المؤيـدين لديناميت، حول مذياع سيلفرمان الصغير ذي البطاريات، ونـستمع إلى التقارير الرهيبة عن مباراة القرن القادمة. فكل ما يحدث في تشيلي هـو، علـى الـدوام، أهـم حـدث فـي القـرن: انتخابـات، فـيلم، سيارة،

زلزال. وفي أثناء ذلك، لم يكن ألليندي يتوقف عن زيارة المصانع والمستشفيات، مناجم الفحم في لوتا ومناجم النحاس في سيويل، مزارع الماشية في بونتا أريناس وكروم العنب في المنطقة الوسطى، جامعة كونثيبثيون والمورّو دي أريكا. ووسط هذا الجهد المتواصل، وجد وقتاً ليعقد مناظرة مع بافلوفيتش حيث قال له: «أكثر من كونك صحفي يتناول مياه معدنية، أنت أحد صنائع اليمين وخدمه.»

أحس مدير الصحيفة أنه في السماء السابعة، عندما اختاره المرشح للرئاسة هدفاً لسخرياته. وشجعته هذه الشهرة المفاجئة المكتسبة، على طلب موعد من الليندي في سنتياغو، للتكلم «موضوعياً عن اختلافاتنا الرياضية والسياسية والكحولية». نصح سيبولبيدا الدكتور ألليندي بعدم الوقوع في هذا الفخ. لأنه المرشح الأسد، والماليسي بافلوفيتش سيوقعه في مغالطات.

عندما يغضب الدكتور ألليندي تتورم عدستي نظارته المربعتين، وينتفخ صدر ذكر الحمام الذي له بكبرياء.

ـ أيها الرفيق سيبولبيدا، إننا نقترب من قلب الجدل السياسي نفسه. لقد جرى احتلال أريحا بالالتفاف حول المدينة.

في الليلة السابقة للمناظرة، وصل الصحفي المخادع الماكر من أنتوفاغاستا، مع دفتر ملاحظاته وسيجار ذي رماد متوازن، وجلس قبالة ألليندي واضعاً قبعة اللبد الرمادية فوق الطاولة. أخرج من حقيبته الجلدية الخضراء زجاجة وايت هورس، سكب جرعة لكل واحد من الحاضرين، مستثنياً إياي، إنما رافعاً النخب باسمي: «ابنة عزيزة من بنات البحر الأدرياتيكي، ابنة بلدي التي تسري في عروقها دماء متمردة، وحفيدة صديق عزيز جداً».

ـ يشرفني التعرف إليك يا دكتور ألليندي ـ قال بعد أن تلمظ مفرقعاً بلسانه.

ـ أقول الشيء نفسه.

ـ لقد تعرضتُ لك بقسوة في صحيفتي. ولم أكن أظن أنك ستوافق على استقبالي.

ـ من المفيد دوماً التحدث إلى خصم ذكي.

ـ وخاصة عن العلاقة الماكرة التي أربط بها بين سكرات الديناميت سيلفا بالبيرة، وميلك إلى شرب السكوتش ويسكي.

ـ إنه سوء نية أكثر منه مكراً. أحب أن أتناول كأساً، مرة في اليوم، مثلما تحب أنت تدخين سيجار جيد.

ـ ألن تسكب لنفسك جرعة؟

ـ في هذه الساعة لا... ولن أفعل ذلك أمامك بأي حال. كي لا تعمد، في تقريرك الصحفي غداً، إلى وصف نصف بوصة الخمر التي أسكبها في هذه الكأس، بأنها برميل.

ـ أمامنا أسابيع قبل أن تصير رئيس جمهورية تشيلي.

ـ عليّ أن أكسب الانتخابات أولاً.

ـ اليمين منقسم على نفسه. إنهم يسلمونك البلاد على طبق يا دكتور.

ـ أنت معجب متحمس بأليساندري.

ـ وأنت ستفوز على أليساندري.

ـ كيف تعرف ذلك؟

ـ إنني صحفي جديث. أعمل مع فريق مستطلعي رأي. أضع جداول بيانات، وأُجري حسابات نسب مئوية.

ـ هذا مشوق. أتفعل ذلك على المستوى المحلي؟

ـ بل على المستوى الوطني يا دكتور. لقد حلمت على الدوام بالعمل في صحيفة كبرى. ولكنك ترى... فقد كان قدري أن أعيش في بلد صغير، أطاحوا فيه بعسكري، في أول الأمر، ثم اختاروه بعد ذلك ديمقراطياً كي يعودوا إلى التخلص منه بهذه الانتخابات.

ـ لم تعجبك حكومة الجنرال إيبانيث.

ـ أقرت تثبيت الأسعار والأجور. لكن الأسعار ارتفعت والأجور تجمدت. هذا هو ما يسميه الجنرال «تقاسم التضحيات».

ـ لقد ألغى، على الأقل، قانون الدفاع عن الديمقراطية. فاستطاع نيرودا العودة إلى تشيلي، ودخل الشيوعيون في الشرعية، وصار بإمكانهم أن يصوتوا.

ـ لك.

ـ لي.

ـ سيجبرونك على تعليق البرجوازيين الخنازير على أعمدة النور.

ـ سيد بافلوفيتش، أنا أعتبرك قلماً ذكياً. ولم أكن أتصور أنك تلجأ إلى أساليب الإرهاب الرخيصة هذه.

ـ إنها السنوات التي أمضيتها في أوروبا، يا دكتور. فأنا علّامة في التوحش. من لا يعلق العدو، فإن العدو سيعلقه.

ـ أنت تعلم أنني أريد الاشتراكية عبر الديمقراطية.

ـ نخب هذه اليوتوبيا يا دكتور.

شَرِبَ الويسكي. وكما في حركة راقصة تقريباً، مرّ بقبضته بعد ذلك على شاربه. وهز مكعبات الثلج في الكأس.

ـ هناك، في أنتوفاغاستا، لا يمكن الحصول على الثلج، إلا في النادي الإسباني.

ـ أخشى أنهم لن يسمحوا لي بالدخول إلى هناك، يا سيد بافلوفيتش.

ـ مريعة هي البلاد التي ليست لديها ثقافة الثلج، أليس كذلك يا دكتور؟

ـ في هذه النقطة أتفق معك. خلال حكومتي سأزور قاعدتنا في القطب الجنوبي.

ـ أربعون ألفاً.

ـ المعذرة؟

ـ ستكسب بفارق أربعين ألف صوت.

وهنا أوقف تقريره، ونظر بثبات وغطرسة إلى الدكتور. مسّد شاربه بأحد أصابعه منتظراً ردود الفعل.

ـ ولكنه فرق بائس!

ـ هذا ما تمنحك إياه إحصائياتي. حضرتك لن تصل قط إلى رئاسة هذه البلاد بهامش أصوات يفوق هذا. عليك أن تتحالف لكي تحكم. هذا يعني يا دكتور أنهم سيبللون لك الديناميت. دون أن يكون في هذا أي تلميح إلى ملاكمك البولشيفي. ـ قال ذلك ضاحكاً.

ـ إنه فوز في نهاية المطاف.

ـ إلا إذا تمكن اليمين، العاجز عن التوحد، من تمزيق وحدة اليسار.

ـ هذا مستحيل.

ـ يكفي أن ينتزعوا كشتبان تراب من بستانك، حتى يخرج أليساندري ظافراً وينقذ هذه البلاد.

ـ ماذا، على سبيل المثال؟

ـ أراك فاتناً يا دكتور ألليندي، ولكنني لن أكشف استراتيجيتي لعدو سياسي.

ـ أتتمنى هزيمتي؟

ـ من أعماق روحي، ولسببين اثنين.

ـ فلنر.

ـ أولهما، لأني محافظ. والثاني لأني أتمنى لك حياة مديدة.

ـ لا تخشَ علي ولا على نفسك. فمن أجل التمكن من ممارسة الحكم بمثل هذا الفارق الضئيل، سيتوجب عليّ أن أفاوض المعارضة. لن يكون هناك برجوازيون يعلقون على أعمدة النور، يا معلم بافلوفيتش، لأنه لا يوجد في تشيلي فائض من أي شيء. سأشكل حكومة وحدة وطنية.

ـ وهل ستؤمم النحاس؟

ـ طبعاً.

ـ هذا سيكون كافياً لأن أعتبرك ميتاً.

سكب كأساً أخرى من الوايت هورس، وداعب شعري مبتسماً.

ـ ولكنك تعرف أن النحاس لنا. وتأميمه سيكون إجراء يلهب حماسة التشيليين كلهم، أياً كان ميلهم السياسي.

ـ وماذا ستفعل باليانكيين؟

ـ سأدفع لهم تعويضات، وأرسلهم إلى بلادهم.

ـ *Yankee go home?*

ـ للعبارة وقع الشعارات، ولكنها جيدة، أجل.

ـ من الأفضل ألا تكسب الانتخابات يا دكتور.

ـ وما الذي جاء بك إلى سنتياغو يا سيد بافلوفيتش؟

ـ هذه المحادثة فقط. فمهما يكن ما سيحدث... ما سيحدث لك، أريد أن أكون قد تشرفت بمصافحتك شخصياً. لا تنقصني حاسة الشم لأدرك أين يُطبخ التاريخ.

سكب مرة أخرى بضع قطرات في كلا الكأسين، ورفع الليندي في هذه المرة كأسه.

ـ يؤسفني أن أسيء إلى شرابك الوايت هورس هذا، يا سيد بافلوفيتش. ولكن، بما أنه لا يمكنني عمل أي شيء لتجنب تشهيرك بي، فإنني سأمنح هذا التشهير شيئاً من الواقعية على الأقل.

ـ من الواقعية الاشتراكية. بصحتك أيها المرشح.

صمت الليندي بصعوبة، وشرب رشفة وهو يقطب جبينه:

ـ أنت رجل لطيف، ولكنك في الوقت نفسه طائر شؤم وبيل. لقد استمعتُ إليك بقشعريرة.

ـ من سيكسب المعركة ـ تدخلتُ أنا، بينما هو يطفئ سيجاره في علبة الثقاب.

ـ ليس لهذا أي علاقة بالمقابلة السياسية المقررة اليوم ـ قال الصحفي مبتسماً.

فقلت له:

ـ يا رجل. أنا لا أهتم مقدار فجلة بالاجتماع السياسي. ولكنني استثمرت عباءة جدي كي أروي القصة، ولي الحق بأن أعرف من سيكسب المباراة.

ـ أيهمك هذا أكثر من الأربعين ألف صوت التي ستحسم الانتخابات؟

نظرتُ إلى «العم» سلفادور.

ـ الأصوات تهمني أكثر، أيها السيد.

هرش المرشح رقبته، كما لو أن ثقل العالم كله قد استقر هناك، وقال بصوت أجش:

ـ معك حق يا بافلوفيتش. لقد اختلق اليمين مرشحاً يسارياً لكي يخطف مني فرصة الفوز.

ـ لقد قلتُ لك ذلك. أترى أنه ليس هناك أفضل من امتلاك أعداء طيبين، أيها الشاب؟

ـ ومن هو الرجل؟ ـ قلتُ ذلك وأنا أنهض واقفة، وكلي استعداد لأن أخنقه في تلك الليلة بالذات.

فابتسم ألليندي:

ـ إنه كاهن صغير يساري. كاهن قرية صغيرة تدعى كاتابيلكو. إنني مهزوم سلفاً. فإليه سوف تذهب الأربعون ألف صوت.

نهضتُ عن السجادة، وأحسست بأن أسناني تطغى بضراوة على وجهي.

ـ أربعون ألفاً وواحد يا دكتور ألليندي! فأنا لا أفكر في التصويت لك!

«مهزوم سلفاً»، صرختُ بينما أنا أخرج راكضة باتجاه الحمام، بخدين متأججين، يهزني الحنين إلى عباءة الجد، كي أمسح بها دموعي.

XXXII

مرحباً يا آليا إيمار.

أولاً وقبل كل شيء، لا تفزعي. إنني أرسل إليك هذه الرسالة من مدينة كبيرة كيلا يتمكن أحد من تتبع أثري والقبض على أبي.

من المشوق أن يصير المرء مجرماً دون أن يكون قد ألحق الأذى بأحد. هذا يعني، حتى الآن. ولا أستبعد أن أتحول في لحظة ما إلى الشخص الفظ الذي طالما رغبتُ في أن أكونه. وإن كان لا يكفي من أجل ذلك تدخين السجائر في الثانية عشرة من العمر.

إنني أعيش في قرية في الصحراء، قرية صغيرة جداً، إلى حدّ أنك إذا ما تطلعت في الليل إلى السماء، ترين كل النجوم، وتسمعين ضجة الكون وهو ينزلق في اللامتناهي. ولكن لا تبتهجي سريعاً، لأن السماء هي التسلية الوحيدة لمسافة أميال في محيط المكان. فلا وجود هنا لسينما، ولا أستاذ، ولا مدرسة. الأطفال يتعلمون الابتدائية. ومن أجل الدراسة الثانوية، يركبون الحافلة إلى فيكونيا. أهم ما في هذه القرية، مكتبتها.

البلدية ملأت قاعة في المدرسة بكتب من مختلف أنحاء العالم. هناك كتب قديمة مكتوبة بأسلوب «وحضرتكم تعلم» و «أقسم لكم بكل تأكيد»، ولكنهم يجلبون كذلك الكتب الجديدة الصادرة خلال السنة، أو خلال السنوات الأخيرة، بكلمة أدق.

لقد قرأت هنا مؤخراً «ابن لص» لمانويل روخاس، وعلى الرغم من

كل ما يتعرض له البطل انيثتو من مشقات، فقد كنت راغباً في أن أجتاز معه سلسلة الجبال إلى بوينس آيرس، وأن أشارك في إضراب في بالبارايسو، وأرمي رجال الدرك بالحجارة. لقد كانوا يهاجمون فيما مضى بالخيول والسيوف، وصارت لديهم الآن سيارات قذف الماء، من أجل قمعِ الشعب، والسيارات المغلقة التي يأخذون المعتقلين فيها. ولديهم أيضاً غازات مسيلة للدموع.

العالم جائر وجميل.

إنني أعيش في مكان مقفر، يبعث فيه الحياة نهرٌ يوزع نسغه على الضفاف، وتنتصب كل أنواع الكرمة في الليل، كما لو أنها غابة.أحب هذا الماء الصغير الذي يتقافز بين الصخور، وأنزل أحياناً من الحافلة الريفية، وأرافق المنجميين الذين يبحثون عن الذهب في مجراه.

النهر هو صورة شيء بهيج، يهيجني في عزلة هذه السنوات، حيث لا نأكل في أحيان كثير سوى الخبز واللحم المقدد المالح.

بين الحين والآخر، يأتي إلى هذه الجبال بعض الفتيان من سنتياغو. ينامون في أكياس نوم، ويشربون نبيذاً؛ يعزفون الجيتار، ويتأملون النجوم في الليل. أنا أعرف النجوم عن ظهر قلب، وأرغب في أن أشرحها لهم. ولكنني أتهيب الاقتراب منهم. لقد جلست في بعض المرات قريباً، وجاءت الكلاب وحدها تشمني. أشرب ماء من الزمزمية، وأسمع أغنياتهم من بعيد.

هناك موجة موسيقية تشبه الشعر، ليست بالإنكليزية، ولا تشبه في شيء أهزوجات الكويكا والترنمات الشعبية. يقول الشبان إنها أغنيات لفيوليتا بارّا. وهم يشترون الحليب من المتجر مباشرة. وهناك لا يبيعونه معقماً، وإنما مباشرة من البقر الذي يحلبونه في الزريبة. أحياناً يقدمونه وهو لا يزال دافئاً. في كل شهر تأتي شاحنة محملة بالعلف للحيوانات، وماء شرب لملء الخزانات التي على السطح.

على مسافة قريبة جداً، يوجد البيت الذي ولدت فيه غابرييلا

ميسترال. والناس هنا يعرفون بعض قصائدها، وخاصة بعد أن منحوها النوبل. إنها أشبه بغريبة وقديمة في الكتابة. إنها تستخدم القوافي، وتضبط كل شيء ضبطاً محكماً. ولكنها رهيبة على كل حال. وأنا يروقني قولها هذا:

والآن، يا يسوع، اطبق لي جفني، ضع ثلجاً على فمي، فالساعات كلها صارت فائضة عن الحاجة، والكلمات كلها قيلت.

حسن، أمي توفيت، وقد بقيتُ وقتاً طويلاً غير قادر على قول أي شيء.

نزلت مع التابوت إلى فيكونيا، لأن أبي يخشى أن يقبض عليه التحريون. يقول إن قضايا الشيكات التي بلا رصيد تتأخر عدة سنوات قبل أن تسقط بالتقادم، وتخيفه فكرة أن يحبسوه في السجن. وهو يقضي الوقت في القول إنه إنسان نزيه، ولكنه عاثر الحظ. وإنه لولا مرض أمي، لتحول إلى مُصدِّر نبيذ، مثل مزارعي المنطقة.

يقول إنني سأتحول، مئة بالمئة، إلى لص، إذا ما أمسكوا به، لأنه سيشنق نفسه في إحدى عوارض السجن.

لقد انتحر خطيب غابرييلا ميسترال، ولهذا فإنها تكتب أشعاراً حزينة. الموت يأكلها من ربلتي ساقيها حتى رموشها. وأنا أعاني الشيء نفسه. لا أدري إذا ما كان حزني أشد من غضبي. لقد قال لي سكير القرية: ليس عدلاً أن يكون كل شيء أعوج بهذا الشكل!

انظري أيتها الصغيرة! غابرييلا ميسترال تعيش في نيويورك!

لا شك في أنها ستعاملكِ كملكة إذا ما ذهبت لزيارتها. هذا ما أخبرني به للتو سيد يعرفها يدعى سينيوريت. لقد جاء في إجازة إلى تشيلي، ويقول إنه ذهب ليشق طريقه، ويحقق النجاح في هوليود. إنه يضع نظارات لبعد البصر، وقد بقي يتأمل تفاصيل صخور الجبل مطولاً. وقال لي: كل جبل أسود يلتف هنا، إلى أن يصل إلى الجبل

الآخر. فقلت له: بالطبع، فالمشهد هنا كما لو أنه يرقص.

أراني السيد سينيوريت أيضاً، قصاصة من ***نيويورك تايمز***، فيها صورة له، كتبوا تحتها أنه يشبه رودولفو فالينتينو في شبابه. وأبي يقول إن المدعو فالينتينو لعب دور «**شيخ**» عربي، وإن النساء كان يغمى عليهن في دور السينما، انبهاراً بوسامته. أما أنا، فليس لدي أي فكرة عن ذلك كله. لا بد أنه كان في عصر الكوكوا.

سألته إن كان قد سمع، في استوديوهات السينما، بشخص يدعى راي كوبيتا، فقال لي إن الاسم ليس غريباً على مسمعه. أعارني المجلة بينما هو يلتقط صوراً ليأخذها لدونيا غابرييلا، وقرأت أنا بقية المقال. إنني مثل الرصاص باللغة الإنكليزية. يقول المقال إن السيد سينيوريت «مختلف»، ليس فيه أي شبه بمارلون براندو، أو إلفيس برسلي، أو بأولئك الذين يمضغون لبان الـ *chewing gum* ويبعثون الجنون ببنات الخمس عشرة سنة.

وحسب هذه الجريدة، فأنا أُعتبر بنتاً من أولئك البنات، لأنني مفتون ببراندو، وخاصة في فيلم **المتوحش**، وهو على دراجة نارية كبيرة، مثل قاطرة. وقد أعطاني السيد سينيوريت عنوانه الذي أقدمه لك، لعله ينفعك إذا ما ذهبتِ إلى الولايات المتحدة، وأردتِ شق طريقك في السينما:

السيد سينيوريت
c/o ديانا باريمور
هدسن ستريت 14
غرينيش فيللج
نيويورك، ن.ي.

آمل أن أتمكن، عندما أكتب إليك في المرة القادمة، من أن أرسل إليك عنواني. إنني بحاجة ماسة إلى الحديث معك، لأنني حائر.

فأنت لديك دائماً، طريقة مثيرة للتملص من المآزق، وأنا آسف لأنني لم أكن مثيراً للاهتمام، ولا ثابت العزم، بما يكفي لأن تهتمي بي أكثر.

لقد حدّثتُ السيد سينيوريت عنك، وقال لي إنه سعيد لأننا لم نذهب إلى نيويورك، لأننا لو ذهبنا، لكنا نبيع الآن البيتزا في الشارع الرابع والعشرين.

وقال لي إن «مفتاح السر موجود هنا». وأشار بسبابته إلى جبال وادي إيلكي الجرداء. وقد شعرت برغبة في البكاء، مثلما بكى جيمس دين وهو يعانق أباه، في فيلم **شرق عدن**، لأنني لا أعرف بأي غراء عليّ أن ألصق مسألة بأخرى.

شاعرة **سونيتات الموت**، تعيش في نيويورك، وهي تموت لهفة لأن تكون هنا، وأنا أعيش هنا وأموت لهفة لأن أكون في نيويورك.

أودعك على طريقة برسلي: *I want you, I need You, I love you with all my heart*.

بيدرو بابلو بالاثيوس، مجهول محل الإقامة.

XXXIII

عندما دفعوا لجوفينا أجرها الأول، في مشغل أوتو للقبعات، بشارع ماتيه، أخذتني إلى «باهاموندیس» لنتناول «**سندوتش كامل**». وهو نوع من السندوتش الفيينيّ، في خبز متطاول، مترع ببستان من الخس، والبندورة، والفلفل، والأفوكاتو، وكريما خاصة من نوع المايونيز «خالية من الملونات».

كان الموظفون يتناولون، في غدائهم، واحداً من هذه

الطوربيدات، بعضات يستعملون فيها حتى أضراس العقل. فيلتهمون السندوتش في خمس لقم كاملة؛ وإن كان قسم كبير من زينتها الوافرة، يسقط على ياقات بدلاتهم.

مرة كل أسبوع، كان سيبولبيدا يُحضر إلى البيت كيساً بلاستيكياً، فيه ربطة عنق أو قميص مختوم ببقعة من سندوتش فيرناندث كونتشا الكامل. ومع أنني أحب هذا النوع من السندوتش، إلا أن فمي لا يتسع لقضمه. إنني ألحس أولاً زينته من الصلصات والخضار، وعندما أقلصها بما يكفي ليطل منها الهوتدوغ، أغرس أسناني الصغيرة في المشكلة.

وأخص بالذكر سندوتش هذا اليوم، بين كل الظهيرات الربيعية النارية التي سبقت الانتخابات الرئاسية؛ ليس بسبب الحماس للأكل، بقدر ما هو بسبب توافق حدثين مختلفي الأهمية، كان لهما أثرهما في مصيري، كما لو أن الحياة كلها تتوجه إلى تأكيد مشيئتي، في أن يكون اسمي آليا إيمار كوبيتا، بجوهر لا يمكن مقاومته.

الحدس بأن شيئاً سيحدث، خلال الساعات القادمة، صار أشد إلحاحاً في محل الأحذية الذي أخذتني إليه جوفانا لتشتري لي حذاء جويس موديل *كينغ كول* من جلد غزال ذي لون رملي. الحقيقة أنني كنت أفضل موديل *كَت آب* من جلد أحمر، بسبب اللسان *السيوس* الذي في أعلاه. لكن مستر كول، كان قد استعمر أحلامي ورقصي في أمسيات السبت بأغنيتي *«تو يَنغ»* و*«آبلوسوم فل»*.

لقد كان هذا هو موضوع الحوار الأبدي مع ولية أمري التي تعلن أنها اشتراكية، ولكنها تفضل الموت على أن تتزوج زنجياً. أما أنا بالمقابل، فمنذ قرأت كوخ العم توم، وقصائد لانغستون هيوز ونيكولاس غيين التي أهداها إليّ سيبولبيدا، وذهابي إلى كاوبوليكان مع الجد لحضور مباراة لاعبي هارلم غلوب تروتيرز الاستعراضية، (حيث منحوا رولاندو الطويل، صديق الجد تيبي، لقب

«أفضل مسيرة لاعب كرة سلة»، ومنذ أغنية كالو لدالفا دي أوليفيرا التي رقصتُها مع طالب أسود في مهرجان «الليل التروبيكالي» الذي نظمته سفارة البرازيل في الساحة التي تحمل اسم البلاد نفسها، كنت من مؤيدي الجاز قلباً وقالباً، ومناصرة للزيجات المختلطة بين البيض والزنوج، وأعتبر نفسي مواطنة شرف لحي هارلم.

بينما كنت أجرب الحذاء، تاركة عامل البيع البائس، يداعب ربلتي ساقي، فكرتُ بقوة في آليا إيمار، أو ربما كانت الصيغة الأدق هي القول إن جدتي آليا إيمار فكرتني بي.

كانت «ماما» تحاول أن تنظف، باللعاب، ركبتي من بعض الخدوش، ومن آثار الزيت التي يخلفها سوء استخدام الإنديانا، عندما استوعبتُ بصفاء مفاجئ، ذلك الأمر الذي كان، قبل سنوات، مجرد تمرد ونزوة.

لقد كان اختياري اسماً لنفسي، طريقة في التعبير عن كوني أحد. فالتسمية هي إهداء هوية محددة إلى شيء أو شخص. من المحتمل أنني لم أكن من آل كوبيتا، لأن أي ماليسي يعرف أن الجد، في جزيرة جيما النائية على شواطيء ماليسيا، لم يمس، بأكثر من نظرِهِ، خطيبة «الجميع»، مثلما كانوا يسمونها في أشد لياليهم صخباً.

لم يكن فرانك هو الزوج الشرعي لآليا إيمار. فوفق القصص المكتوبة والمتداولة في تشيلي، بلغة هيروغليفية لا أفهم منها سوى اسم الصحفي بافلوفيش، فإن ذلك الجد المفترض، قد طيّر دماغه برصاصة، وهو في زورق قبالة جزيرة جيما، دون أن يكون قد أنجز فعل الزفاف.

وهكذا، كانت ولادة أمي حصيلة جولة جماعية، أظهر فيها الجنود الغزاة أبرز دليل على وحشيتهم: الاغتصاب الجماعي. وكان مفهوماً عدم تطرق أحد إلى موضوع كنيتي طوال عقود.

ويبقى هناك أبي. ولكن هذا السيد، حسب رواية شخص ألماني يقيم في أنتوفاغاستا، كان قد انطلق بحقد واندفاع، ضمن جماعة من الأنصار، لمواجهة الغزو النازي، مخلّفاً نطفة مخصبة في بطن أمي. وحسب تأملات نظرية، فإن ذلك البطل المجهول، قضى نحبه في اندفاعه الثلاثي: الثأر لامتهان حماته، وإنقاذ الإنسانية من البربرية النازية، ونسيان نفسه كأب لمخلوقة قيد التشكل.

وقد ارتأت وجهة نظر الماليسيين البرغماتية، عدم إعطائي كنية أبي الذي يفترض أن يكون ميتاً، وأن يطرزوا على مريلتي اسم **مجدلينا** فقط، وهي لعبة تفسح المجال واسعاً لجعل استيبان كوبيتا يصدق حكاية أنني حفيدته.

وقد سمحت مع ذلك لنفسي بأن أثقل كاهلي بتأنيب غامض لأبي، أكان ذلك المدعي بحاجة، إلى ذلك الحد، لأن يكون بطلاً، بينما أنا ما أزال أتشكل في رحم أمي؟

وعندما تمت الولادة، هل كانت أمي مجنونة حباً بمنيه إلى حدّ الصعود إلى جبال الأنصار في إثره، دون أن تبدل أقمطتي؟

في طريق العودة إلى البيت، سمحت لولية أمري بأن تحيط كتفي بذراعها؛ وتداعب، بحب، الشعر الذي يغطي أذني. لم يكن حذاء «الكنغ كول» ليناً مثل صوت معبودي، ولكنه لا يضغط على قدمي مثل ذلك الحذاء اللعين الذي كان عليّ أن أرضى به، لأنه «لا توجد لدينا نقود لشراء آخر جديد».

حين نزلنا من الحافلة، رأينا حشداً من الناس عند مدخل بيتنا، فغذت ماما الخطى صارخة إنه قد يكون حريق.

لم تكن هناك نار، ولكنها لم تخطئ كثيراً أيضاً.

إلى جانب المدخل، كانت هناك سيارة زرقاء فخمة، ذات بريق متغطرس، تبدو كأنها هاربة للتو من شاشة السينما. جديدة لا تشوبها شائبة، ومكشوفة بصورة لا تقاوم، وكرومية بصورة حانقة. ومن

مكبرات صوت مذياعها، تنتشر في الكون «لا تجادلني أكثر» يغنيها لوتشو غاتيكا وفرقة المهاجرين.

لم أر منذ ذلك الحين، مثل ذلك الكرنفال من الفكوك السفلية المتهدلة: فك بارغاس البركان، وفك مكسيمو خيريا، وفكي الأخوين سيلفرمان، الشيطانيين، بفعل حب الشباب، وفك باكو غريغوريو، وفك جينو بائع المثلجات، وفك غراب كوة التذاكر في سينما القصر، وأخيراً، فك ريتشارد الذي اعترف بازدراء، عندما رآني، بأنه اقترب من السيارة «لأسباب مهنية محضة». كان يجلس وراء المقود رجل ضخم، يضع قبعة سائق رسمية، ويرتدي بدلة رمادية وربطة عنق، يمضغ اللبان بتخلع غنفستر. نظر إلي وأنا أنظر إليه، أخرج اللبان من فمه، وعجنه بين إصبعين، ثم قال، بعد أن ابتلع اللعاب:

- الآنسة آليا إيمار كوبيتا؟

لم أرغب في تلك اللحظة إلا أن تكون لدي نظارة قاتمة. كان كروم السيارة يضاعف، خمس مرات، وهج شمس الثانية بعد الظهر. وكان الجيران لا يزالون يتجمعون، جاعلين من أيديهم واقيات فوق حواجبهم. الجميع وجهوا نظراتهم الآن نحوي. ولم أفلح إلا في حك رأسي، وهو ما فسره السائق على أنه تأكيد لسؤاله.

- رب عملي ينتظرك في بيتك.

دخلنا عبر الممر، وعلى الدرجة المؤدية إلى الفناء، كان سيبولبيدا يدخن سجائره بمبسم. وكانت قد تشكلت حول قدميه بركة صغيرة من أعقاب السجائر. حين رآنا، أومأ بذقنه إلى الداخل، وعاد يستنشق الدخان، متحللاً من مسؤولية ما يمكن أن يحدث.

نهض السيد الذي كان بانتظارنا، عن كرسينا المغطى بقماش كريتون مطبّع بأزهار؛ وبدا لي أنني رأيته يلامس المصباح المتدلي والمجرد حتى من كمّة تخفيه. لو كان الوقت ليلاً، لكنت اختنقت حياء لرؤية هذا الرجل الشائب، ذي الأنف الأرستقراطي، والجبهة

البرونزية، والعينين بلون القهوة اللتين ترمشان بفضول طفولي، إلى جانب المصباح الملوث بأجنحة حشرات محروقة.

كان يرتدي سترة زرقاء، لها أزرار مفضضة فوق بطنه. وتحت القميص الوردي الشاحب، ينسدل منديل من قماش رمادي فاخر. لم تكن هناك شعرة واحدة في وجهه الحليق بعناد، وكانت ثمة رائحة عطر أجنبي تزيد قليلاً في إبراز الهالة التي تحيط به. أحنى هيكله المشوق بحركة طقوسية، تكاد تكون يابانية. وقدم لي، وهو ينهض، يده الممدودة.

- الآنسة آليا إيمار كوبيتا؟

ولخوفي من أن أكون المشتبه بها، في جريمة حبكة بوليسية، نظرت أولاً إلى ماما، وحين لمحت وميضَ حذرٍ في حدقتيها، قلت الشيء الوحيد الصحيح الذي يمكنني أن أصرح به.

- هذا هو اسمي.

- وهل السيدة هي والدتك؟

- إنها ولية أمري.

وعاد للانحناء، ليلمس بشاربه الشائب والأجعد، الإصبع الذي مدّته إليه جوفانا.

وعلى الفور، فتح محفظة، وأخرج منها أوراقاً وضعها على المنضدة، ثم ابتعد عنها قليلاً وهو يحك رقبته.

- هذه هي سبب زيارتي - قال ذلك وهو يشير إلى الأوراق، وأضاف:
ـ وإذا ما أزعجت الآنسة كوبيتا نفسها بقراءتها بصوت عالٍ، فسيكون بإمكاننا بعد ذلك التصرف، لتنفيذ ما جئت من أجله إلى تشيلي.

تناولتُ الورقة بالرهبة الطقوسية التي تفرضها أناقة ذلك العجوز. كان يبدو قاضياً من أولئك الذين يخرجون، في الأفلام، بعباءة

رومانية، ومطرقة خشبية، ويحكمون على أي شخص بالكرسي الكهربائي.

كان نصاً مكتوباً بالإسبانية، ترجمته مارتا روسشك، بعنوان **«الليلة المزدوجة»**.

ومع تقدمي في القراءة، كان شحوب جوفانا يتفاقم، وصوتي يزداد بلادةً، خوفاً من أن تكتسب كل قصص الحرب، والهرب، والجرائم التي تتوالى، في نتف، في اجتماعات الماليسيين، حتمية قدرية، بحضور هذا الرجل المتميز.

كان التحقيق الصحفي يروي واقعة جرت في جزيرة جيما، في ظلمات الليل، بينما كان يُقدم هناك عرض سينمائي، كجزء من الاحتفال المبرمج، بمناسبة زفاف «جدتي» آليا إيمار. وكانت الصفحات تصف الكمين الذي نصبته جماعة من المتطوعين الماليسيين، على الشاطئ، لفرقة من الشباب النمساويين، وتنتهي بقصة كيف أن «شقيق جدي» رينو كوبيتا قتل آخر الغزاة ذبحاً.

المقال يحمل توقيع المراسل الصحفي الذي أعرفه، روكي بافلوفيتش، ومكتوب بنبرة مفخمة وملتهبة، مختلفة تماماً عن النبرة الواقعية التي يفرضونها علينا، في موضوعات الإنشاء، في المدرسة الإنكليزية.

ومع ذلك، كان بالإمكان، وسط كل تلك الخميرة، تمييز مقدار من العجينة المتماسكة: رينو كوبيتا، شقيق جدي الذي نادراً ما كان الجد تيبي يذكره أمامي، لأنه على حد قول الجد: «ابن عاهرة، وإن كنا ابني الأم القديسة نفسها»، أقدم على اقتراف جريمة مريعة، بغض النظر عن دوافعه الوطنية.

كان سيبولبيدا قد عرض علينا، في الشهر الأخير، ملفات عمليات الصيد الاستعراضية التي يقوم بها جهاز المخابرات الإسرائيلي، في الأرجنتين والبرازيل وباراغواي، لاصطياد النازيين صانعي

الهولوكست. وكانت صحافة تلك السنة نفسها، تنقل يومياً أخبار محاكمة النازي راوف، المعتقل في تشيلي.

وتوصلتُ، وقد أصابني الشحوب، إلى أن هذا السيد لا يمكن إلا أن يكون مفوضاً نمساوياً، مكلفاً بالقبض على القتلة بالسكاكين، من أمثال رينو كوبيتا، حسب الوصف السخي الذي قدمه عنه بافلوفيش في مقاله.

أنهيت القراءة، ووضعت المقال على المنضدة بلامبالاة غير موفقة. وبحركتي هذه، قلبتُ محتويات منفضة السجائر المتخمة بأعقاب سجائر سيبولبيدا، وأسقطتُ حبة خوخ ناضجة، تفزرت على الأرض.

قلتُ:

- رينو كوبيتا يعيش في الولايات المتحدة، وأجهل عنوانه. فإذا ما رغبت في اعتقاله، أنصحك بالبحث عنه هناك، لأنه لا يعيش في تلك البلاد سوى أربعمئة مليون نسمة فقط.

- شبك العجوز كل أصابعه على مستوى ياقة سترته، وقبّل إصبعه السبابة بصوت صاخب ليخفي ابتسامة خبيثة. ثم قال بعذوبة:

- آه، أجل. لدي اتصالات ممتازة مع أناس في الولايات المتحدة. وقد طلبت البحث عنه هناك طوال سنوات، ولكن لم يُعثر له على أثر، حياً أو ميتاً. ومع ذلك، فقد علمت من هذا المقال الصحفي لغوميز ستارك - وأظهر طرف الصحيفة البارز في جيب سترته الداخلية - بأن السيد رينو وجدك استيبان كوبيتا، قد رحلا في سفينة آتية إلى تشلي.

- رينو كوبيتا قفز من السفينة، قبالة نيويورك، وغرق - قالت جوفانا بحزم، وأضافت: لا تواصل البحث عنه. لقد أكلته الأسماك.

- وجدي استيبان مات قبل سنوات، وكان **يكره** أخاه رينو. والسبب بالضبط هو ما تقول هذه الجريدة إنه فعله.

نظر الرجل إلى ساعة معصمه، متيحاً للساعة المثقلة بالقيراطات الذهبية أن تظهر. لقد كان فيها من الذهب والياقوت، ما يكفي

لإغواء أميرة.

- سيدتي العزيزتين. إنني معتاد، في مثل هذه الساعة، على تناول فنجان من الشاي، دون سكر. ونظراً للطريق الطويل الذي قطعته إلى هنا، ولكرم الضيافة التشيلية التقليدية، هلا تتلطفان بتقديم فنجان من الشاي لي، قبل أن أخبركما بسبب زيارتي؟

مضت جوفانا إلى المطبخ، وقبل أن تسحب الستارة السميكة التي تفصل المطبخ عن غرفة المعيشة، نظرت إليّ، فارضة علي أقصى التكتم والحذر. داعب العجوز حاجبه وعاد للابتسام. أما أنا فبقيت محتفظة بجديتي. فالأشرار أيضاً يبدون فاتنين أحياناً.

- لقد علمتُ بموت جدك تيبي في الوقت المناسب. ولكن أعمالي اللعينة لم تسمح لي بالمجيء.

- وكيف تعرف أنه يلقب تيبي؟

أعاد نفض بنطاله، وأبدى تكشيرة يمكن لها أن تعني أشياء كثيرة.

- تيبي. إنهما مقطعان صوتيان. وهما بالنسبة إلي مثل آمين.

بسط المقال على المنضدة، ووضع إصبعه على بقعة يبدو أنه أشار إليها مرات لا حصر لها. ثم أخرج من جيب سترته العلوي، علبة من الجلد، وبادر إلى وضع عدستين مستديرتين ومحاطتين بإطار من الفضة، على طرف أنفه. وقرأ دون تفخيم كبير:

«... وشاهراً قلبه التحرري، وخنجراً قاطع الحد وحسب، دخل إلى حجرة دفة القيادة. وفي عتمتها، وبجبن من لم يسقط قتيلاً إلى جانب قواته على رمال الشاطئ، كان يقبع جندي، يختلج ضحية دموع مخزية. وما إن رأى ظهور رينو كوبيتا، حتى ارتمى ذلك الشخص الدنيء على قدميه طالباً الرحمة، متوسلاً إليه باسم الرب وأمه الأرملة. وبدل أن تلين دموعُ الرجل تلك قلبَ ابن جوزيه كوبيتا، ملأته بالخجل من عار الآخر، فقطع دون تردد عنق النمساوي، باندفاع أوشك معه

الرأس أن ينفصل عن الجسد».

قطع القراءة، طوى نظارته بتمهل، ووضعها في علبتها، وضغط مشبك إغلاق العلبة، وخبأها في جيب سترته العلوي.

ـ إذا ما كانت ترجمة هذا التحقيق الصحفي إلى القشتالية صحيحة، فسوف أكون أنا الميت المذكور.

ملأت بطاقته التعريفية راحة يدي المرتجفة. وقرأتُ الاسم بصوت عالٍ:

«وولف ميخائيل بريتسليك.»

ـ يخيل إلي أنك في سنِكِ الصغيرة هذه...

ـ ... أربعة عشر عاماً...

ـ ... لن تستطيعي تصور أبعاد هذه الفقرة في حياة جدك وشقيق جدك.

ـ في الحقيقة، لا يا سيد بريتسليك.

ـ جدك إستيبان كان مع أخيه رينو عندما أراد قتلي.

ـ لم يكن جدي قادراً على قتل ذبابة!

ـ صحيح يا آنسة كوبيتا. ولهذا فإن من «بكى مختلجاً بالدموع» كان جدك، وهو يتوسل إلى رينو ألا يذبحني. وفي نوبة نفاد صبر، قام رينو بإلقاء تيبي من فوق حاجز السفينة، وجاء شاهراً خنجره إلي. ولكنه بدلاً من أن «يقطع عنقي باندفاع»، قطع بضربة من خنجره حبل المرساة، وترك سفينتي تمضي على غير هدى، دون أن يمس شعرة مني بأذى. ثم قفز إلى البحر، وسبح نحو الشاطئ. لقد كان رياضياً عظيماً. وأشك في هذه الرواية التي تقول إنه مات غرقاً في الأطلسي.

جاءت جوفانا بفنجان الشاي الساخن. وضعته أمام السيد بريتسليك، وجلست على حافة كرسي وهي ترمقني بعناد، كما لو أنها تستطيع بتلك النظرة الزخمة، أن تكتشف ما جرى بيني وبين الغريب في غيابها.

وكـان هـو نفسه من أطلعها علـى كـل شـيء، بعبـارات هامسة متواضعة، أنهاها بالقول لها:

ـ وكما ترين، فإنني مدين بحياتي لجد هذه الآنسة.

ـ وللعم راي.

ـ بالفعل. إنني مدين بحياتي لكليهما. وربما تحمَّل كلاهما بسببي نكبـة دمـرت حياتيهمـا. فقـد كـذب رينـو كوبيتـا علـى الـصحفـي بافلوفيش، كي ينقذ شرف أسرته. ولكنه خسر بسبب ذلك، بكل تأكيد، أخوة أخيه الذي أقسم له إنه لن يقتلني.

الصمت الذي خيم علينا كان صمت كوكب آخر. مـن الـصعب تصديق أن ذلك البيت هو بيتي، وأننا سمعنا حقاً تلك الكلمات، ولم تكن هناك قطرة ريح واحدة تهوّي ذلك الصمت غير النهائي. كان من عادة جوفانا، عندما ترتبك، أن تبادر إلى حك ركبتيها. وكان هذا ما فعلته. رشف الضيف قليلاً من الشاي، ثم أضاف إليه بضع ملاعق من السكر.

ـ كيف وجدت الشاي التشيلي يا سيدي؟

بحث العجوز وهو يرمش مطولاً، عن نعت مناسب، ثم نطق به راضياً في النهاية:

ـ أوريجينال.

ـ يخيل إليّ أنك تشرب في بلادك الشاي الإنكليزي.

ـ بالفعل.

ـ شاينا هذا ليس بجودة الشاي الإنكليزي.

ـ ليس بجودته، صحيح ـ قال السيد بريتسليك وعيناه مغرورقتان بالدموع.

أحسست أنا نفسي، بالتيار الجارف الذي بدأ يستتب بين روح هذا الرجل وروحي. وجه نظرته نحو عيني، من خلال البخار السريع المتصاعد من الفنجان، ورأيت زعنفتي أنفه تكبحان بكاءه.

ـ إنهم يبيعون شاياً إنكليزياً جيداً هنا، في محلات غات

وتشافيث ـ ألحت جوفانا، وتابعت: ـ لو كنت أعرف أنك ستأتي...

واصل صوت العجوز الحوار، غير أن الكلمات اختنقت في حلقه.

ـ لا تقلقي... فالسكر... يحسّنه... بصورة... معتبرة...

انخرط السيد بريتسليك في البكاء بكل ما في روحه من قوة. وكانت يداه المرتعشتان تحاولان أن تقولا أن لا، لم يحدث أي شيء، وأننا لا نرى ما نراه. قفزتُ إلى حضنه، وقبلتُ خده مبللة نفسي بدموعه، وغرست أصابعي في شعره الشائب، وضغطته إلى قلبي قائلة له: كفى بكاء يا سيد بريتسليك. وعندما أردت مسح دموعه بدعك شعري بوجنتيه، انتبهت إلى أنني لم أعد أستطيع التمييز بين بكائه وبكائي، وظللنا متعانقين يقبّل كل منا جبهة الآخر وخديه دون توقف.

مرت بعض الدقائق قبل أن يستعيد جسدانا السكينة. خففت شيئاً فشيئاً ضغطي على ظهره، فاستغل هو هذه الفسحة، ليمسح وجنتيه بظاهر كفه. وعندئذ استطعت النظر باتجاه جوفانا، فرأيتها مرعوبة، تحك ركبتيها بحركة آلية.

ـ عذراً، عذراً ـ قال الرجل، وهو الآن بكامل صوته ـ لم يخرج أي شيء مثلما كنت أفكر. لقد كنت أريد أن أحمل إلى هذا البيت قليلاً من السعادة، وبدلاً من أن أنعش قلب هذه الآنسة ـ هذه هي الكلمة التي استوقفتني، تحديداً ـ أحزنتها بتوعكاتي كعجوز عاطفي. ـ شرب فنجانه برشفات متعجلة، ونظف بأحد أصابعه مخاط أنفه، ثم قال: ـ الشاي رائع يا سيدتي. إنه شراب أصيل جداً ـ أجهزَ على محتويات الفنجان، بشربها حتى الثمالة، وفرقع لسانه بحركة تمثيلية، بل إنه لحس شفتيه أيضاً، بلسانه الهري.

اقتادنا حتى الباب، وانحنى قليلاً جداً لتحية سيبولبيدا. وأمام السيارة الزرقاء، أخرج من محفظته بعض الوثائق الملفوفة بورق بردي، وأخرج من أحد جيوبه مجموعة مفاتيح، أصدرت رنيناً مرحاً حين رفعها عالياً. أطفأ السائق المذياع، ونزل من السيارة، وظل واقفاً إلى جانب

السيد بريتسليك، بهيئة شبه عسكرية. قدم لي العجوز المفاتيح والأوراق، وقال دون تفخيم، وربما بحنان:

- إنها هدية لك، *gospodina*.

وقبل أن أتمكن من الإتيان بأي ردّ فعل، استدار هو والسائق، ومضيا ماشيين باتجاه الناصية. وعندما رأيا الحافلة العامة التي تذهب إلى مركز المدينة، ركضا وتمكنا من اللحاق بها والصعود إليها وهي متوقفة عند الإشارة المرورية.

XXXIV

احتفاظ الأسرة بالسيارة سيكون، حسب رأي سيبولبيدا، تظاهراً، وصولية، غروراً، زهواً، تفاخراً هذيانياً، غير لائق، مهيناً للجيران، ومشيناً للرفاق في الحزب، وغير عقلاني لطفلة في الرابعة عشرة، ومذلاً للصبيان الذين يلعبون لعبة العصي والضفادع في الساحة، ومثيراً لشكوك مكتب الضرائب، ومغرياً للصوص.

وكان اقتراحه هو بيع السيارة دون مزيد من الجدال، وتخصيص مبلغ من المال لإصلاح البيت، وتقديم مبلغ لصندوق الحزب، وإتقان تعلمي اللغة الإنكليزية. وإذا ما زادت بقية منه، يمكنني شراء تذكرة سفر إلى نيويورك بالسفينة عندما أنهي دراستي الثانوية، هذا يعني بعد حوالي قرنين من الزمان.

في هذا الوقت كان قد تبين بوضوح أن أستاذي قد استقر في فراش ولية أمري، وأن مساهمته الاقتصادية، في نفقات البيت، لا تكفي إلا لتحسين نوعية المعكرونة الكريهة، أو رفع معدل الدخان الذي ينفثه هو وجوفانا، متجاهلين بسعادة سرطان الرئة الذي وضع حداً لحياة جدي.

وقد تمثل انتقامي من هذا النظام في عدة استراتيجيات. الأولى

والأساسية هي أن الشفروليه دي لوكس، غير قابلة للتبديل، وغير قابلة للبيع، وغير قابلة للمس بها. هذه السيارة هي مذبح مرفوع لذكرى جدي، رمز الأخوة العالمية بين البشر، وانتصار العاطفة على مبدأ الطاعة البغيض الذي يشهره العسكريون القساة للتستر على عنفهم وساديتهم.

في اليوم الذي سأبلغ فيه الثامنة عشرة من عمري بالضبط، سأركب هذه السيارة، وسأقودها حتى الجامعة بمهابة مراهقة من مراهقات ماليبو بيتش. وربما سأسوق بنفسي هذه الجوهرة عبر أميركا اللاتينية كلها، إلى أن أتوقف في منهاتن. وبهذا سأكون قد أحسنتُ إلى ذكرى جدي، وعمي، والسيد بريتسليك.

أما الآن، فبدأتُ تجارةً، تشغل بعض ساعات وقتي، بعد انتهاء الدروس؛ وأستغل يومي السبت والأحد *full time job*. كنا ثلاثة شركاء في المشروع: ريتشارد، عامل محطة البنزين الذي أمّن مكاناً في المرآب، من أجل توقف الجوهرة؛ وتيموتيو سيمون بيرناستين، مصور الكاميرا ــ الصندوق في الساحة؛ وآليا إيمار كوبيتا التي تبيع التذاكر للعشاق، والمسنين، والزائرين القادمين من الريف، وللتلاميذ، والصبيان الراغبين في إبهار أصدقائهم، ولموظفي المراتب الدنيا الراغبين في إهانة رؤسائهم.

بعد أن يدفع الزبائن لي رسم المرور، يأخذون الإيصال، ويصعدون إلى الشفروليه المتوقفة، فيلتقط لهم سيمون صوراً في اللحظة التي يبدون فيها كأنهم يرقصون من السعادة. وقد كان محصول تلك الصور دسماً إلى حد أتاح لي شراء المجموعات الكاملة لأغنيات سام كوك، وفرانكي أفالون، وبرندا لي، وفريق الآسّات الأربعة، وفريق ذي فور ليدس، وفرانكي لاين، وتوني بينيت.

اكتشف سيبولبيدا أن ممارسة هذا العمل هو لصوصية رأسمالية. واتهمني بامتلاك ميول غريزية خبيثة لتحصيل فائض قيمة من أشياء

مخصصة لاستخدامات أخرى؛ وإقامة تحالفات فاسدة مع شركاء مستغلين؛ وتشجيع أحلام ربح شاذة بين شبيبة الحي التي عليها أن تتحسس، بدلاً من ذلك، الصراعات الاجتماعية الدائرة في تشيلي.

في الأسبوع الثاني من النجاح التجاري، تضاعفت الأرباح خمسة أضعاف عندما عرض ريتشارد (وهو يرتدي مثل ملابس سائق السيد بريتسليك)، القيام بجولات حول الساحة، على الفتيان الخارجين من عروض بعد الظهر السينمائية، وعلى العشاق الصغار الذين يقضون وقت الانتظار، في تناول أقماع المثلجات، ريثما يدخلون إلى العرض المسائي. وبلغ العمل ذروته، عندما صار جهاز الحاكي، ماركة RCA، بإبرته الفاخرة، قادراً على التقاط بث برنامج «أنجح أغنيات الأسبوع»، بفضل سلك استطاع بائع البنزين أن يصله ببطارية السيارة.

وجود أستاذ الرياضيات في البيت، كان يوفر لي بعض المنافع، إذ لم يكن بإمكاني تجنب أن يصحح لي بصرامة، التمارين التي يكلفنا بها هو نفسه. ولكنني كنت أتوخى نيل الدرجة القصوى بالإنكليزية، مؤكدة له بذلك أنه، عندما سيقوم ببناء فردوسه الاشتراكي في تشيلي، سأكون قد بدأت صعودي الظافر كمغنية روك أند رول في نيويورك. فيكون هو، هنا، مع سلفادور ألليندي، وأنا هناك، مع ألفس بريسلي.

الطريقة الثالثة التي كنت أُفقد بها سيبولبيدا توازنه، هي جعله يعتقد أنني أعيش حياة مزدوجة مع الرجال الذين يحيطون بي. رأيته معذباً بالإشاعة المتداولة، في الاستراحات بين الدروس، بأنني اضطجع في الليل على مقعد الشفروليه الخلفي، وأسمح لفتيان الجامعة، مقابل بعض الأوراق النقدية، أن يلحسوا عضوي الجنسي.

وعندما كانت جوفانا تأتي لتتناول حساء شعر الملاك الذي لا يتبدل، مع مرق كثيف، كنت أتعمد الظهور أمامها بمظهر المشعثة، كما لو أنني مثقلة ومنهوكة من الفجور. ولكن الجنس، في

الحقيقة، كان بالنسبة لي قارة نائية. يمكن لي أن أحلم، أو أتخيل، أي قدر من الممارسة، غير أن الانطلاق في هذه المآثر لم تكن في المدى المنظور بعد.

انتشر الخبر من المدرسة إلى الساحة، ومن الساحة إلى محطة البنزين. كان رتشارد يعطيني دروس تدريب على القيادة في سيارة فورد عتيقة جداً، لأنه لم يكن لدينا نقود لدفع تأمين الشفروليه اللامعة، إذا ما اصطدمت بأحد الأعمدة. فدراجة الإنديانا، التي تجاوزتها السيارة، بيعت لتغطية نفقات البنية التحتية لشركة التصوير والسياحة.

وفي إحدى ليالي التدريب في جادة كمنغ، ما بين شارعي سان بابلو وألاميدا، طلب مني إيقاف السيارة في أغوسطيناس، تحت عمود نور معطل، وبينما هو ينظف شيئاً في الجدار الفاصل بين منخريه، سألني عن ديتور. والحقيقة أن ظهور السيد بريتسليك كان قد أطاح، من ذاكرتي، بالكثير من القصص المختلقة؛ وفوجئت بسماع نفسي أقول:

- انتهينا.

- ألم يكن يريد الزواج منك؟

- رفض، في ما بعد، الانتظار طويلاً.

- أرى ذلك.

- وهو فوق هذا...

- إني أسمعك.

- ... يتكلم بصورة غريبة. ينطق الراءات مثل جدي. هذا يعني أنني أحب الزواج من شخص لا يشبه الأسرة.

- إنك كثيرة الأهواء يا آليا إيمار.

- لماذا تقول هذا؟

- لأنك تقضين وقتك في الحلم بأشياء كاذبة. لا يبدو عليك أنك

تعيشين هنا. فعقلك مشغول بشيء آخر.

ـ وما السيئ في ذلك؟

ـ نحن كائنات واقعية. ولسنا شخصيات أفلام على أشرطة سيلوليد.

ـ إنك تتكلم مثل سيبولبيدا.

ـ لا يمكن لأي شخص يعرفك جيداً، أن يقول شيئاً آخر.

ـ حسن، ما الذي تريده؟

فتح ريتشارد النافذة التي في جانبه وأغلقها عدة مرات، بإدارة ذراع التدوير.

ـ عليكِ أن تبيعي السيارة.

ـ الآن؟

ـ بأسرع ما يمكن.

ـ ولكن تجارتنا تسير على ما يرام!

ـ هذا لا يناسبني يا صغيرتي. لا يمكنني أن أكون عاملاً في محطة البنزين، وأن أقود هذه السيارة. أشعر بالاستياء. ينهشني الحقد، أتفهمينني؟ أشعر بأنني خادم لنصف العالم.

ـ لماذا لا تقول دفعة واحدة ما تريد قوله حقاً؟

نظر إليّ لحظة، لكن الغضب كان يكبحه.

ـ يتحدثون في الساحة عن أنك تدخلين، في الليل، مع رجال إلى الشفروليه.

ـ وماذا في ذلك؟

ـ أنا حافظتُ عليك مثل جوهرة.

ـ إنني إنسانة، ولست ماسة.

أمسك ريتشارد يدي ووضعها فوق فتحة سرواله. فضمخت حرارة عضوه أصابعي.

ـ لا أحب أن يتلاعب أحد بي يا مجدلينا.

ابتعدتُ عنه وأشعلت مذياع السيارة. وكانت أغنية: *Big girl don't cry*. وعلى الفور سحبت مفاتيح التشغيل وخبأتها في جيب بنطال الجينز. ثم نزلت من السيارة، وقلت له:

ـ أنت مطرود يا ريتشارد.

XXXV

هناك لحظات في الحياة يمضي فيها كل شيء أسرع من إحدانا، وبينما أنا أكتب هذا الآن، أجد أنني أسبق كلماتي بكثير. إنها ضربات سكين تقدمها لكِ سنتياغو دون سابق إنذار. ليلة ماطرة في عز الشتاء، الهواء يسخن، أنوار إشارة المرور الضوئية تترنح على حجارة الطريق الزلق، قطرات المطر تسقط إيقاعية من سطح البيت الكولونيالي.

لا تدرين كيف ولا من أين، ولكنك تجدين نفسك فجأة في السادسة عشرة. تشعرين تماماً بأنك جميلة وبائسة. لم تعاني بطلة رواية قط مثل معاناتك. وممثلات السينما، باستثناء بعض الإيطاليات والفرنسيات، يبدون لك دمى مترفة. هناك شيء هائل تفتقر إليه حياتك، وغياب جدك أشد وطأة من أي حضور. في الليل أرتل «*أبانا الذي في السماء*» بإيمان، ولكن دون أن أعرف إذا ما كنت أؤمن. في الصباح أذهب إلى المدرسة بدوائر أرق قاتمة حول عينيّ، وركبتين متجمدتين تبدوان مثل إكليلين جنائزيين فوق جوربيّ الأزرقين. المطر يهطل بصورة لعينة، وتتحول سنتياغو إلى وحل أبدي من الحزن والكتب العتيقة التي أتصفحها دون قراءتها.

إنه صبح يوم سبت. بداية عطلة الشتاء، وفي المدرسة أعطونا نتائج الفصل الدراسي الأول. بالإنكليزية فقط نلتُ العلامة القصوى:

سبع درجات («اليانكيون يأكلون دماغك يا آليتا»، يقول لي سيبولبيدا الذي لا يعرف التردد).

إنني أحفظ عن ظهر قلب بعض القصائد التي سرعان ما اكتشف أنها تتوافق مع مشاعري. روبرت فروست، وليم تشالز ويليامز، إميلي ديكينسون، دينس ليفرتوف. وفي النثر أقرأ كيرواك، *روى جيرارد* قبل أن أقرأ *في الطريق*. أبدأ بحب الكتب أكثر من الأفلام، ولكن الأفلام أيضاً تثير فيّ انفعالات قوية، وأغرق في تخيلات مبتذلة وغير نظيفة. في مرات كثيرة أكون مرحة، ولكنني قلما أكون سعيدة. إنني كمن ليس له نقطة ارتكاز. قوية مثل جذع، ولكن دون جذور.

أتناول قهوة الصباح مع الحليب، أختار الفيلم الذي سأشاهده في عرض بعد الظهر وأتظاهر بأنني سأذهب بعد ذلك لأتجمد في الساحة. لقد تأجلت رحلتي كثيراً جداً. في نهاية السنة سأتقدم إلى امتحان الثانوية، فإذا ما نجحت فيه، فسوف أفرض على جوفانا بلوغي سن الرشد. وليس واضحاً لدي كذلك لماذا رضيتُ بأن تكون هي الحكم على مراحل حياتي. لدي لهفة غامضة لا تبلغ أي هدف. إنها حلم بلا شكل، لا أرغب في تحديده، ولا أستطيع ذلك، ولست أتسامح كذلك بأن يؤنبوني عندما أكون مستغرقة في شجوني. منذ عدة شهور هناك شيء يتحفز فيّ، وإن كنت لا أريد التمعن في حدوده. إنه مهل بركاني يتعذر لمسه. التفكير في **هذا** يبدو لي أمراً عنيفاً.

الأغنيات الدارجة بالإسبانية التي أمقتها، تتحدث عن ***هذا***. النصوص الموزونة التي تتغنى بـ ***هذا***، التهمها، أكررها وأبصقها بتهكم. النساء اللواتي وقعن في ***هذا*** أجدهن حمقاوات: فقد اختل توازنهن كما لو كن أفلاكاً بلا كوكب.

الأشياء تمضي مسرعة أمام إحدانا، وفي يوم الجمعة هذا تحديداً، يعدّ فتيان الصف حفلة فطائر ومشاهد مسرحية، حيث يقدمون اقتباساً ساخراً لساحرات مكبث التي علّمنا إياها الأستاذ

ميـنراد: الـرعود هـي ولولات غوميـث البدين، والبروق ومضات من مصباح سيلفرمان الصغير اليدوي، وخنجر الليدي الدامي ينتقل من يد إلى يد.

أتناول كأس كوباليبري وأذهب إلى غرفة الخجولين. يحيونني بعدم مبالاة تقريباً. الصبيان اللامعون في الصف لا يشاركون في الاسكتشات الهزلية. يذهبون لحضور دروس في الجامعة ليتعرفوا على ما ينتظرهم في الحقوق والطب.

مرة كل أسبوع أزور جمعية اللجنة المنطقية للحزب الاشتراكي، مهيئة نفسي للانتخابات التي ستأتي سنة 64. «العم» الليندي نقل إليّ عدوى فيروس السياسة، ولكنني أشك في أنه يمكن لفتاة غريبة الأطوار مثلي أن تبث الحماسة في الشعب، كي ينتظم ويبدل هذه البلاد الورطة. في مقرات الحزب يُشرب شاي ساخن، ويُسحب الخبز من آلة تحميص. إنه يحرق الأصابع، ولا بد من انتزاع الفتات المتفحم بالأظفار. يؤلمني فقر الناس.

أحمل في جيب بلوزتي ورقة رياضيات عليها رقم هاتف. لقد كتبته وأنا أفكر في شخص أرغب في الاتصال به. لا بد أنني مغرمة، مريضة في دماغي. فأنا لا أعرف اسمه ولا كنيته، ولكنني أعرف غضب عينيه، وخصلة الشعر الكستنائية التي تتهدل بهياج على جبهته، وكتفيه المندفعين إلى أمام، كأنهما تحتميان من لكمة غير مرئية، والحاجبين المشعثين لشخص يائس. وتتوج كل هذا، ابتسامة أستثيرها فيه أنا وحدي، ابتسامة ممتلئة بأسنان مشاغبة، ومعدية.

في اختلاط تخيلاتي هذا، يحدد لي أستاذ اللغة الفرنسية موعداً في بداية الفصل الأخير من الدراسة الثانوية، ليُجري لي اختباراً في فهم «*رسائل من الطاحونة*» لألفونس دوديه. إنني أحب هذا النص حتى العبادة، ولا يضايقني النهوض إلى الموعد مع الأستاذ أريناس في السابعة صباحاً، بالرغم من أن البرد يُجَرِّح المدينة، ويُظهر الجدران المتآكلة في الشوارع التي أقطنها وأحتضر فيها. والأسوأ من ذلك، أن

المقابلة ستجري في مدرسة أخرى، حيث أريناس هو المدير. إنها مدرسة مشهورة في سنتياغو بأنها تضم تلاميذ لفظتهم الموجة، فتيان سكاكين جاهزة، متخمين بالبيرة، ومدخني مرجوانا محترفين، ومقامرين مخلصين للعاهرات ومزينات الشعر، أبناء أسر طيبة، انحدروا بسبب انفصال آبائهم. أدخلُ مخدرة من البرد، كأنني داخلة لزيارة محكوم بالإعدام في زنزانته.

يطلب مني المعلم أن أنتظر على مقعد جلدي ذاو، يرى ربلتي ساقيّ المزرقتين، فيقدم لي فنجان شاي تشيلي إلى حد مرعب، ولكنه دافئ ومرّ إلى حد مبهج.

أقرأ الفصل دون أخطاء تقريباً، ويهز الأستاذ أريناس رأسه، متابعاً إيقاعاً سرياً: ربما هو الإيقاع الفرنسي الذي همس به لإحدى عشيقاته في شبابه. إنه يضحي من أجلنا. إنه مثل أولئك المعلمين الطيبين في رواية «قلب» لإدموندو دي أميسيس. لا بأس يا بنيتي، يقول لي. سأعطيك سبع درجات، ليكون معدلك الفصلي ست درجات. ماذا ستدرسين في الجامعة؟

- اللغة الفرنسية يا سيد آريناس - أجيبه بانتهازية وامتنان. وفي هذه اللحظة، يُدخل أستاذٌ مُشرف أحدَ الفتيان بركلة من قدمه.

أراه، ويشب حريق في ذلك المكان شبه المعتم. القميص مفتوح، ربطة العنق الزرقاء متسخة، كما في مباراة كرة قدم في الفسحة، وسيجارة متخيلة بين الأسنان، طويل ومنحن، رشيق ومكفهر، شبه ابتسامة يائسة على شفتيه، وأنا قبالته، غارقة في ظلمة هذا المقعد المترهل، حيث لا يستطيع رؤيتي. وأنا هناك في تلك اللحظة. أنا هناك، ومعي القصاصة التي أخرجتها من الحقيبة وضغطت عليها في يدي. أنا هناك وبيت شعر لكاردينال على طرف لساني: «ردّ أنت على الهاتف».

أعض قبضتي كي لا أصرخ باسمه. إنه بيدرو بابلو بالاثيوس.

ومن ورائه، غارقاً في عدائية المكتب وصور ثلاثة رؤساء سابقين

للوطن، يدخل أبوه. إنه دون لورينثو المعهود نفسه، ولكن بعد أن عصفت به عاصفة سيبيرية. إنه كلب ذليل يصفعه المطر. معطف العجوز المطري وسترة ابنه تغطيهما بقع كبيرة كأنها مصابيح.

لم يلحظا وجودي، وكان المدير قد نسيني. أظل في الظلمة، ويدنو هو من الأب وابنه، مخلفاً أثراً من الشحوب وراء خطواته. أغطس مجدداً في المقعد، وابتلع الشاي الذي لا يطاق، كما لو أنه شراب الآلهة. هذا الفنجان هو شيء يمكن لي أن أتشبث به وسط هذا الدوار العذب. لقد حصلت على معدل ست درجات، وكتاب دوديه على ركبتيّ، وبيدرو بابلو بالاثيوس الذي يشبه اليوم تجسيداً لرسم فتى الهاتف الذي رسمته ألف مرة بقلم الرصاص. هناك في كل حركة من حركاته شيء من التانغو، شيء بالغ الرجولة والنضج. يأس مدارى. تصعيرة حيوان غُدر به. جماعة من الفتيات يغنين أغنية لنيل سيداكا أمام بوابة مدرسة الذكور الحديدية التي يرفض البواب فتحها لهن، إنها أغنية : *Happy Birthday, sweet sixteen*.

ولكنني لا أشارك اليوم في هذه الترنمات المراهقة والزائفة. «*إنها تمطر في الخارج، وأحبك كثيراً*»، هذا ما غناه سيبولبيدا، ساهياً، عندما أخذني قبل سنتين إلى محلات غاث وتشافيث، ليشتري لي، في شهر آذار، الزي المدرسي. «زي النهدين الوليدين»، بهذا الاسم عمّدته جوفانا. وأخيراً، خلّف التوءمان المنتظران طويلاً، أثر حلمتيهما البارزتين على بلوزتي القطنية.

XXXVI

إنه يوم 21 كانون الأول. وكما هي الحال دائماً، فإن سنتياغو في الصيف مشواة شديدة التدقيق. لا تعرف التهاون مع الجلد ولا مع

الأحشاء. إنني آتٍ من أطول ليلة في حياتي، وإن لم تكن الأكثر غرابة. في عيني خفق أجنحة نوارس، مع أنها ربما لا تكون سوى جرذان. إدارة تحرير النيويورك تايمز طلبت مني هذه المقالة. مجدي وحده يتوافق مع رعبي. طلب جريدة أحلامي يتوافق مع عيد ميلادي. والزنجي توركيرا، وماركوس بلانيت، وتاتو موندت وشريبون آخرون واسعو الطيف وشديدو المقاومة قرروا الاحتفال بي في *البوسكو*، ليلة العشرين من حزيران؛ عندما كان لا يزال هناك خمس وأربعون دقيقة واثنا عشر لتراً لبلوغ يوم الحادي والعشرين.

يجب أن أعترف بأن اسمي هو ستارك، ولكنني ضعيف بصورة مزرية. وخاصة عندما تكون هناك سلفة من النيويورك تايمز في جيبي، وصنارة القدر المتلهفة بأن الجزء الثاني من المبلغ سيُدفع لي عندما أُرسل التحقيق الصحفي بالتلكس.

اقتربَ من المائدة، حيث راحت دولاراتي تسيل مثل النبيذ، اثنان من كبار الماليسيين الذين اشتريت لهم في أحد الأيام بندورة في إيطاليا. أحدهما هو لاعب كرة سلة ذو عمود فقري منحن وابتسامة ملوثة الشارب بالتبغ، والآخر آس بوكر صغير، لم يعد يُسمح له بالدخول إلى أي نادٍ اجتماعي أو مقمرة سرية.

الجميع يجيدون الغناء بالإنكليزية « *Happy Birthday to you, Andresito* »، وتمتين معداتهم بسندوتشات أفوكاتو ولحم أرانب مسلوق، ما بين ليترات النبيذ الأبيض وأباريق النبيذ الأحمر، وتجريح جيبي حتى اللحظة التي لا أعود أعرف فيها أمي. ومن حولنا العشاق الذين ينتظرون موعد الذهاب إلى فندق للعاشقين، يقومون بتحمية المحركات على الموائد المجاورة، ويتبادلون بين حين وآخر قبلات ـ عضات تبدو لقطات دعائية لأفلام سينمائية.

قد تكون التوافقات غير سعيدة أيضاً في بعض الأحيان. فيوم غد ستجري جنازة الشاعرة غابرييلا ميسترال، السيدة التي تعرّفتُ عليها

فـي عـصور مـا قبـل التـاريخ، ترتجـل سمـات دخـول وجـوازات سـفر، بوصفها قنصلاً فـي إيطاليـا. وقد أبدت قدراً كـبيراً مـن عدم اللباقة بموتها منذ أيام في نيويورك، حيث الجميع يموتون فـي الشتاء، وتبـدو أشد الكآبات حزناً كأنها أناشيد بتهوفن إذا مـا قورنت بكآبة ثلج لجوج يمكن له أن يدفن الاتحاد السوفييتي عشرين مرة.

وبالمناسـبة، الأخبـار تهـز قلـوب موظفـي القـصر الرئاسـي الـذين يقـررون إحـضار جثمـان الـشاعرة إلى سـنتياغو ملفوفاً بـالعلم التشيلي، واستخلاص المكاسب السياسية، مرة أخرى، مـن جـائزة نوبـل لـلآداب التي حصلت الشاعرة عليها قبـل عقـد مـن السنوات. فـي تلك المناسبة جرى تضخيم روح الآنسة ميسترال الوطنيـة، وعـادت ظـافرة إلى تـشيلي لتتلقـى التكـريم بـالورود، وهـي فرصـة سـانحة اسـتغلها خـصومها الفنـائيون ليرموهـا بالبـذاءات الـساخرة والمكايـد الـتي دفعتهـا لعـودة «اكسبريس» إلى الخارج.

لقـد قـرر محـرر النيويـورك تـايمز الأدبـي، وهـو شـخص يـدعى كالتشيه، أن يمنح استمرارية للخبر الذي بدأ فـي اليوم العاشـر من الـشهر، عنـدما توفـيت الـشاعرة الفنائيـة الكئيبـة فـي مستـشفى هامبستيد، فكلفني بأن أحضر يوم الحادي والعشرين جنازة الشاعرة الإلهية، مثلما يسميها السفهاء الخطـابيون الـذين يتكـاثرون هنـا كمـا الفطر.

«المـشكلة الوحيـد» مثلمـا لا يـزال يقـول الماليـسيون الـذين أتقنـوا إسـبانيتهم فـي معاهـد ليليـة، هـي أنـني لـستُ الـشخص نفـسه الـذي كتب، قبل عقود، تحقيقاً حماسياً عن القنصلة، لا في السن ولا في القناعات. فقد حولتني السنون إلى سكير وكسول، ولم تنل أعمدتي في صحف سيئة السمعة شهرة كبيرة، باستثناء تحقيق حول جغرافية بـابلو نـيرودا الإيروتيكيـة، كتبتـه بعـد أن تـورط صـديق مكلـف بالموضوع، في كتابة رواية، فطرده مدير الجريدة وتعاقد معي، على

أن يدفع لي نصف الأجر فقط، بحجة أنني ما زلت أخطئ في كلمات قشتالية من نوع «huesos» و«huevos». هذا الفرق بين الكلمتين صرت أميزه اليوم، ولكن لم أتوصل إلى ذلك إلا بعد أن كتبت ريبورتاجاً حول السيدة الأولى، السيدة غراثيلا، وقلتُ فيه إنها كانت تعاني في ذلك اليوم، من ألم عميق في الـ huevos[1].

باختصار، إنني أخرج هذا الصباح من *البوسكو*، والنبيذ الأحمر يزداد حموضة، في أوردتي، بسبب التبغ والملاطفة البائسة. وبهذا الخيط من صفاء الذهن، أتوجه بخطوة نعم، وخطوة لا، نحو المكتبة الوطنية، حيث سيقام جزء من الاحتفال التأبيني. على بعد كوادرتين من هذا المكان، هناك مدّ بحري حقيقي من تلاميذ المدارس، يرتدون مرابيل بيضاء، شعورهم مطلية بمراهم مثبتة، يلوحون بأعلام تشيلية ورقية، وينتظرون وصول النعش تحت رحمة العصي الحانية للمعلمات اللواتي لا يعرفن من الشاعرة البارزة سوى «*أقدام الأطفال الصغيرة، مزرقة من البرد، كيف يرونها ولا يدثرونها، رباه*!». وهن يحتفين اليوم بالمتوفاة على أنها الأم الكونية القديسة والرقيقة، بينما كانت، في ظروف أخرى، الضارية التي تلذذت بموت حبيبها صارخة إنها ستدفن رفاته في أرض مشمسة، وستبتعد مغنية انتقاماتها البديعة، لأنه وهو في ذلك العمق، لن تتمكن يد امرأة أخرى من النزول لمنازعتها حفنة عظامه!

ولكن لدى التشيليين معنى خاص للسياسة الثقافية، يتيح لهم إضفاء صبغة رسمية على كل ما هو تمرد. ووفقاً لذلك فإنهم يحملون الشاعرة الإلهية التي توفيت في نيويورك، إلى وادي إيلكي التصوفي، ويدفنونها حيث لا تسمع الثرثرات والتقولات المحلية، وأتقبل أن

---

[1] «huesos» و«huevos»، تعنيان على التوالي «عظام» و«بَيض»، فتكون معاناة السيدة الأولى من ألم في بيضاتها.

يصوروها كأم محزونة، تتحمل آلام وأحزان كل أطفال الكوكب. لكنهم لن يغطوا بعصفور الدوري الرقيق، لبدة تلك اللبوة! فغنائية هذه السيدة جاءت مختلطة بالتنديد. إنهم ينظرون إليها كما لو كانت ربة الحياة، وقد رأيتُ بعض اللوحات الرمزية التي يقدمونها فيها كغزالة أو فالكيريا على سلاسل الجبال المكللة بالثلوج في هذه البلاد التي تقطر سعادة.

الجميع يريدون أن يتجاهلوا أن كلمة «موت» في أعمالها، هي ضيفة الشرف، وأن العظام الجنائزية تمتد في قصائدها بكرنفالية مقبرة.

هذه البلاد البلعمية تطحن كل شيء وتعيد طحنه. فهناك شاعر يمضي اليوم منتزعاً جوارب الشعر، ويعريه إلى جانب الملائكة في حديقة فوريستال. ليست هناك أي استعارة متواضعة تبث السعادة في طبخه. يتفحص الشعر العالمي الرفيع مثلما يتفحص طبيب بولية البروستات. وبطلاته لسن واهنات شاحبات، وإنما هن أفاعٍ يملكن حسابات مصرفية راسخة. ولا غرابة في أن يمنحوه في أحد الأيام الجائزة الوطنية للآداب، ولست أستغرب كذلك رؤية المتوفاة العظيمة التي تتهادى اليوم في نعشها على بحر من المرايل البيضاء، وقد تتحول في الغد إلى صورة منحوتة وإلى عملة نقد تبادلية على أوراق المئة بيزو.

الشعراء الذين لا يموتون هنا، ينتحرون.

لقد بدأتُ في أحد الأيام إجراء إحصاءات جنائزية، وعاهدت نفسي بعد ذلك على ألا أكون نذلاً، وأن أستمتع بالحياة مثلما يشاء الله. وهذا يعني في حالتي: ممارسة حب مدفوع الأجر مع الضائعات، وتناول نبيذ سلس بمواظبة أكبر مما يستدعيه الحذر.

أريد أن أضيف أنني أتلقى، بين حين وآخر، تكليفاً بكتابة مقال بأجر أميري وحسد مكشوف من الوسط الصحفي المحلي. صحفيون يتنافسون في ما بينهم منذ التعميد وحتى الجنازة. فزملاء الصحافة

والأدب الرائعون، يناضلون جاهدين كيلا يموتوا قبل الآخرين، وليتجنبوا بذلك أن يكونوا موضوع نخب يجري تبادله في *البوسكو*.

بهذه الاعترافات البائسة لشرِّيب متوحد، سيتسامح قرائي مع كلمة ذات وقع مهذب، ولكنها تولد من أعماق قلبي المكلوم: أنا أحب هذه الميتة. إنني أقدر حقاً هذه المرأة التي تتنقل اليوم من شارع إلى شارع في صمت النعش، بينما الجميع ينثرون على تابوتها بتلات أزهار ويسكبون دمعة عاطفية مصطنعة.

أما أنا فأحبها لأنها كتبت: «أنت لا تشد على يديّ: سيأتي زمن الراحة السرمدي بكثير من التراب والظل على الأصابع المتشابكة».

إلى *النيويورك تايمز*، يرسلها من تشيلي أندريس غوميث ستارك.

ملاحظة. أدركُ أنها مقالة غير مألوفة، وأعفي الجريدة من نشرها. ولكنني أطلب فقط، نظراً لأن السلفة قد أُنفقت في احتفال تعس، ألا تطالبني الجريدة بردّها. وسأقدر لكم مثل هذه اللفتة من الشهامة باعتبارها هديتكم لي في عيد ميلادي.

XXXVII

أتروى، أهدئ نبضي، أهدئ تسرّع قلبي الأهوج. أكبح جماح النثر كيلا يبتلع انفعالي الذكرى. لا أريد لشيء أن يطفح، لأن ذلك سيعني أن هناك لحظات لا تنتمي إليّ، لحظات أكبر مني. لا أعرف اليوم إذا ما كانت الحياة كلها حصار ترقب لهذه الومضات الخاطفة.

أكرر. في اللحظة التي ضمنت فيها معدل ست درجات بالفرنسية، فُتح الباب، وحين التفتَ ليعرف الدخلاء، اشتد شحوب

المدير آريناس الرابض إلى أن صار شمعاً. ثم تقدم بعدوانية وهو يذوب هلاماً، مقترباً من بالاثيوس وأبيه، متوصلاً إلى جعل الغضب يعلو بضعة سنتيمترات فوق قامته القصيرة. كانت خطواته الواسعة خطوات عسكري. أما ألفونس دوديه و *رسائل من الطاحونة*، فصارا ذكرى أوراق شتائية تدوسها الكلاب.

بعد أن قال المدير آريناس صباح الخير للأب، وجه إلى بيدرو بابلو إصبعاً داحضاً:

ـ ابنك ليس غبياً أيها السيد. لقد حصل على سبع درجات بالإنكليزية. ولو كان الأبله الذي يتظاهر بأنه عليه، لكانت علامته سيئة في هذه المادة أيضاً. يجب عليكم أن تشجعوه على دراسة التاريخ، والفيزياء.

ـ والفرنسية ـ بصق الفتى.

فصاح آريناس:

ـ *Oui*، لغة الحرية.

ـ والأخوة والمساواة ـ تثاءب الفتى، دون أن يرفع بصره عنه.

أحسستُ بفتور في فخذيّ. تحللت المسافة الفاصلة بين الظلال التي تخفيني على نوابض الأريكة المترهلة، وشلال الأنوار الذي يكلل رأسه. كنتُ إلى جانب بيدرو بابلو، ولا يمكن لشيء فيزيائي أن يفسر ذلك القرب.

ـ هاجسه الوحيد هو نيويورك ـ قال دون لورينثو معتذراً ـ. لو كان يملك نقوداً لسافر. ولكننا نصير أشد فقراً كل يوم. الأسعار ترتفع والأجور تنخفض. لقد وعد الجنرال إيبانيث...

أمسك ذراع المدير بحرارة ليجبره على النظر إلى عينيه. إنهما زمردتان في وجهه، خضراوان لكنهما باهتتان من القنوط. أما عينا الابن فلهما لون القهوة، غير أن لهباً يؤججهما.

ـ إذا ما طردت صغيري من المدرسة، سنضيع كلانا. إنه ابني

الوحيد وأملي. أمه ماتت مؤخراً. لقد كنا طوال حياتنا...

- فقراء - قال بالاثيوس الابن - فقراء بالمعنى المجرد والمطلق.

ضرب المدير المنضدة بكتاب دوديه ولم يستطع إخفاء السخط الذي يثيره فيه الثنائي التعس، وخاصة ضعفهما. كان المدير يعلق فوق رأسه صورة زيتية للمدير السابق، ومن المؤكد أنه كان يتضايق من التفكير في أن ذلك المدير كان سيطرد هذا الفتى المتعجرف دون تأخير.

- حسن - قال - كيف أنت في الأدب؟

داعب بالاثيوس الجزء العلوي من شفتيه كما لو أنه يلمس بداية شارب كثيف غير موجود، وقال:

- شكسبير. إنني أعرف عن ظهر قلب خطبة تأبين ماركو أنطونيو عند جثمان قيصر.

- وماذا ينفعك هذا؟ - قال له السيد آريناس وهو يفتح ذراعيه مشفقاً.

- إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الإنسان فان، يا أستاذ، فلن يكون حفظ خطبة تأبينية غير مجدٍ - وبدأ الإلقاء: « *Friends, romans. Countrymen*».

- أطبق فمك، *please*.

- «يوليوس قيصر»، يا أستاذ. من الجيد أن تجد من هو مستعد لقتلك، عندما تحين اللحظة المناسبة.

- حسن - كرر آريناس - هذه هي سنتك الأخيرة في المدرسة، ويمكنك أن تبقى. ولكن إذا ما عدت للتخلف عن دروس الرياضيات، فسوف أطردك أنا نفسي، ركلاً، من المدرسة.

شدّ الأب على يديه شاكراً. غير أن بيدرو بابلو، بالمقابل، بدأ يميز جسماً على الأريكة. من المستحيل معرفة إذا ما كانت الظلال تتيح له تبين ملامحي. بل أكثر من ذلك، هل سيتمكن، إذا ما رآني

بالكامل، أن يتعرف إليّ؟

على الرغم من البعد والضبابية في ما بيننا، كانت أنفاسه ترطب شفتي.

ابتسم.

- ما الذي يُضحكك أيها التافه؟ - واربد وجه المدير.

- *I'm laughing on the outside, crying in the inside* - قال مستشهداً بأغنية فريق الآسات الأربعة، وأضاف مترجماً ما قاله: - إنني أضحك من الخارج، وأبكي من الداخل يا أستاذ آريناس.

خفف جرس الفسحة من وطأة المشهد، عندما دخلت السكرتيرة بالتزامن مع صوت الجرس، حاملة سندوتشاً مترعاً بطبقات من الزبد والجامبون والأفوكاتو، يطفح بشهية من بين نصفي الخبز الريفي.

- كم أغنية تعرف بالإنكليزية؟ - أراد دون لورينثو التباهي بصورة غير مواتية.

- أعرف مئتي أغنية كاملة. وأكثر من ألف، بصورة جزئية.

- وبالفرنسية؟

- أغنية واحدة فقط: «*الهارب من الجندية*» لبوريس فان.

- هذه أغنية وقحة - دمدم المدير وهو يتناول السندوتش بيديه الطريتين الشاحبتين -. إذا كان الشباب يهربون من الجيش، فسيبقى الوطن بلا جنود. ودون جنود لن يكون هناك نظام، وسيفعل العدو بنا ما يشاء. سيستعبدنا.

أنشب المدير أسنانه في السندوتش بقضمة لا هوادة فيها، وبينما هو يعجن اللقمة في فمه، أبقى الفتى وأباه ثابتين في مكانيهما معلناً بإيماءة أنه لا يزال لديه ما يقوله.

- أيها السيد - قال بعد أن ابتلع اللقمة الأولى - ما ابنك إلا زبّال متجول. عليك أن تُجري له غسيل دماغ. وبدلاً من الأغنيات الحمقاء، عليه أن يحفظ الصيغ الكيميائية، والقوانين الفيزيائية، والأحداث

التاريخية الكبرى، والمعادلات الجبرية. وقبل ذلك كله، التربية المدنية! تشيلي بحاجة إلى رجال يرفعون من قيمة الوطن، وليس (وأقول هذا بكل احترام) إلى تافهين مؤيدين للروك أند رول. هل رأيتما فيلم *بذرة الشر*؟ هذا الشاب بحاجة إلى غسيل دماغ.

وقال بيدرو بابلو مترجماً:

- *Brain wash*.

- عليه أن يظهر كرجل ذكي. لأن هناك أكواماً من بلهاء الروك أمثاله، ممن يلوكون أغنيات تافهة.

- *You get them a dime a dozen* - قال الشاب، بأسنان بارزة وعيني قط ينقض على فريسته.

كان المدير يستعد لقضم لقمته الثانية من الخبز، ولكن شيئاً كبحه، ونظر إلى السقف نظرة صوفية. وقال متحدياً الأب بحركة من ذقنه:

- هذا الصبي، ما الذي يطمح إليه في الحياة؟

تقدم دون لورينثو ليقول عبارة من نوع «الله أعلم»، عندما اندفع ابنه، بقفزة واحدة، قبالة المدير، لينتزع السندوتش من بين يديه. نهضتُ من مكاني، ولكنني لا أذكر إذا ما فعلتُ ذلك كي أنصرف أم كي أقول شيئاً. كان يوماً شتائياً حارقاً.

- أريد أن أصير ممثلاً - صرخ الفتى وهو يضغط على السندوتش، جاعلاً الأفوكاتو والمايونيز يسيلان على معصم زيه المدرسي.

شده أبوه من شعره، راغباً في الخروج به. وقال وهو يرسم ابتسامة متذللة:

- الجد صفر، أنا صفر، ابني صفر.

- لا يا أبي - التفت إليه بالاثيوس - سوف تفاجأ بي. سأقطع هذه السلسلة من الخنوع وعدم التفوق. لقد مللت هذا السلوك الاحتضاري المذعن، سلوك المرضى اليائسين الذي صرتَ إليه منذ وفاة أمي. أنا

سأتوصل إلى ما أريده، وليس في هذه المدينة، مدينة الناس المصابين بالزكام، والبدلات الرمادية، مدينة الحافلات المخلعة ذات الروائح الكريهة، والبنات المتأججات ولكنهن عذراوات، مدينة الشوارع المشققة والمتسولين، ومدارس القاعات الذاوية والمديرين المترهلين الشرهين، مدينة الأوغاد المحتالين، المتباهين بما لديهم من أموال، دون أن يكون لديهم غرام واحد من العقل، مدينة الأحذية المثقوبة والحمائم الكسيحة، وهذه السلسلة من الجبال التي - بدل أن ترفعنا إلى السماء بكل آلهتها الغاضبين - تفصلنا عن العالم، تدفننا، تعزلنا، تحبسنا في أوردتنا، تخنقنا بربطات العنق هذه، والبراز ينزلق على رؤوسهم الصلعاء. في أحد الأيام سيقتلوننا نحن التشيليين جميعنا، ولكن لن يبدي أحد اهتمامه بنا يا سيد آريناس - صرخ الآن بأذنين حمراوين، ودموع في فمه، وواصل: - الشيء الوحيد الذي أتطلع إليه في الحياة هو مغادرة مدرسة البراز هذه بما فيها من صور هؤلاء المسنين والأنذال، بكل صيغها الكيميائية، وقوانينها الفيزيائية الحمقاء التي لا تنفع في شيء، لأن الكون تحكمه فوضى سرية، لا يعرفها أي فيزيائي. أتطلع إلى مغادرة زملائي من التلاميذ الذين يُسرّحون شعورهم بمواد مثبتة، ويقصونها كل أسبوع في صالون الحلاقة نفسه الذي يقص فيه آباؤهم شعورهم، ويلحسون أحذية الأساتذة المفتشين كي لا يشوا بهم، لأنهم يدخنون الماريجوانا في دورات المياه. الشيء الوحيد الذي أتطلع إليه في الحياة، أيها السيد المدير، أيها السيد أستاذ اللغة الفرنسية البارز، أيها البراز آريناس، هو أن أكون حراً!

عندما صمت - عندما صمتَ يا بيدرو بابلو بالاثيوس، ظل لهاثك يلف ويدور في الغرفة متحولاً إلى كلب مجنون - كان زجاج النوافذ قد ابتل، وسندوتش المدير قد سال على السجادة؛ وكان لون العجوزين قد تحول إلى لون الرماد، وفماهما قد تقلصا حتى شابها تصلب ميت. وكان الأب يضبط عقدة ربطة عنقه، كما لو أن هذه الحركة

الشكلية يمكنها أن تلغي مفعول خطبة ابنه الحماسية.

نظر المدير إلى بقايا وجبته:

ـ هل انتهيت؟

ـ انتهيتُ يا سيدي.

عندئذ، دون أن يمنحه وقتاً لحماية نفسه، أمسك به من سترته، وأداره بقوة لا تنبئ بها رخاوته، ثم دفعه حتى الباب، وأخرجه من الغرفة موجهاً إليه ركلة على قفاه.

ـ لقد زدت العيار يا بن العاهرة! لا أريد أن أراك قريباً من المدرسة، لأنني إذا رأيتك فسوف أرسل الشرطة في إثرك!

ذهب أبوه أيضاً حتى الباب. وعند العتبة، أراد ـ برعونة ـ أن يلين قلب السيد آريناس بالقول متوسلاً:

ـ إنه ابني الوحيد يا سيدي. إنه يتيم.

وطفرت دمعتان كبيرتان من زمردتيه الرائعتين.

لو أتيحت لي أنا مثل هاتين الدمعتين، لخرجت على أغلفة المجلات.

هوّى المدير اختناقه بكتاب دوديه.

ـ احمد الله أنه الوحيد يا سيدي. لأنه لو خرج لك ابن ثان وغد مثل هذا، لكان شعرك قد شاب منذ زمن.

اقتاده نحو الخارج ممسكاً بمرفقه، وهمس مستاء:

ـ *A revoir*.

رفع بعد ذلك سماعة هاتف مكتبه، ووضعها على أذنه، وفجأة بدا كما لو أنه نسي ما أراد أن يفعله. فأعاد السماعة، وضغط الزر مطفئاً الأنوار. قرع جرس الدرس الأول. عندئذ توجه نحو المنضدة الصغيرة، حيث كان فنجان شايه قد برد، ورأى متفاجئاً أنني ما زلت هناك، وحقيبتي المدرسية على ركبتي.

سألني:

ـ أين وصلنا؟

فأجبته:

- القدرة على القراءة، سبع درجات. والمعدل بالفرنسية ست درجات.

سجل الرقم في دفتره. نهضتُ باندفاع، وقبل أن أتمكن من التوصل بجسدي إلى التوازن، تهاويت نحوه وقد أغمي علي.

XXXVIII

صباح يوم السبت، وجدت أمامي الهاتف الأسود المغري، وقصاصة الورق التي عليها رقم بيدرو بابلو بالاثيوس تحلّ محل تخيلات الشهور السابقة.

كنت على وشك أن أغلق السماعة عندما قال لي بصوت من الحلم، ولكن بأسلوب رغبت أيضاً في أن يكون أقرب إلى صوان أذني: «كنت أعرف أنك ستتصلين.». لقد حلمتُ في الليل بأنه يبلل عنقي بلسانه.

دعاني لتناول وجبة خفيفة عند العصر في بيته، وطلبت أنا منه أن نذهب معاً إلى نادي الجاز. فهذه الليلة سيعزف فيه عازف الترومبون الذي جاء بي من أوروبا إلى تشيلي، عندما كنتُ في الثانية من عمري، ثم أبحرَ، بعد أن وضعني في حضن الجد إستيبان، مع فرقة موسيقى تروبيكالية إلى كنارياس. وكانت الصحافة تعلن عن عودته «الظافرة» إلى تشيلي.

ووفق ما جاء في مقابلة معه في جريدة *الميركوريو*، فإنه لم يطأ أرض هذه البلاد سوى مرة واحدة، كي يوصل «غرضاً» كُلِّف بنقله. وحسب ما يقوله الماليسيون المسنون، فإنني كنت أتعلق بترومبونه مثل لاعب جمباز. غير أن أبناء بلدي يحكون أي شيء، عندما يتوجب عليهم اختلاق ماضٍ ما. والشيء الصحيح المؤكد في كل هذه القصة، هو

أنه وصلت إلى بيتي بطاقتا دعوة إلى حفلة جاز خاصة، ومعهما ملاحظة تحمل توقيع عازف الترمبون باتشوكو ياكسيك، يقول فيها: «أيتها الصبية، لا بد أنك كبرت. أحضري معك صديقة، لأننا سنستمتع».

في الساعة الرابعة سمعت في برنامج مينيريا لبانتشو كاركامو، بث أغنية *انظر كيف اتارجح*، مع أوسع مختارات من التويست الإيطالي والأمريكي. ارتديت بلوزة أخرى، من الحرير، وليس بلوزة الزي المدرسي التي ينفخها نهداي كثيراً، فيفلت الزر الأول كلما تنهدت. تنهد. فعل بدأت أصرفه لأول مرة في حياتي منذ أن التقيت مجدداً مع يورك نيو في غرفة المدير.

بيته يقع هناك، بالقرب من إراراثابال. وهو شارع يتلاءم تماماً مع قباحة الخريف. بيوت لم تعرف الطلاء منذ اليوم الأول للخليقة، سقوف مزينة بثقوب يتسرب منها ماء المطر. رطوبة، وهرّان أو ثلاثة هررة أليفة.

لم يتمكن حتى اللفاع الذي حاكته جوفانا، والملتف لفات لا نهاية حول رقبتي، أن يحول دون قشعريرتي. ضغطتُ على الجرس وأنا منحنية تحت المطر، كان جورباي يقطران، وحذائي ذو الكعب العالي ملطخاً بالوحل، ولدي رغبة جامحة في إلصاق بشرتي بجسده الدافئ. تطاول عدم الفهم هذا الذي حملني إلى هنا. لماذا بيت أبيه؟ افترضتُ أن أباه يخرج من البيت أيام السبت مساء. وربما لا يملك نقوداً ليأخذني إلى مقهى في مركز المدينة. وربما يملك قليلاً من المال، ويدخره لهذه الليلة.

أفسح لي الطريق للدخول دون أن يقبلني. حتى دون قبلة على خدي. تراه تعمد ذلك ليُفهمني أن وقت تبادلنا القبل لم يحن بعد، وأنها لن تكون مجرد قبلات مجاملة؟ أم أنني لم أعد أشد اهتمامه بعد أن بادرت بنفسي إلى طلب موعد منه؟

كانت المائدة معدّة لثلاثة أشخاص. إبريق شاي، وسلة فيها الخبز

ملفوف بمنديل مطرز بأزهار كوبيهوي، لإبقاء الخبز المحلى ساخناً. وطبقان من المقبلات المعهودة، في أحدهما قطع خبز محمص، مقطعة إلى مثلثات، وفوقها شرائح صغيرة من اللحم مع حبة زيتون سوداء، بينما على قطع خبز الطبق الآخر عجينة أفوكاتو تعلوها رشة من فتات صفار بيض مسلوق ومبشور. وفوق المنضدة، توجد ساعة يوحي مظهرها بأنها كانت تخص محطة قطارات مهجورة، متوقفة على الرابعة تماماً.

لم يدعُني بالاثيوس إلى الجلوس. ظل واقفاً إلى جانبي ينظر إلى ما كنت أنظر إليه، كما لو أنه يرى أشياء بيته أول مرة. قفز نحو الساعة ليوجه إليها ضربة، فبدأ البندول حركة صاخبة كأنها حركة صفائح مخلعة. مرّ بعد ذلك بيده، بكل جديّة، على شعره الكستنائي، وطوح به إلى الوراء بحركة كئيبة. كان فيه شيء رقيق جداً، وهائل الشبق في الوقت نفسه. بدا كما لو أن يأس هذه الجدران قد صاغه من قوة مكبوحة، وراودني خاطر مجنون بأنني القادرة على إطلاق العنان لتلك القوة.

وبالرغم من أن شيئاً لم يحدث، على الرغم من أنه، ويا للعنة، لم يحدث أي فعل أو تلميح موحٍ، فإن الهدوء كان مثقلاً بتوتر كهربائي.

سألته:

- وأبوك؟

- سيصل خلال عشر دقائق. إنه يعمل منضد طباعة في الجريدة، ويناوب في نهاية الأسبوع. إنه يمضي بأنف أحمر وسيّال. لقد كان يحبك دوماً في صغرك، ولكنه إذا ما تضايق منك الآن، فسوف يبدأ بالتحدث عن الحرب الأهلية الإسبانية إلى أن يقتلك ضجراً.

- هكذا هم اللاجئون الإسبان. فألليندي صديق العديدين منهم.

- ولكن أبي جمهوري أكثر مما هو إسباني. وإذا ما قال لك إنه كان صديقاً لغارسيا لوركا ونيرودا، فلا تعارضيه. جميع الإسبان التشيليين هم أصدقاء غارسيا لوركا ونيرودا. إنه يحفظ عن ظهر قلب

الأبيات المشتركة التي قالاها في روبين داريّو. أتعرفين شيئاً عن داريّو؟

ـ «مرغريتا، البحر جميل والريح...»

ـ الجميع يعرفون هذا البيت من الشعر. لقد قلبتُه.

ـ كيف؟

ـ «مرغريتا، أنت البحر جمالاً.»

لم يبتسم إلا بعد أن ابتسمت، وعندئذ بدأت بنزع لفاعي، وساعدني في فكه من حول عنقي. وبينما هو يفعل ذلك، لمس وجنتي.

ـ إنك متجمدة. على بُعد خطوة من الإصابة بنزلة صدرية.

ـ عندما اختفيتَ أنت، ظللتُ في المستشفى وقتاً طويلاً. بسبب الرئتين.

ـ عليك الآن أن تهتمي بنفسك.

وكنت على وشك أن أسأله لماذا ***الآن***، ولكنني احتفظت بالصمت، مثقلة بخجل مسبق سيغطي بشرتي إذا ما كان لهذه الكلمة المعنى الذي خمنته أو افترضته. لأنه صار لحياتي ***الآن*** معنى. حياتي لن تكون شيئاً للهرب، وإنما للمشاركة. أحسست بأنني آخر الرومانسيات. وأنني لا أريد أن أكون آنسة. خلعت حذائي وجوربي، وسألته إذا ما كانت لديه جوارب كرة قدم.

ـ يروقني فريق الـ «U» ـ قال لي، عندما أحضر لي جوربين أزرقين عليهما رسم بومة.

ـ وأنا أيضاً.

ـ يفتنني براوليو موسو.

ـ أنا يعجبني ليونيل سانتشيث.

ـ وماذا عن ألفاريث؟

ـ بارع.

ـ هل تحفظ حقاً، عن ظهر قلب ***«يوليوس قيصر»***؟ *I come tu bury Caesar not to praise him* ... الخ.

- أفضل عليه مقطعاً من نص مارلون براندو...

- تقصد ماركو أنطونيو.

- بعد مارلون براندو لا وجود لماركو أنطونيو آخر.

- أنت أول شخص أعرفه يحفظ نصوصاً بالإنكليزية.

- تعلمت ذلك من السينما. أغنيات الأفلام الموسيقية، والأعمال المسرحية. أرغب في أن أُخرج فيلماً.

- هناك شقيق لجدي يعيش في هوليود.

- إنك تمزحين!

- لقد عمل في *كينغ كونغ*.

- قام بدور القرد؟

- لم يكن الممثل الذي قام بدور القرد، وإنما الرجل الذي صنع دمية القرد.

- لا أصدقك. من صنع الدمية هو شخص يدعى مستر أوبي.

- لقد تبادلنا الرسائل وكل شيء. إنني أحلم أحياناً بالإنكليزية. هل تظن أنني مستلبة؟

- من قال لك هذا؟

- سيبولبيدا. يقول إنني أفتقر إلى جذور أمريكية لاتينية.

- لماذا؟

- يقول إنه يتوجب علينا الإحساس بنداء الأرض. وأنه لا بد من الثورة على الإمبريالية.

- لا أرى ما يمنع أحدنا من الثورة إذا كان يتكلم الإنكليزية. هنا، في هذه البلاد ستحدث ثورة كبيرة.

- أنا لا أملك حق التصويت بعد. في العام 64 سأصوت لألليندي. لقد شاركته في حملته الانتخابية، ولا يمكنني الاقتراع لأن عمري أقل من ثمانية عشر عاماً. ولكن لدي رخصة قيادة سيارة!

- أما زلت تملكين السيارة؟

- ما زلت أملكها بالطبع.

ـ الشفروليه الفاخرة؟ لقد سمعت بها. أقسم لك إنني أرغب في رؤيتها.

داعب بيدرو بابلو مسند أحد الكراسي، ثم قال لي بعد لحظة، بكل وقار:

ـ إذا ما طلبتُ منك يوماً قبول الزواج مني، فإنني أقسم لك إني لن أفعل ذلك من أجل السيارة.

XXXIX

جعلته يخفض ذراعيه ورفعت ذقنه كي أدرس ظلاً يسقط على رموشه. فككت أزرار قميصه ووضعت يدي على قلبه. تحسسته برؤوس أصابعي كما لو أنني أتعرف إلى جغرافية بلاد أعرف أنني سأسافر إليها. كان هناك شيء ديني ومهيب في بشرته، صفاء يقربه من العالم بشهية. تركني أفعل ذلك دون مفاجأة أو استنكار. وضعت بعد ذلك أذني على صدره، وأغمضت عينيّ راغبة في أن أسمع ما الذي يدور هناك في الداخل، في بؤرة هذه القوة التي تشع بالغضب تقريباً.

ومع ذلك، لماذا، إذا كان جميلاً بهذا القدر غير المتناهي، في بساطة الجلد والترقب هذه، لماذا لا أنفجر أنا في الصرخة السعيدة التي تطلبها الروح مني، وأجوب بالمقابل زغب صدره، أسيرة حزن عنيد؟

كان ذلك ـ وربما لا أستخدم بعد الكلمات الدقيقة، على الرغم من بعض الممارسة في الدوران على الكلمات دون اعترافات ـ كما لو أن شخصاً آخر يحملني مخاوفه، وأستسلم لها في سبيل خدمته. لا يمكنني أن أصوغ الإحساس إلا بأنه تناقض ظاهري: لقد كان كل شيء بديعاً بصورة فسيحة إلى حد لم أكن أرغب معه سوى الموت.

رتّب بيدرو بابلو الشعر فوق جبهته دون أن يبدل وضعه. ووضع اليد

نفسها فوق نهدي الأيسر. لم يشأ الضغط عليه ولا منحه مداعبة. كلانا كنا نمضي أقرب إلى الغطس بصمت. كانت عجرفته قد انهارت، وكان المطر يقرع سقف التوتياء. توقفت الساعة مجدداً، وجعلتني العاصفة أشعر بأنني ضئيلة جداً. حتى اللحظة كنت أعيش، أنا والعالم، في وئام. لا أوجه أوامر فوقية إلى أحد، ولا أشعر بالتأثر تجاه الأغنياء أو الفقراء. أما *الآن* (مرة أخرى هذه الكلمة التي تفرض نفسها عليّ) فأنا جزء من شيء غير محدد ولا يقاس بغيره. لقد تميعت أشياء العالم إلى مادة سائلة أبحر فيها وأشكل جزءاً منها. إنني، بطريقة خارجية، أخسر في الوعي وأكسب في الإدراك. ومع ذلك لم يحدث شيء. باستثناء هذا الحنين الرهيب المسبق إلى بيدرو بابلو الذي أشعر بفقدانه، وسمعت تيبي يقول: *ملخص فيلم لن يعرض في أي مكان*، وإن هذه الدقيقة سيجرفها النسيان، مثل كل تاريخ أسلافي. الآن أدرك بعمق سبب احتفاظي بتمائم من الجد، مثل عباءة الملاكمة، وتذكرة السفر في سفينة الشحن التي حملته إلى أنتوفاغاستا، ومقالة بافلوفيتش المصفرة المكتوبة باللغة الماليسية، وتحمل عنوان «*الليلة المزدوجة*»، والسلة ـ المهد التي وضعني فيها باتشوكو ياكسيك عندما أبحر إلى فنزويلا بحثاً عن البترول والإيقاع.

ابتعد بيدرو بابلو عني فجأة، وأخفض بصره، دون مواربة، نحو فتحة بنطاله. تابعتُ ذلك الاتجاه، ثم رفعت عينيّ لتلتقيا بعينيه.

ـ إنه ظاهر ـ قلتُ.

ـ أتريدينه؟ ـ سمعته يقول بصوت خافت، إنما أجش، ناضج.

ـ لا أدري.

ـ أتريدينه؟ ـ ألح.

رفع ذقني بحرج وصوّب نظرته القسرية على حاجبي. أشعر باستثارة كبيرة عندما ينظر أحد إلى جبهتي. فذلك كما لو أن الآخر يحلق فوقك، يراك كبلد ذي طبوغرفية مفاجئة. الصبيان الذين

يفعلون ذلك يفقدونني توازني.

- إنني أفكر فيك أحياناً - قلتُ بصوت خافت ومضطرب - وأتصور نفسي أفتح لك فتحة بنطالك، وأخرجه، وأداعبه بيدي. وأخمن رائحته.

- وما هي رائحته؟

- رائحة نهر عكر. أتجد ما أقوله بذيئاً؟

- لا. كل ما هنالك...

بدا كما لو أنه يغرق وراء نظرته بالذات، وكور احتدام الحرارة شفتيه.

- كل ما هنالك، ماذا؟

- أخجل من قوله لك.

- أتجدني غريبة جداً؟

- لا أجدك أي شيء. إننا قبل الأفكار وقبل الكلمات.

- أتعرف كيف تقول ذلك؟ أتعرف كيف تقوله؟

- أجل بالطبع. إننا في غابة الحواس المطيرة. مثل الكلاب على الشاطئ.

- كيف وصلنا إلى هنا يا بالاثيوس؟ القطار توقف في محطة غير موجودة على أي خريطة. إنني أتذكر الآن قصيدة لوليم كارلوس وليمز: «كثير يعتمد على عربة حمراء - تحت المطر.»

- هذا علمي تماماً. متى كانت وفاة جدكِ؟

- قبل أن نشاهد *كينغ كونغ*.

دخل والد بالاثيوس إلى غرفة المعيشة مبللاً، وقال:

- هل توقفت الساعة مرة أخرى؟

- نوابضها صدئة يا أبي.

- إنها الرطوبة. سنوات وأنا أرغب في الخروج من هذا الكهف، والراتب لا يكفي للتوفير منه. كانت لدي ثقة هائلة بأن هذا الفتى سيتخرج متألقاً من المدرسة، وينجح الثانوية ويدخل الجامعة. ولكنكِ

تعرفين دون شك ما فعله. ألقى بمستقبله إلى الهاوية. وفعل ذلك أمام عيني بالذات.

السرعة التي تقدم بها من الردهة باتجاهنا، حالت دون تمكنه من نفض المظلة، فراحت تقطر مشكلة بقعة ماء عند قدميه. كان ملتفاً بمعطف رمادي، فيه خطوط سوداء، ويلف حول عنقه شالاً صغيراً من وبر الألبكا، رمادي اللون، يكاد يحاكي لون بعض خصلات شعر فوديه، وبعض خطوط شاربه.

ـ لماذا كل هذه العتمة هنا؟ ـ قال ذلك من بين أسنانه بينما هو يرفع مفتاح النور الكهربائي. وميض المصباح الضعيف أبرز بوضوح أكبر تواضع هذه الجدران التي تمزق ورقها وتدلى عند حوافه.

ـ كيف حالك يا آنسة؟ ـ سأل بتسلط وعدم اهتمام، وهو يتأكد في أثناء ذلك من سخونة إبريق الشاي الذي على المنضدة.

ـ جيدة، يا دون لورينثو.

ـ والمدرسة؟

ـ ممتازة.

ـ لم يبق أمامك سوى وقت قصير لامتحان الثانوية.

ـ بضعة أسابيع.

نفض الماء عن ياقة معطفه، وقال منتقلاً إلى موضوعات غير مترابطة:

ـ كل المؤسسات التشيلية تعمل بالخسارة. ولهذا لا نحصل على زيادة في الأجور... المطر يتسرب من السقف.

احتضنتُ نفسي. كنت أريد الخروج من هذا البيت حتى لو كان البرد يهطل في الخارج، بل حتى لو كانت السماء تبصق سرطانات ودوبيات. بدا كما لو أن دون لورينثو قد أعادنا إلى العراء حين لم يخلع عنه المعطف والشال. انقض على مدفأة البرافين بعود ثقاب، فملأت رائحة وقود سام جو الغرفة فور اشتعال الفتيل.

ـ وأنتِ، كيف حالك؟

ـ جيد يا بابي.

ـ إذا كان هناك من هو راغب في تحديث هذه البلاد، فلا بد له من خصخصة كل شيء. والبدء بسكك الحديد. عليّ أن أشتغل حتى في أيام السبت. غير معقول. إنني آت بالقطار من رانكاغوا. لا وجود لأي مخطط استراتيجي. القطارات هي القذارة الأخيرة..هل ركبتِ يوماً في عربات القطار الذي يذهب إلى كارتاخينا؟

ـ لا يا سيدي.

ـ اعذريني للكلمة، ولكنها ممتلئة بالخراء. بالذباب والخراء. من الأفضل لك عندما تنجحين الثانوية أن تغادري هذه البلاد.

ـ هذا هو بالضبط ما أفكر فيه.

تناول بيدرو بابلو سترته الجلدية عن مسند كرسي، ارتداها بمهارة وأغلق السحاب بسرعة.

ـ سنذهب يا أبي.

ـ إلى أين؟

ـ خارجاً يا رجل.

ـ ولماذا. هنا أفضل. الشوارع لم تعد تنفع للسير. الحافلات الصغيرة تمر مسرعة على برك الماء وتلوث المارة. إلى أين ستذهبان؟

ـ إلى نادي الجاز ـ قال.

قضم دون لورينثو خبزاً محلى بعد أن دفأ يديه بالضغط عليه.

ـ هذه الموسيقى ليست سوى ضجيج.

ـ لمن لا يفهمونها، يا دون لورينثو.

ـ في إسبانيا... خذا سندويشين قبل الذهاب. خبزاً محلى مع بيض مخفوق. قولي له أن يتوسل إلى المدير...

خرجنا إلى الشارع وبقينا للحظة صامتين تحت إفريز الشرفة. بدا مستحيلاً أن يكون المطر أقوى مما هو عليه، ولكن المطر ازداد فعلاً.

ـ المعذرة ـ قال لي بيدرو بابلو.

- لماذا؟

- بيتي، أبي العجوز. الموت بالتقسيط.

- لا تقلق - قلت.

- فلنمشِ.

أمسك بمرفقي وجعلني أركض حتى لحقنا بالحافلة الصغيرة المتوقفة عند الإشارة الضوئية. ولكن هنا، في هذا المكان المقفر والطوفاني، وسط هذا التقافز بين برك الماء اللزج الذي يتسرب من نعل الحذاء، وضع بيدرو بابلو فجأة على شفتي، أول مرة، كلمة لم أكن أعرفها إلا في الكتب: السعادة.

XL

لمدينة سنتياغو هذه الميزة في جعل إحدانا تشعر أنها وحيدة وهي مع الآخرين، ولكنها لا تشعر أبداً بأنها مع نفسها. بعد الحفلة، تبقى قهوة الإبريق التي يقدمونها إليك في فنجان صغير جداً لا يكفي لمقارعة المطر، وشديد الحلاوة إلى حد لا يتيح لإحدانا أن تشعر بأنها قد كبرت. مطاعم الوجبات السريعة غير مضيافة، وألواح الزجاج فيها يغطيها غبش من أنفاس السكارى، وترتج كلما مرت حافلة. وأنبوب عادم الدخان في السيارة مهترئ من احتراق الوقود. وأسوأ ما في كون إحدانا فتية هو عدم امتلاك بيت خاص بها. ولا بد من أخذ الصديقة إلى حيث الأبوين والهمس بالمغامرات والتعاسات المخبأة تحت الوسادة كي لا يُستنفر الأبوان العجوزان.

لو علمت جوفانا بكل ما يدور في رأسي، لشاب شعرها على الفور. يقينها بأن الليندي سيفوز يوماً ما، يبقيها شامخة ونشطة. لقد تحسنت إسبانيتها بفضل مهارة سيبولبيدا اللغوية الذي يسفّد فقراء

الطبقة الوسطى بخطب يحفظها من نيرودا أو بابلو دي روكا مواجهاً إياهم بأنهم خوافون وجبناء. هذا الشتاء تحدثنا كثيراً عن ***يوليوس قيصر***. حسن. لو أن سيبولبيدا كان ماركو أنطونيو، وكان ماركو أنطونيو هو سيبولبيدا، لكان هناك سيبولبيدا قادر على جعل حتى سلسلة جبال الأنديز تنهض متمردة ضد الإقطاعيين والشركات متعددة الجنسيات، وخنازير عولة المضاربة والسرقة هؤلاء.

لقد حضرت في إحدى المرات حفلة موسيقى جاز، بالضبط عندما عزف لويس أرمسترونغ في خيمة سيرك نُصبت في الالميدا، وأهدى لنا يومذاك عملاء الإمبريالية اليانكية الثقافيين بطاقات دخول، نحن جميع تلاميذ المدرسة الذين حصلنا على سبع درجات بالإنكليزية.

قذفني سيبولبيدا يومذاك بأحد أشد النعوت المستوحاة من نفوره من الولايات المتحدة سخطاً. فهو يرى أن الرفاق الزنوج ليسوا مقبولين من ذوي الوجوه الشاحبة، ماضغة اللبان، النمشية، البلوجنزية، والمورفينية في السفارة الأمريكية، إلا لاستخدامهم في تبييض صورتهم كمتعصبين عنصريين يحملون السوط ويشعلون الحرائق الشبحية في ليالي الكوكلاكس كلان الجنوبية.

و***كوخ العم توم***، ليست إلا تزييفاً ترمي إلى تجميل الواقع، كُتبت كي يظل الزنوج مذعنين، ولا يتمردوا ضد الأسياد النخاسين والمتوحشين. أما لويس أرمسترونغ وابتسامته، فمن الواضح أنهم ملؤوا فمه، بالقوة، بأسنان ناصعة البياض، وتكشيرة سعيدة: بضاعة للتصدير والتلاعب، في محاولة غير مجدية لإجهاض الثورة البروليتارية التي ستطيح، دون كابح، بالطغاة وتنقل الشعب إلى قصور الحرية البرَّاقة. حتى في الولايات المتحدة نفسها!

كان سيبولبيدا قد سمع من أرمسترونغ *La vie en rose*، لكن إنكليزيته لم تسعفه بكل تأكيد لفهم *Black and blue: Even the mouse run from my house, what did I do to be so black and blue?* (ما الذي فعلته لأكون حزيناً وأسود إلى هذا الحد؟). وكان تأثري أكبر

ببصقته على هارييت بيتشر ستوو. ليس فقط لأني قرأت كتابها بتأثر، وفهمته على أنه هجوم ضد العبودية، وإنما لأنه كان الكتاب الوحيد الذي أخرجه عازف الترمبون ياكشيك من مكتبة جدتي آليا إيمار، عندما أحضرني في سلة، وفيه فقرات خطّت بيدها خطوطاً تحت سطورها، بحبر تحلل بسبب عبور المحيطات. لقد كان يتوجب على توم، حسب رأي سيبولبيدا، أن يهرب من بيت آل شيلبي مع الخلاسية إليزا وطفلها، وألا يبقى يلعق جوارب السيد لأنه «لا وجود لرب عمل طيب». فوخزته أنا قائلة: باستثناء الدولة الاشتراكية. فرد علي: «*الرفيقة* دولة، يا آليتا».

لكن ما سمعته تلك الليلة من نحاسيات باتشوكو ياكشك وفرقته الموسيقية يشبه الجاز بقدر ما يشبه الفيلُ طائرَ سنونو. صحيح أن موسيقاه كانت ممسوسة بحرية الشكل والأسلوب الملتوي للموسيقى الأمريكية، لكنه أدخل فيها كل ما نما، وتهجن، وأُضيء بالشمس والفرح في أميركا اللاتينية، بعيداً عن أقبية شيكاغو وعليّاتها. إنه جاز، ولكنه جاز متمرد بأسود بوما وبراكين، بأنهار أمازونية وشلالات، ببغاوات وجوارح، بفلفل حار وموز، بحمم وأناناس، بشهب وسمادل، بشقائق نعمان وزنابق، بزبد أمواج عملاقة وغرق.

والأسوأ في ذلك كله أن الرقص لم يكن ممكناً.

فعندما تمكنا، بمشقة، من حشر ظلينا في فجوة بين الجموع، هزنا السحر. لقد كانت عربدة موسيقية، ولكننا كنا محشورين وسط الزحام والدخان والعرق، فلم نجد إمكانية أخرى سوى السماح للإيقاع بالتحرك في داخلنا دون أن يتوافر لنا سنتمتر واحد من الفراغ لإطلاقه.

هذا يعني، أن تلك الموسيقى كانت تفعل بنا ما تشاء. وكان باتشوكو يرسل إليَّ غمزة بعد كل عزف منفرد، ويمد الترومبون حتى رأسي، داعياً إياي لأن أقفز إليه، أن أتأرجح على معدنه ذي الألف

وميض، مثلما فعلت لدى وصولي أول مرة إلى تشيلي، بكلمات أجنبية وباستحالة نسيان من لم أعرفهما، من لم أعرف نفساً واحداً منهما في الليل على جفوني، لم أعرف قبلة سريعة من أبي، ولا أمي تقدم لي ثديها.

عندما قررت أن أسمي نفسي باسم الجدة، فعلت ذلك لأنه كان ثمة فراغ دواري تحت قدمي، وكانت كلمتا آليا إيمار مثل حجرين مقدسين، تمنحاني الوهم بيقين ما. جوفانا لم تفهم ذلك قط. فالاسم في نظرها هو جزء من الشخص، مثل الشفتين أو العينين. وهي لم تتقبل قط خروج مجدلينا من جسمها.

كل هذه الأشياء ترد إلى ذهني في هذه الليلة. لا أدري إذا كنت أفكر، لأن التفكير هو جمع الخواطر من هنا وهناك، وتركيب الأزهار والعوسج في صورة، في باقة، في شيء يمكن لإحدانا أن تعرضه على الآخرين ليقول لها أحدهم إنه جميل.

ولكنني أنا، آليا إيمار، لدي أمور يقينية غير مصاغة. إنني مسودة شخص آخر، وهذه الفتاة القلقة تعرف في هذه الليلة أنها شيء أكثر منها هي نفسها. تعرف ذلك من مسامات جلدها، من فتحتي أنفها، من رطوبة عينيها، من نبض قلبها المسفوح في هذه الليلة، وهي متغلغلة بالموسيقى. إنني *أنا*. لا أكاد أجد فسحة من المكان تتيح لي الالتفات ورؤية بيدرو بابلو. وإذا كنت لم أشأ فهم مصطلح *الانصهار*، في أحد دروس الفيزياء، فإنني الآن، حيث لا وجود لأي سائل لزج أو مخبر لصهر المعادن، باستثناء مختبر الجنس، والترمبون والترومبيت، أرى أن هذه الكلمة المباركة تجمع كل شيء في حزمة واحدة.

وعندئذ جاء التطويب. أعرف أن حيواتنا مصنوعة من عدم اكتراث. من فتات صغائر نُحكي منها حكاية. وأن السنوات تمضي راكضة دون وجهة محددة، جامحة في عتمة الأزمنة، وهذا هو ما نسميه حياتنا. وتظل الحال على هذا المنوال إلى أن تتسرب حزمة ضوء، ولا تدري إحدانا كيف صارت الشمس *فيزيائياً* في بيتها. عند انتهاء

الغناء الجماعي الأخير لأغنية *Stars fell on Alabama*، وكانت اسطوانة هذه الأغنية عندي في البيت بأداء بوك كلايتون وفرانكي لاين، فعل باتشوكو ياكسيك شيئاً لم أكن أعرفه إلا في بعض مشاهد السينما، شيئاً كان يكهربني دائماً، ويجعلني أحلم بأنني في ليلة مجيدة آتية من ليالي نيويورك، سأكون أنا المغنية. مثلما جرى اليوم.

هز ياكسيك الترومبون ليخلّصه من اللعاب المتجمع في مبسمه، ومد لي يده كي أمسك بها، وقال:

ـ أريد أن أهدي المعزوفة التالية إلى هذه الآنسة الحاضرة هنا، والتي أودعتها قبل ستة عشر عاماً في هذه الأرض المباركة كساعي بريد عبر المحيط. كان اسمها آنذاك مجدلينا، مثل اسم أمها، وهي تدعى اليوم آليا إيمار، مثل جدتها. وأنا أيضاً كان لي اسم غريب. أظن أنه دراغومير أو فلاديمير. ولكن الجميع يسمونني اليوم «باتشوكو». لدي اسم آخر، ولكنني صرت رجلاً آخر أيضاً. وها هي ذي بطاقة تعريفي! من أجل نشوة تشيلي وحلمها! من أجل المتعة! من أجلكِ أنت يا آليا إيمار ومن أجل... ما اسم خطيبك، يا للعنة؟

ـ بيدرو بابلو ـ قال بالاثيوس وقد احمر في الجوهر والعمق.

ـ ومن أجل بيدرين بابلين، الذي يستمتع بهذه الأميرة وبكل أشيائها الصغيرة: ومن أجل المعلم غلين ميللر، أقدم معزوفة ***سيرناد موون لايت***!

إلى أين يمكنني الوصول منذ هذه اللحظة؟

XLI

شارع بنسيلفانيا 6500. ترررن... ترررن... ردوا من فضلكم على هاتف هذا المعتوه. فيأتِ فوراً رجال المطافئ الذين ساعدوا تنديريني في إخماد حريق المسرح البلدي المشؤوم. فعلى بعد أمتار قليلة من معبد

الفن الذي تُقدم فيه موسيقى موزارت وبتهوفن، ديبوسي وبروسل، فيفالدي وفاغنر، تدوي الآن موسيقى مضادة منفلتة من عقالها، هياج أسنان وألسنة، بصاق ذكوري ممن يخلطون بين الموسيقى وذروة زفاف عربدة، إنها حالة يجب أن تنقل عبر الوريد إلى وزارة الداخلية.

من الذي أعطى المدعو باتشوكو ياكسيك وفرقة براميله وطبوله تأشيرة دخول إلى تشيلي؟

في غفلة مني، قبلتُ الدعوة الخطية، المكتوبة بإنكليزية سليمة، من نادي الجاز في سنتياغو، تحمل توقيع السيد النبيل جداً سانتا ماريا، وسيد آخر يدعى هودكنسون، ويسمونه تحبباً «بيبي بيبي»، أتاح تسريب بعض الألحان الزنجية الكئيبة إلى فريق عازفي ياكسيك، وهم أبناء زنا بما يكفي لأن يجاريهم الجمهور باستحسان بقري. وقد كانت معدية ومنفرة بصورة خاصة أغنية تدعى *She* التي غناها هودكنسون بعبارات مفككة ومحزنة الدقة. أفراد الجماعات السرية المزدحمين عند قدميه في الفناء، يضعون كؤوس الشراب على البيانو، ويطفئون سجائرهم المقززة على ملامس الجهاز، أو في سترة عازف البيانو الغافل، وهو مستغرق في العزف، عن الأذى الذي يحدثه التبغ (مع الاعتذار من غوغول، صاحب خطبة التشهير اللاذعة والمتناقضة في الدفاع عن السيجارة).

الدخان الكثيف جعلني أعطس ممزقاً رئتي إلى فتات قطع رغوية مائعة، اضطررت إلى ابتلاعها، لأن الحشود الملتفة حول المشعوذ «بيبي بيبي» كانت تحول دون وصولي إلى النافذة الوحيدة المفتوحة لأتخلص من بصقتي الربوية (والنقدية الجمالية) على أحجار شارع ميرثيد.

بعد أن وافق السيد هودكينسون على إرضاء حماسة الرعاع المتأججين بلفافات المخدرات، وتلبية طلبهم بإعادة أغنية *She* ثانية، قفز السيد البشوش سانتا ماريا إلى المنصة، مستحماً بالعرق وتوابل أخرى يجهلها الصحفي كاتب هذه السطور، وكان له شرف الإعلان عن

مغنٍ مولود في الوطن الماليسي العذب (وهذه ضريبة أقدمها إلى البلاد التي أنجبتني، لأنها قادرة كذلك على السماح لماريشالات عظماء مثل تيتو أن يحكموها)، عرف كيف يصفي غبر مساماته لذائذ طعم المنطقة المدارية وجموح حرارتها المتأججة.

أزحت عن ركبتي رأس فتى كان يغفو عليهما في غيبوبته الأفيونية، وتهيأت لسماع لحن جاز على طريقة غيرشوين، حيث تتغلب مدرسة الموسيقى الطيبة على ميلودراما الحرب الأهلية الأمريكية، أو لسماع تشكيلة من ألحان الوطنيين الماليسيين، مثل: *المولدافا*، أو *لوحات معرض رسم لموسورسكي* أو حتى ألحان «*مراكبية الفولغا*»، وهي أغنيات لاذعة أعرفها في نسخ لغلين ميللر نفسه.

وباختصار، تهيأت لسماع شيء متنوع وخفيف، يناسب عمودي الصحفي عن العروض الفنية في جريدة *لاكينتا* الصادرة في سنتياغو، الجريدة التي تنتظر حضرتك منها الموضوعية، والنثر المرتبط بالنحو اللغوي السليم والجيد، إلى جانب تقويم مقارن يُدخل العرض في سياق عروض أخرى تتوافق معه، وتقومه بحذق، ورصانة، وبُعد عن الهوى.

مع ذلك، وبينما أنا أنقر الآن ملامس آلتي الكاتبة لإنجاز هذه المقالة، أشعر أن الغضب المتأجج في رؤوس أصابعي يكسر الأسلوب الوديع المعهود في مقالاتي أيام السبت. فعندما يطفح الكيل، يصير لكل صبر حدود. وما جرى هناك هو فيض هياج منوي جارف، حتى إن القمر نفسه أطل محمراً من الخجل بين زفرتين من ذلك الطوفان.

في الطابق الثاني من مبنى نادي الجاز في شارع مرثيد، والذي لا بد من تسميته، وبكل عدل، «نادي الشر»، ظهر باتشوكو ياكسيك يرافقه بيانو خفيض، وبطارية آلات نقر، وترومبيت وساكسيفون،

ودفوف، وبونغز، وطبول، وتروتروكات[1] وبيتو برازيلية، وجوقة جرذان مائية، وماراكاس[2] فيها كرات ذهبية، وحكاكات ظهور، وآلات إزعاج بدائية وناعورية منتزعة الأحشاء تبدو قرعاتٍ مجوفة أو كوتشايويوس.

إنني أكن احتراماً كبيراً للموسيقى الفولكلورية والبدائية في كل البلدان. إلى حد أنني قررت عدم سماعها أبداً كي لا أدنسها بتجهم حضوري. لقد تحملت في موطني موسيقى *التوروميا* ورقصت على أنغامها بتأثير الضعف العقلي الذي يميز مرحلة الشباب، وتبحري في الجهل.

ولكن، عندما يتعرض كنز أحد البلدان الإيقاعي والانتروبولوجي **للاغتصاب** ـ وأصر على الكلمة ـ بزنجية الجاز الأمريكي الفاحش والجنسي، المترع بالأرداف والعرق، وبضغينة جارفة متنكرة بكورال برونز مرح، يهز الأقدام أكثر مما يهز الوعي، لا تكون النتيجة سوى مخلوق مسخ، خلّف برازه في هذه المناسبة في وسط مدينة سنتياغو، ولن تكون هناك أمطار قادرة على غسله، لأن مادته السائلة لا يمكن أن تتحلل إلا في المجارير، وبهكتولترات من الكبريت الشيطاني.

يؤلمني أن أكتب هذا التعليق وأنا أعرف أن من دبر هذه القذارة هو واحد من أبناء موطني الحبيب شواطئ ماليسيا.

كم يزيد الضرر على الخير الذي سببته لنا أميركا!

لقد نلنا احترام الارستقراطيين الباسك، والإنكليز، والفرنسيين بفضل ديناميكية تجارنا. وشهرة أسرة مزدهرة مستقرة في تشيلي، لها اللقب نفسه الذي يحمله عازف الترمبون القواد، هي ما حملني للذهاب

---

[1] تروتروكا trutruca: آلة موسيقية تشبه البوق كان يستخدمها الهنود الأراوكانيون، السكان الأصليون في جنوب تشيلي.

[2] ماراكاس maracas: آلة موسيقية تشبه «الخشخيشة»، تصنع من ثمرة قرع صغيرة مفرغة وجافة، وتوضع بها أحجار أو كرات معدنية صغيرة.

إلى زريبة **نادي الشر** من أجل إشباع فضول هذا المجتمع الراقي الذي تُسوِّق لقب هذا الموسيقي في أجواء رجال الأعمال والمصرفيين؛ ولكن بصورة نادرة في أجواء الفن.

كان من الأفضل لي ألا أكون قد ذهبت. ولكنني بعد أن ذهبت إلى هناك لم أعد أستطيع إلا أن أصب جام غضبي في هذه الصفحة الكاملة التي طلبتها أول مرة في مسيرتي الصحافية الطويلة في أميركا، والتي لا يمكن مقارنة طولها إلا بمقالتي الرائدة لجريدة ***لالينغوا*** التي كتبتها عن المهاجرين الماليسيين في رابالو عام 1913 أو 1914، وهو عام لا أتذكره بوضوح لأن موتى كثيرين مروا من تحت الجسر منذ ذلك الحين.

الموضوع الأول الذي طحنه باتشوكيو مع أتباعه، كان معزوفة من تأليف هوغي كارمايكل بعنوان *Stars fell en Alabama*. هواغي المسكين الذي ولّد عشرات الكلاسيكيين، تُثقل عليه وصمة أنه ألف موسيقى ***ستاردست*** التي تحولت اليوم إلى نشيد للشاذين ومعزوفة مبتذلة لدى جميع المخنثين، هؤلاء الشبان الراقون المعروفون بـ الكارلوس ماريا، ولا تهمني الكنية ولكنكم تعرفونهم بكل تأكيد، يحلمون بأن يؤجروا لهم ***ستاردست*** في أحد الأيام.

الموسيقي الأمريكي الزاهد ذو القبعة وحمالات السروال، لم يتصور قط أنه سيأتي يوم يعمد فيه فنزويلي من أصل ماليسي على إفساد موسيقاه حتى البنكرياس بضجيجه في النقر على الطبلات، وإفلاته اللعاب القاتم في مبسم آلاته النفخية، موجهاً سحابة الترومبون نحو فتيات الجمهور، وبعضهن من طالبات **الجامعة المقدسة**، كما لو أنه يضاجعهن.

إنني أعلن بكل تفخيم، هنا في جريدة ***لاكنتا***، أن باتشوكيتو في معزوفته الأولى حوّل كارمايكل إلى هباء بانتهازيته مزدوجة المعنى وهو يشير إلى مؤخرات الراقصين وبلل الأعضاء الجنسية أكثر من

إشارته إلى التأملية الغنائية في.

I never thought in my imagination a situation so heavenly: a fairy land where no one else could enter, and in the center just you and me.

على العكس تماماً مما فعلته أنت أيها الحكاك ياكيسك!

لقد فتحت سيادتك الباب للرعاع. وحولت حلم هوغي كارمايكل الحميم إلى هياج جماعي. وبللت أفخاذ الفتيات المحمومات في مغارة الدخان والكوباليبري بالصراخ كل ثلاثين ثانية «فلنستمتع!»، كما لو أنها القيامة، الجحيم عارياً، كارلينا في الباليه الزرقاء مقلوبة.

البرونز يهيج المؤخرات والأرداف، وبقية حضور الجولة الإيقاعية كانوا فاقدين الوعي بكل معنى الكلمة، وبقع مني على سراويلهم الداخلية وعلى سيقان بنطلوناتهم.

إذا كان هذا هو الجاز، استبقوني خارجاً *count me out!*

خاص لجريدة *لاكينتا*، بقلم أندريس غوميث ستارك.

XLII

مياه المحيط الهادي الجنوبي باردة جداً. ما إن تسبح فيها مرة، حتى تبدو لك جميع الشواطئ السياحية الأخرى ساذجة. لا بد أن هناك تناقضاً في الحرارة بين اليابسة والبحر. هكذا بدأتُ أدرك أنه لا بد أن تكون هناك علاقة بين ليلة الجاز تلك وصلواتي في معبد السينما. فوسط الموسيقى وقبالة الشاشة، كنت أنا أكثر أنا. ليست المسألة هي كوني أكثر أنا، لأنه من الصعب الخلط بين أن تكون إحدانا مشاهدة أو أن تكون بطلة. ولن أكون أبداً من البلاهة بحيث أتبنى أن المغامرة التي عاشتها الممثلة على الشاشة هي مغامرتي. إنني أطابق

نفسي مع البطلات طوال فترة عرض الفيلم. وحين تضاء الأنوار، أشعر بالسخط لأن الرب ليس كاتب سيناريو متماسك. ليس شخصاً يقدم لي الحياة كاملة في ساعتين. في مشاهد تتوالى خلال ساعتين. في مشاهد لانهائية تتوالى خلال ساعتين.

أريد أن أقول إنني في السينما لا أكون أكثر **أنا**، وإنما أكثر **لست أدري ماذا**. لدى الخروج يكون الواقع حجراً أتعثر به. العينان تتعرضان لقصف الشمس والروتين، والساحة تنسج مصيدتها الغرامية من بائعي الفول السوداني، ومربيات الأطفال المتبرجات، والمريلات البيضاء، والمتوددين الخجولين الذين لا يتجرؤون على إمساك اليد. السينما تولد فيكِ الوهم بأن الحياة يمكن لها، ويجب عليها، أن تكون أسرع من عسل اللامبالاة هذا الذي تغرقين فيه دون أن يشفق عليك أحد.

بينما ترومبيت *سيرناد موون لايت* آخذ بملامسة النجوم واحدة فواحدة، عرفتُ أن هذا اللحن يجب أن يكون مقدمة لحياة جديدة، يجب أن تُجمع فيها أجزاء قصتي المفتتة كي تمنحني مغزى. في هذه المرة فقط لا أريد لأحد أن يعيش نيابة عني؛ لن أسمح لصمتي بأن يمتلئ بظلال أشباح أشرطة السيلوليد. ولن انتزع جسدي كذلك من هذا الذي يقدمه باتشوكو بوقاحة وعذوبة، موسيقى تربط بصمغ سحري لاصق بين الكائن والأحلام، تربط الرغبات بالجلد.

وعندئذ تطردك الحياة إلى سنتياغو، إلى رذاذ المطر اللجوج، البرد النفاذ، السيجارة المتدلية من الشفتين، بيدرو بابلو دقيق ونهائي لكنه بلا وجهة محددة. ربما كان بمقدورنا، نحن الاثنين، أن نجمع ما لدينا من نقود من أجل استئجار غرفة في فندق، مع ما يرتبه علينا ذلك من انتظار دورنا في الصالة ريثما يخرج ثنائي ممن يستأجرون الغرفة لساعتين، تاركين آثار حميميتهما على الملاءات، بينما الفتيات المرتديات زي الممرضات يبدلن الملاءات المتصلبة بالمني، بأخرى تعبق

بنداوة مسحوق الغسيل. لكنني كنت خجلة من الدخول إلى فندق للعشاق، ويبدو أن بالاثيوس لاحظ ذلك، أو ربما كان يحلم بمشهد آخر يتناسب مع طريقته في الحياة.

تشبثتُ بمعطفه وغطّستُ أنفي في قماشه الخشن والرطب، وشجعته على التقدم لنجتاز ساحة السلاح، والكونغرس الوطني، وقصر لامونيدا، والمركز التشيلي الأمريكي، حتى الوصول إلى شارع سان مارتين، حيث كان كراج الشفروليه. أدخلت المفتاح في قفل بوابة الكراج المعدنية مبدية تصميم أسد مترو غولدن الذي يزأر بتسلط كي يكتفي بعد ذلك بعدم المبالاة. الجميع، من فيفالدي حتى تشت بيكر، كتبوا افتتاحياتهم الموسيقية من أجلي. كان قراري الصغير هو سعادتي في حي القطط المبللة والحمائم الكثيفة هذا. لم تعد ثمة حافلات تمر، ومازال هناك وقت طويل لمجيء بائع الحليب كي يترك قناني الحليب عند الأبواب. إنها سنتياغو جديدة تماماً بالنسبة إلي. إنها حول خصري مثل تنورة واسعة، بغبارها وعدم ثباتها، بابتسامتها الدرداء ورخاوتها، بانسحاقها بين التلال وسلسلة الجبال، ولكنها لي بصورة حميمة.

رفعت ستارة بوابة الكراج المعدنية بصخب، ولم أهتم بانتزاع الجيران من أحلامهم المفزعة. أضأتُ مصابيح النيون، وظهرت هناك جوهرتي الزرقاء، حرير هيكلها الذي لا تشوبه شائبة، جلد مقاعدها اللامع، مانع الصدمات الكرومي، هوائي المذياع الجديد الذي تعلوه راية إنكليزية، العجلات الملمعة بالشمع. سيارتي كلها مثل وحش ضار يقبع منتظراً مداعبتي، نوع من البحر الصغير الذي يرغب كل من يراه بالغرق فيه.

قدمت المفتاح إلى بيدرو بابلو الذي كان ينظر إليها بنشوة.

ـ هل تشعر بالخوف؟

ـ إنها سيارة فارهة.

- سيارة أفلام، أليس كذلك؟
- إنها دمية فاخرة. نمر كرومي في قفصه.
- ستسمعها عندما تمشي، إنها تزأر.
- تمد مخالبها تأهباً للانقضاض وتندفع بسرعة خاطفة، مثل ظل، على الطريق؟

دنا من لوحة القيادة ووضع يده على كل واحد من المؤشرات والعدادات والساعات. ولخوفه من أن يكون قد لوث بفتات التبغ خشبَ لوحة القيادة الثمين، مرّ عليه يمسحه بكمّ سترته.

مددتُ إليه المفاتيح الرنانة، فوقف ينظر إليّ دون أن يأخذها.

- ماذا تريدين؟
- إذا شغلتها، يمكنك إشعال المذياع.
- أخشى أن أرتكب خطأ.
- مثل ماذا؟
- أن تكون أول موسيقى تخرج من المذياع غير مناسبة للسيارة، ولا لنا، ولا لهذا الذي نحن فيه.
- هذا الذي بيننا؟ – كررتُ.
- بالطبع. أو بكلمة أدق، نحن اللذان في هذا.

مضيتُ حتى شفتيه. وضعتُ إصبعاً عليهما وجبتهما بوقار. إنهما ينبوع كلماته. أهذا الفتى هو الناطق الرسمي بصمتي؟ هل هنالك بي ما هو أبكم وعاجز عن التعبير، صمت سري يجد الآن وسيلة تعبير في كلماته؟ في حفنة إيماءاته الصغيرة؟ لقد بث في حذره دفعة واحدة. لست أريد تحديد ما يعنيه هذا الذي نحن فيه، ولا نحن اللذين في هذا، ما لم أعش ذلك *كله*.

وفي تلك اللحظة، زعزعت يقيني رعشةٌ مفاجئة. أتراني أروق له؟ لماذا لم يقبلني حتى هذه اللحظة؟ لا يمكن إنكار أن وجهي موشوم بمورثات أوروبية. وفي كل سنة دراسية أزداد شحوباً. في كل سنة

أصاب بعدوى زكام ما، فتحول الحمى بشرتي إلى لون قرمزي، ويقدم إليَّ الأطباءُ عملياً شهادة الوفاة إلى جانب آخر المضادات الحيوية. وماذا إذا كان يفضل السمراوات اللذيذات والشهيات اللواتي تهتز أردافهن ومؤخراتهن في ظل ترمبون باتشوكو؟
كلماته.

لقد كان بالاثيوس وحشاً حبيساً، وبكلماته وحدها ينال الحرية. لا حاجة لأن تكون تلك الكلمات هي كلمات شكسبير أو نيرودا. يكفي أن يقول شيئاً لكي يمزق رداء الروتين الرمادي، ولأن تدخل شُهب الشمس من كل الأنحاء. حتى وإن كانت الحروف تشكل، في آخر المطاف، كلمات تخلو من أية فخامة. مجرد **نحن *اللذين في هذا*.**
أهي نهاية الرحلة؟

- ماذا أفعل بالمفاتيح؟
- سأقدم لك خيارين.
- إنني أرغب دوماً في أن تتوافر لي خيارات مفتوحة.
- الفندق أو السيارة.

نداوة مفاجئة أزاحت كآبة الساعة الثالثة ليلاً. بدا كما لو أنه يفكر في خياراته بينما هو يتأمل الشفروليه مترصداً، خوفاً من أن تقفز السيارة فجأة وتعضه؛ وضع لعاباً على أحد أصابعه، مسحه ببنطاله، ثم غرسه في فرش المقعد الخلفي ليقدر مدى طراوته.

عندئذ خلع حذاءه. عندئذ ألقى جوربيه جانباً. عندئذ خلع الكنزة ووضعها فوق رأسي. عندئذ نظر بثبات إلى عيني. عندئذ ألقى قميصه بعيداً. عندئذ أنزل سرواله الداخلي وبنطاله حتى الأرض. عندئذ رفع قدميه ليتخلص منهما. عندئذ أغمض عينيه بعمق مركّزاً، كما لو أنه يستطيع هكذا أن يكون البطل والشاهد في حلم لم يكن له شكل منذ ألعابنا الطفولية في ساحة البرازيل.

XLIII

انطلقنا في الطريق إلى البحر، ربما لأن هذه البلاد كلها تنقاد لهذا الاتجاه. مررنا من الضواحي الغربية الخربة. كان العمال ينتظرون الحافلة وهم يحملون صرة الغداء معلقة بأيديهم التي بلا قفازات، والنساء المتدثرات بمعاطف حمراء أو خضراء يهززن أكتافهن مرتعشات من الصقيع. أشعل طالب، أثناء توقفنا عند الإشارة الضوئية الحمراء، أول سيجارة لهذا اليوم، وكان شعره يتجمد جليداً بفعل قطرات ماء الدوش الذي استحم تحته للتو. كان هناك ضباب كتوم، بقايا رذاذ، وجوه بعيدة، وسلسلة الجبال غير المرئية.

لم أشأ أن أقول شيئاً، لأني كنت موقنة من أنني إذا ما كسرت الصمت، فإن شيئاً فجأ سوف يفلت من شجرة غير موجودة ويتفزر تحت عجلات الشفروليه دي لوكس. للمرة الأولى في حياتي انصهر الزمن لي في برهة واحدة. غمامة ضباب من الماضي متحللة في دفقة شمس. والمستقبل يمكن له أن ينتظر، ربما لأنه متضمن في هذا الحاضر الذي يمتد على طول الطريق العام.

في محطة الخدمة أفرغنا ما في حقيبتي وجيوبه. المبلغ يكفي لشراء علبة سجائر، وملء خزان الوقود حتى حافته، وزجاجة حليب، والصحيفة التي فيها نقد لاذع لحفلة باتشوكو ياكسيك الموسيقية، وعلبة بسكويت أسمر. دخلتُ إلى الحمام أثناء ملء خزان البنزين، ورأيت أنه لم يبق أي أثر لمكياجي. أحمر الشفاه سال مع القبلات إلى أن ذاب على لسانه، كحل الرموش طار مع النظرات متنوعة الزخم، والليلة الباردة محت عن جبهتي ومضات دخان نادي الجاز.

من الباب لمحت بيدرو جالساً على مانع صدمات السيارة. عيناه تتطلعان إلى الأفق، حيث تتعاظم بقعة برتقالية بين السحب الرمادية.

كان كما لو أنه معلق في الزمن.

انطلقنا. أنا تمسكت بهذا البكم الذي يجوب ما عشته ولا يجد كلمة تكون أفضل من حيطة الصمت. كنا نمضي بسرعة مئة، وكلما تجاوزنا شاحنة كان سائقها يصاب بالحول لمرأى الشفروليه. ربما يظن أولئك السائقون أننا أبناء أناس أغنياء، وأننا خلال ساعة من الزمان سنكون في كاتشاغوا أو ثابايّار، في بيت ذوينا الأثرياء. وبدلاً من المحار البحري، كنت أقضم ببطء قطعة بسكويت بالشكولاته، بنية واضحة في ملء فمي بأي شيء، على ألا يكون كلمات.

- لا تقولين شيئاً - نظر إليّ بالاثيوس جدياً.

- أخاف أن أتكلم يا فتى. أشعر كما لو أن جسدي قد تقدم كثيراً على الكلمات. لا أريد الرجوع إلى الوراء، أتفهمني؟

- أما أنا، بالمقابل، فأحتاج إلى الكلمات لكي أدفع جسدي للسير قدماً. إنها تُشعلني. بل إنني أعتقد بأنه إذا لم تكن ثمة كلمات، فلن يكون هناك واقع.

- «فكان نور.»

- عمّ تتحدثين؟

- عن الكتاب المقدس. عن أن الرب قال فليكن نور.

- ولم يكن النور.

- أما الظلمات فكانت.

- هذا يكفي للمواصلة قدماً، صحيح؟

- أوافقك.

- الاقتباسات تضايقني. كان معنا في الصف تلميذ أرجنتيني، يحفظ *مارتين فييرو* عن ظهر قلب. وفي كل مناسبة يخرج بعبارات للتجمل.

- مثل ماذا

ـ «يمكنني أن أؤكد أن البكاء، مثل امرأة غادرتُ؛ آه يا ربي، لو أنني ظللتُ، أشد حزناً من خميس الآلام.»

ـ وماذا عنكَ أنت؟ تمضي الوقت في الاقتباس من شكسبير.

ـ هذا أمر آخر.

ـ ليس أمراً آخر. إنها اقتباسات.

ـ ما يضايقني إذن هم من يقتبسون. لأنهم كمن يرغب في شرح شيء تافه يحدث لكِ وإضفاء أهمية عليه دون أن تكون له أية أهمية. عندئذ يطلقون الاقتباس ويقتلونك لأنهم يجعلونك تشعرين بأن هذا الذي تعيشينه حدث ذات يوم، ولكن بصورة أفضل من الآن. وأنا أفكر في أنه مهما كانت حياتي تافهة، فإنني لا أريد من يختزلها في شاهد أو اقتباس.

ـ أنت تناقض نفسك على أي حال.

ـ أناقض نفسي، وماذا في ذلك!

ضحك، أبعد يده عن خشب المقود الأنيق، ووضعها على فخذي، ورفع تنورتي إلى أن لمس كتلة الشعر في أسفل بطني. كان الفجر قد بزغ أخيراً، فضغطت الزر مطفئة الأنوار.

ـ لماذا تضحكين؟

ـ «أناقض نفسي، وماذا في ذلك.» هذا اقتباس أيضاً، من والت ويتمان.

المنعطف وضع البحر أمامنا في المنحدر. مرة أخرى عاد ليستقر بيننا، أو وسطنا، أو معنا، ذلك الصمت الذي تفرضه الطبيعة على إحدانا عندما تكون مستعدة لسماعها. أعرف أنني كنتُ مخلوقة بحر. وأن البحر كان يمحو طوال شهور اقترابي من ثدي أمي ومن خديّ أبي. لقد حلمت مرات كثيرة، في طفولتي، بأنهما سيظهران مجتازين ساحة البرازيل، باللون الباهت للأفلام القديمة، هي بثوب أزرق تزينه بقع بيضاء، وهو بقبعة عريضة الحواف وصدرية.

لم يكن البحر بالنسبة إلي مجرد حضور ألق ومهرجان زبد وحسب، ولا جموح صخور متشابكة، ولا أسماكاً طائرة، ولا سفناً تمضي إلى وجهات غير مؤكدة، ولا زوارق صيادين في تبعثر حالم. تُرى، هل ما زال زورق **سمكة القرش الكنارية** في أنتوفاغاستا؟ لقد كان المحيط، بالنسبة إلي، مهداً قبل كل شيء؛ قعر هذا الماء الذي تدب فيه مسوخ عملاقة وأعشاب هذيانية، وسفن غارقة، ورمال كأنها مسحوق الماس. ففي تلك الرحلة، في سنوات الأربعينيات، بين ذراعي باتشوكو ياكيسك، لا بد أنني ابتلعت اتساعات من الوحدة بينما هو يبث الحماسة في نفوس الماليسيين، في عنابر السفينة، بألحان الجاز المتفلتة التي يعزفها. فطيات البحر، إلى جانب ما تخبئه من صناديق كنوز القراصنة، تخبئ ذاكرتي، تخفي الجزيرة المفقودة، ومجهولية أبوي في أعمال ربما خلّفت أثراً يمكن لي أن أسترده بعمل مستهتر فقط. وأمام هذا الحدس للمديوسات وصهارة المهل، لأشنات بحرية وطحالب منتزعة من ذهني، أدركت أنه بين هذا البحر وكل البحار، هناك بحر هاويتي. هذا الفراغ الذي أردت ملأه بتسمية نفسي باسم آليا إيمار، مثل جدتي الضائعة في رمال الأسطورة والعار.

- ماذا جرى يا صبية؟

- الشيء نفسه مرة أخرى.

- هذا يعني؟

- أن الجسد يمضي أسرع من الكلمات.

- إنني أرغب بجد أن تروي لي الحكاية.

- إنها حكاية لا تنتهي. حكاية لها علاقة بكوني شقراء، وذات أنف حاد. إنها قصة عن اسمي.

- هيا، ابدئي!

- لا كلمات لدي، إنها صور وحسب.

ـ أطلقيها. عندما تفلتين صورة، تفتح الطريق للأخريات.

ـ وجميعها معاً لا تصنع معنى.

أبعد بيدرو يده عن زغب أسفل بطني وألصقها بأنفه متشمماً بسعادة. انزلق دون حذر في المنعطف فوق الهاوية، وضع السيارة على طريقها بمهارة، وانفجر ضاحكاً، وهو يريح مؤخرته على المقعد.

ـ ممَ تضحك الآن؟

ـ من المدير. لقد طفرت الدموع من عينيه عندما رأى سندوتشه يداس على الأرض.

ـ يجب ألا يضحكك ذلك. فقد طردك من المدرسة.

ـ آليا إيمار: لقد طردني إلى الجنة.

ـ ماذا تقصد.

التفت لينظر إليّ، ومر بيده بعنف على الأنف.

XLIV

آه، يا ليلة أسراب كلاب ضارية وكلبات شبقة! فلتأت نسور الرخمة المشفقة ذات المناقير الحادة وتغور محتفلة في أحشاء من سيسقط! ولتعمِ عواصف سهوب البامبا برمالها القاتلة عيني الضحية الزائغتين!

هذه هي الليلة الليلاء للمعركة الأخيرة. ليس ثمة تراجع على قطعة قماش الخيم المرنة التي تغطي الحلبة، والجريحة بصورة مرئية بالبقع الاحتضارية لملاكمين آخرين قدموا من قبل دمهم على مذبح الرياضة المحببة لجمهور مدينة أنتوفاغاستا الذي يقدس الملاكمة والنحاس.

خلال دقيقة ستصمت النبوءات وسيحسم متنبئ أوراكل الحقيقة الخالصة. لن يكون هناك سوى منتصر واحد يُرفع إلى طبقة المجد

العاشرة، ومهزوم يعض ديدان الأرض وبراز القطط في فناء الحانة.

هنا ستجري المواجهة بين ابنين نبيلين من أبناء هذه الصحراء. برزا بجهود الإفراط بالشجاعة والطموح.

أحدهما صاحب قبضة قاتلة، ولم يجد له الفلكلور المحلي المنجمي لقباً أفضل من «**ديناميت**». ويحمل هذا الرياضي الكنية نفسها التي للشاعر فيكتور دومينغو سيلفا، المولود في تونغوي، والذي هو اليوم أكبر الشعراء الغنائيين التشيليين. ولست أعني سوى ذاك الذي كتب مرتجفاً: «أيها المواطنون، من ينادينا في هذه اللحظة، بحدقتين ملتهبتين ويدين جامحتين؟».

ديناميت يقوم بتحمية سابقة على الحلبة، ويوجه لكمات متخيلة من أسفل نحو فك الريح المتفلت.

ها هو انفعال هائج ينتزع الجمهور بأسره من مقاعده الآن، وتهتف الحناجر في وقت واحد باسم رباني في منطقة البامبا: «طوربيد، طوربيد، طوربيد!»

الجمهور/*المحترم* يفقد أعصابه. ومع أنه لم يجر بعد تبادل أي مراوغة، ولم يُطلق أدنى تهديد، بل لم توجه كذلك لكمة واحدة، وأقول بكل صراحة وحسم، إن الملاكم الخصم لم يصعد بعد إلى مذبح التضحيات؛ وكل ما هنالك أن الجمهور قد تعرف على جسد سيلفا الداكن، على عباءة **الطوربيد سانتشيث**، وهذا نجم قبضات ملاكمة قديم؛ وقد انتقلت عباءته في إتاوة رجولية من بطل إلى بطل، وها هي عباءة الملاكم المتوفى الملحمية تخطر اليوم بكل أبهتها على جسد سيلفا.

من الطوربيد إلى ديناميت: كم من الملاكمين غرقوا تحت هذه الصواريخ!

أجل يا طوربيد، نعم مدوية لاسمك الخالد، لظلك العابر والسري، لهيكلك العظمي الخفيف الذي ينسل في أوقات التدريب الشاق إلى

مئات الملاكمين حباً بالفن وحسب، بالهدف الإيثاري الوحيد بأن يقوّي المستجد قبضته ويهز مؤخرته، أن يسبق بصره إلى الموضع الذي ستوجه إليه هذه القبضة الماكرة، والفك ينضغط مرناً، متابعاً موسيقى بالية سرية.

ولكن، لحظة أيها السادة! أطلب منكم لحظة انتباه حماسية وهادئة. من هو القادم من هناك بكل هذه الرشاقة والوسامة؟ من هو مصارع الثيران المشوق هذا الذي يجر الرداء على الأرض في كناية واضحة إلى التواضع، وبصمت يصرخ في الليل النجمي *لستُ أحداً، أنا لا أحد*! من هو صاحب هذا التذلل، من هو هذا الفارس المسيحي الذي يخترقه مثل أعلى: الكيخوتي مديد القامة الذي عليه أن يواجه هذه الليلة جمهوراً محموماً ومعادياً، هذا المسخ ذو الألف رأس الذي يخلط بين السياسة والرياضة، ويقلب أفضلياته بلا نبل ولا مرونة إلى ضارب النحاس وملح البارود المعهود.

سيداتي وسادتي! معكم إذاعة كاليتشه في بث مباشر. وقد دخل للتو إلى الحلبة السفلى رمح مهيب، الرجل العظيم، الرهيب، الفارع واللانهائي، الباحث عن النجوم، الإمبراير ستيت بلدينغ بين الملاكمين، راعي السحب، حارس الأعالي، الفريد والوحيد، السريع والجبار، الهائج والبلوري، *the one and only*: إنه **النحيل أوليفر**!

غضب جحر نمل مدوٍ يصمّ أذني. اعذروني يا مستمعي إذاعتنا من كل الأيديولوجيات، والأديان، والمذاهب على هذا الكلام الفظ الذي يخرج من روحي. فقد رضيت مغادرة كرسي الصباح المريح في جريدة *الهيرالدو* وجئت إلى المايكريفون المتأجج في هذه الحلبة لأكون ناقلاً موضوعياً، مبادراً، وصادقاً لوقائع المباراة.

لكن ما أراه اليوم يخرجني عن طوري. لم تُحترم جسارة النحيل أوليفر في التجرؤ على القفز من كهوف الهواة إلى حلبة الاحتراف ليواجه محدلة ساحقة مثل الديناميت سيلفا. صحيح أن قبضتي هذا

الفحل الأخير هما حديد وصخر من البامبا، ولكنه في الوقت نفسه رجل انساق لإغواء نعيب نسور رخمة الشيوعية، الأيديولوجية البغيضة التي تسحق بكرشها البدين المقاطعات الخصبة سابقاً في أوروبا الشرقية، والتي ربط سيلفا سمعته بمخالبها الانتهازية، لهدف وحيد وخسيس هو الدعاية لأسوأ نموذج من أكلة القسس: المرشح الشيطاني سلفادور ألليندي.

أتسمعون الشتائم أيها المستمعون اللطفاء؟

إنها ليست موجهة إلى النحيل أوليفر، غير الشعبي والمجهول، الذي يسمح لمساعديه بهدوء وسكينة قاض في المحكمة العليا أن يضعوا له الواقية الفموية، وإنما هي موجهة إليّ، إلى الخادم الذليل الذي ينقل إليكم، بلا تأثر ولا عواطف، وقائع هذه المباراة النجومية.

اسمحوا لي أن أقرب المايكريفون من هذه الجموع الحربية التي لن تتورع عن شنقي بسبب أفكاري الديمقراطية وموضوعيتي الصحفية، إذا ما منحها الحظ بطاقة الفوز في مباراة هذه الليلة.

لقد سمعتم بآذانكم عباراتهم البذيئة. واعذروني لأني لم أستسلم لهم، ولم أظهر الخوف من هذه الشراذم التي تُخضعني للإرهاب السيكولوجي الشائع في معسكرات الاعتقال في سيبيريا. اعذروني على كلامي الحاقد، فهو تعبير عن روح مكلومة ومشبعة بالتشيلية على الرغم من *راءاتي* الأجنبية ومن تقدمي في السن.

نعم، نعم، يا أبناء العاهرات! أنا مع أليساندري وضد ألليندي! أحب وطن البريق والأمجاد العسكرية هذا، ولا أريد أن يسحقه الحمر بجزماتهم عديمة الإنسانية!

ولكن، ها هوذا الحكم بزيه الأسود الرسمي، يدعو الخصمين إلى منتصف الحلبة، التوتر ينتقل من هذا المحترف إلى حيث يكمن فضولكم.

إنني أتوجه، مع كل المستمعين، بهذا السؤال: هل سيتمكن

أوليفر الرشيق والطويل، بقامته التي كقامة لاعب كرة سلة، أن يتفادى لكمات سيلفا في الجولتين الأوليتين؟ إذا ما تمكن من ذلك، أكرر: إذا ما تمكن من ذلك، فإن احتمالات فوز هذا الكيخوتي الهاوي ستتزايد ثانية فثانية، ودقيقة فدقيقة، بدءاً من الجولة الثالثة.

لقد أعلن سيلفا لكل من هو راغب في سماعه بطيب نية عن تفاصيل استراتيجيته. أما النحيل جداً، فيعرف أن قوته تكمن في لياقته البدنية بقدر ما تعتمد على افتقار خصمه اليوم لشروط اللياقة الجسدية. ودون أن أكون متنبئ دلفي، يمكن لي أيها المستمعون اللطفاء، أن أخبركم مسبقاً كيف ستكون هذه المباراة.

فور قرعِ صنج البدء، سيأخذ أوليفر بالتقافز مثل شبح على الحلبة، متنقلاً خلال المئة والثمانين ثانية بين زوايا الحلبة الأربع. أما سيلفا، الثور المحموم، العقائدي، بليد الذهن، الدوغمائي، فسيمضي بيسراه المترصدة محاولاً النيل من خصمه الصابوني الزلق وتوجيه ضربة قاضية إليه. غير أن الممثل الضامر، إنما الرجولي، للشعب المنضبط والنزيه، سيتفادى تلك الفظاظات بردٍّ جذعه إلى الوراء مما يُفقد ديناميت توازنه.

ولن يكون المحكمون مكفوفي البصر عن مزايا النحيل، وسوف يضيفون نقاطاً لمصلحة براعته الفنية مما سيهيج سيلفا الشحمي، البدين، البدائي، العادي، الكحولي، ويكبرته باليأس إلى حدّ الرعونة. ووسط خبطه الأهوج بيديه كغريق، سيُتاح ليمنى أوليفر الضعيفة، إنما الدقيقة، أن تتسل لتطرق وجنتي الخصم وكبده، وعندئذ سيزداد تعاطف المحكمين المحترفين معه.

أخيراً، ها هو ذا صنج البدء يدوي، الجمهور يعوي بشراهة للمجزرة التي لن يحصل عليها، يمكنني أن أ ـ ؤ ـ كـ ـد ذلك، وإذاعة كاليشيه تضع منذ هذه اللحظة كل اللحم على المشواة! على بطولة وزن الوسط يتواجه ديناميت سيلفا ضد أوليفر توميك! القوة البهيمية

ضد العبقرية! الماضي ضد المستقبل!
يرعى الاستراحات بين الجولات:
مرطبات **بيلز وبيدو**. الشقراء والسمراء.
أحذية **باتا**. قلنا **باتا** وبدأنا المشي.
ماما، غاليتي ماما: أريد **شعيرة إمولا**، لذيذة من أقصاها إلى أقصاها!
شموع بارايسو. تظل مشتعلة لأسابيع بعد عيد ميلادك.
صباغ الأحذية **غوستر**، لقدميك
مثبت الشعر **غلوستورا**، لرأسك.

سواء أكان السبب الريح أم الشمس
النبيذ أم البيرة
أي ألم في الرأس
يخلصك منه قرص **جينول**.

قلق، سخرية، اضطراب بين الجمهور. لم يعد الملاكمان يوليان اهتماماً لمواعظ الحكم، وعيونهما المتكبرة تتكهرب بالتبادل. هذا كله يَعِدُ بعرض مشوق أيها السيدات والسادة! المساعدون يغادرون الحلبة، ضربة صنج، وبدأت الجولة.

ديناميت في منتصف الحلبة، واثقاً بثقله، يراوغ ويمسح أنفه، يراوغ ويوجه ضربة مستقيمة في الفراغ. أوليفر يُنزل ذراعيه، مستفزاً خصمه. إنه يضرب أحد قفازيه بالآخر الآن، يبدأ التقدم راغباً في الالتحام.. إنه يبدل رأيه ويتراجع. سيلفا يرصده بصورة آلية، والنحيل يتراقص حوله. لا يلمس أحدهما الآخر، ولا يقترب أحدهما من الآخر، هناك شيء لا يمضي على ما يرام هنا، ولكنه يمضي الآن، يركض، وتطير لكمة ضائعة في الفضاء الفلكي، وأوليفر يبتسم ويتقهقر نحو

الزاوية الأخرى، إنه ينفذ الخطة مثلما وضعها، أيها السادة، الثور العدواني والفظ، والرداء الأحمر الذي يبتعد عنه ويبث فيه اليأس، والسيد الحكم يؤنب النحيل، وأنا أتساءل بأي يحق يفعل ذلك، فكل ملاكم يلاكم على طريقته، وتمر الثواني، وتنقضي كذلك الدقيقة، والقملة أوليفر يتلاشى من أمامه مثل ظل، وتتسرب المباراة كأنها الماء من بين أصابع البطل، ويبدأ بتعرق نبيذ أحمر من شدة الغيظ، بينما خصمه خسة يانعة، مرن مثل عضلة مغزلية مفعمة بالحيوية والنشاط. تنقضي دقيقتان، وأخيراً يتمكن ديناميت من لمس عضد أوليفر بلكمة عابرة، بينما هذا يذهب ويجيء، ويقلص المسافة بينهما إلى متر واحد، ويوجه إليه لكمة على جبهته المتلألئة بحبات العرق، هذا ما لم تكن تنتظره يا سيلفا الصغير المتبجح، ولم تكن تنتظر كذلك الضربة باليمنى على كبدك التي جعلتك تفلت لعاباً، ولا اللكمة الموجهة إلى فكك من أسفل، وسببت لك صعقة كهربائية في شعرك. الغضب لن يفيدك في شيء، لأن أوليفر قد تراجع وصار في ركنه، يومئ لك أن تتقدم نحوه، أن تنصرف، وماذا يجري يا بطل، هل أوجعتك الضربة، هل سبب لك البروفيسور «واوا» ، هل سنجوب الحلبة، ونخرج متعثرين، أيكون السبب هنا هو قالب حذائه؟ والمسؤولية والمنهج يتوصلان إلى هدفهما، الانضباط والحصافة، الحساب الدقيق والمياه المعدنية، التواضع البارع الذي يحطم العجرفة. لا وجود لأي سكير شيوعي يمد له الكأس على ما يبدو. والجمهور الذي سينقلب عليه كما يبدو. الغضب يجعله يلف ويُفقده توازنه كما يبدو، وها هو الآن يتزلج فوق بركة من عرقه، ويسقط على وجهه فوق الحلبة والجمهور يضحك، ها ها أيها الديك المحمر العينين غضباً، ماذا جرى لك أيها البقية المحطمة، و... ضربة صنج، نهاية الجولة!

خلافاً لكل التنبؤات، أوليفر توميك يقدم مدرسة جديدة في الملاكمة. إنه سيد جسد غير معهود في هذا الوزن، يستغل طول

ذراعيه لينخس سيلفا دون أن يتيح له مجالاً للرد، إنه مزود بسرعة في التقهقر، يلملم أطرافه هارباً كلما اقترب خصمه منه، وهناك يجد مساعديه الذين يوفرون له تهوية بجريدة الهيرالدو، جريدة الشعب الديمقراطي، الشعب الذي يعرف كيف يختار، وينضم إلى الحملة الانتخابية العظمى في اليوم الذي سيتكرر فيه في الصناديق فوز الذكاء والعجرفة، مثلما يتحقق الآن على الحلبة. ها هما الملاكمان يتقدمان إلى منتصف حلبة المواجهة وتوميك ينقض مثل مثقاب ويوجه لكمة إلى أنف البطل، وتخرج شوكولاته من فتحتي أنفه... هذا أكثر مما كان يمكن توقعه، أو الحلم به في رؤية فوز بهذه السهولة.. كيف سيكون الدكتور أليندي يتقيأ صفراء وهو يرى أن ربيبه يحوك له نبوءة سيئة، وأن بارود الهزيمة يبلل ديناميته، لست تحسن صنعاً بتلاعبك بالرأي العام ورفع راية أحد الخصمين يا دكتور. لأن الرياضة هي رياضة، ويجب ألا يكون هناك مكان للسياسة في معبدها. وها هو ذا سيلفا يترنح، ينزف دماً... وي، أماه، يا له من نزيف، أوقف المباراة أيها السيد الحكم، أوقف هذه المجزرة، سروال سيلفا الأبيض يصطبغ باللون الشيوعي، هذا الوضع على وشك الانتهاء أيها السادة، الأمر يتوقف على مبادرة أوليفر في الطرق على الحامي، في أن يوجه الآن الطعنة النهائية... تكفي نفخة منه لينهار هذا العود، اضربه أيها النحيل، بقوة أيها الشعب، هيا يا أليساندري، تشجع فالفوز آت، يا للضرب الذي تلقاه البطل، عيناه تغيمان، سيلفا يبحث على الحلبة ولا يجده. هذا كله سينتهي بين لحظة وأخرى، السادة المحكمون يومئون إلى حكم الحلبة بوجوب وقف هذا النزف الهذياني. هل ينتظر الحكم معجزة يا ترى؟ والآن، أجل، ها هو ذا أوليفر يقترب مهاجماً، ممتلئاً بالبهجة الرياضية، وبقوة ماراتونية لم تتأثر، بنحافة راقص خفيف، ويسبر حالة سيلفا بهذه المراوغة، إنه يستعد للإجهاز عليه، الجلاد الحاسم يدنو، إلى الأمام يا تشيلي، و... غير ممكن! غير

معقول أيها السيدات والسادة: لقد انطلقت من جنبات جسد ديناميت الدهني ضربة موجهة من أسفل، فأصابت هدفها في فكّ النحيل وهشمته، طوحت به إلى أعلى، رفعته في الفضاء ليهوي فاغر الفم على الحلبة، وطبعاً، ها هو ذا الحكم يسارع الآن بالطبع للعدّ: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، لكن النحيل يظل مطروحاً على الأرض عرضياً وأفقياً، فاقداً الوعي أو ميتاً، لقد أنجزت سرقة انتصار الشعب، ووجد تحالف الحمر ذوي الرؤوس الحامية طريدته، بقايا النحيل أوليفر مطروحة على الأرض، والحشود المتعصبة تدوسه كي ترفع على الأكتاف الديناميت سيلفا الذي احتفظ بلقب البطولة، ووضعت الديمقراطية التشيلية على شفير الهاوية... وفي خطر جدي.

XLV

كان على أللييندي، حسب رأي بيدرو بابلو بالاثيوس، أن يعد بزيادة حدة التناقضات في المجتمع وعدم المصالحة مع أرباب العمل. كان عليه أن يحطم التراتبية العسكرية ويستنهض بروليتاريا الزي العسكري ـ الجنود العاديون ـ ضد أرباب عملهم الفاشيين: الجنرالات، النقباء، الملازمين، بل ضد الرقباء أيضاً إذا اقتضى الأمر. أفعال وليس كلمات، كان لا بد له من مهاجمة ثروات البرجوازيين الدمويين وتأميم تجارتهم، مصارفهم، أسلحتهم.

وحسب سيبولبيدا، هناك إمكانية ميكروسكوبية مطروحة بأن يفوز أللييندي على مرشح اليمين خورخي أليساندري، شريطة أن يتمكن رجلنا من أن يُخرج من المنافسة المرشح أنطونيو ثامورانو، كاهن كاتابيلكو، وهي قرية صغيرة حالمة من الخارج، ولكنها خاضعة في العمق لسيطرة أشد الإقطاعيين تزمتاً، وهم من يحركون

الكاهن الثعلب الذي يستسلم لهم راضياً. فإذا ما أصر الكاهن على الاستمرار حتى النهاية كمرشح بديل يدعي اليسارية، فإنه سيخدش أصوات ألليندي إلى أن يسبب شرخاً كبيراً أشبه بفوهة بركان تهوي منه إلى الجحيم الاشتراكية بأسرها: الثورية منها والباهتة.

أما جوفانا فترى أن لدى اليمين مرشح رائع، لأن أليساندري يتناول المياه المعدنية وليس النبيذ، كما أنه عازب متوحد ومعلن، مما يجعل منه عريساً مثالياً وبعيد المنال لأي عانس، أو مطلقة، أو متزوجة غير راضية، ولأن الأخبار التي تصل من الاتحاد السوفييتي تقول إن البروليتاريا الثورية المجيدة هناك تأكل الخراء، وهذا في أيام الآحاد فقط. وترى جوفانا، مع ذلك، أن سيبولبيدا هو حبها، وأن أللينـدي عبقري، لأنه يعد بثورة على الطريقة التشيلية وليس نسخة مطابقة لما فعله الروس.

أصدقاء بالاثيوس يخططون لاقتحام سوبرماركت في شارع إيرارّثابال، وشراء أسلحة بالنقود التي يستردونها من صناديق البرجوازية، لتأسيس جيش موازٍ، شعبي، وبلا جمود عقائدي، يوفق بين روك ألفس بريسلي وتعاليم لينين. كانوا أعضاء في فصيل من حركة بلا اسم، كي لا يشي قادتها بأنفسهم ذاتياً. وكانت خليته تسمى «ما» تكريماً لكراس لينين *ما العمل*، وهي تصبح بالمنطوق التشيلي: *ماذا عملنا؟*

كان بيدرو بابلو يخبرني بهذه *المعلومات الحميمة*، لأنه يريد أن يعرف إذا ما كان بإمكانهم استخدام سيارتي في العملية، ولكن بشرط توافقي، بالطبع، مع طروحاتهم السياسية واستعدادي للمجازفة في عمل ما («لا يمكنني أن أخبرك متى ولا كيف») في سبيل الثورة.

كان المعلم «بركان» قد ارتقى في مراتبية الحزب الاشتراكي، وتقرب من جوفانا وسيبولبيدا بتعليمات صادرة مباشرة من القيادة المركزية لاستخبارات الرفيق مالبران. وقبل يومين من الانتخابات،

كان لا بد من إصدار طبعة مزيفة من جريدة الهيرالدو، الأوسع مبيعاً في البلاد، وتوزيعها منذ الفجر في قرية كاتابيلكو، للإعلان فيها أن الكاهن ثامورانو تخلى عن تطلعاته الرئاسية، وأنه يعلن عن قناعته بأن ألليندي هو ملحد مسيحي بعمق، وأنه مشمئز فوق ذلك من الذم الذي يتعرض له سلفادور ألليندي («لاحظوا أيها المواطنون التوافق الرائع بين هذا الاسم واسم المسيح[1]»)، وأنه يستجيب لحماسة صفوف الشعب، ويسحب ترشيحه على الرغم من استطلاعات الرأي التي تؤكد انتصاره المضمون، ويوجه نداء إلى كل أنصاره كي يصوتوا لسلفادور ألليندي كرجل واحد، كامرأة واحدة، وكحملة صليبية في سبيل المسيح والديمقراطية والفقر.

دون لورينثو، عامل الطباعة في جريدة الهيرالدو، محافظ باطناً وظاهراً، متحمس للخصخصة ومناصر لاستيراد يابانيين إلى تشيلي من أجل زيادة إنتاج البلاد، قال إن سرقة حروف طباعة الجريدة من أجل مثل هذا التزوير سيكون جريمة يستحق عليها شكوى قضائية، وربما الشنق على يد العصابات اليمينية المتضامنة حتى الإجرام من أجل خسارة ألليندي. لم يكن باستطاعتنا الاعتماد عليه في مهمة بهذا الغموض، وهذا التآمر، وهذه الخطورة، والمخالفة أخيراً لأفكاره السياسية، إذا أنه معجب بالمرشح خورخي أليساندري، ويرى فيه رجل دولة عظيماً، والكابح الحقيقي للشيوعية في تشيلي.

وبتكليف من جوفانا لمواصلة الإلحاح على دون لورينثو، ذهبتُ لزيارته كي أوضح له أن الأفضليات السياسية المنحرفة لرجل فقير مثله، وعامل طباعة بائس، رموشه مثقلة بهباب الرصاص، والحبر الكئيب تحت أظفاره، هي خيانة الحلم المجيد والسعيد لشعب سيأكسجن له رئتيه بعد الانتصار.

---

[1] سلفادور، تعني المُخلّص.

ذكرته بصداقتنا منذ الطفولة. وشرحت له أن وظيفة عامل الطباعة المحترم في جريدة **الهيرالدو**، ليس لها من فائدة أخرى سوى سحب الأربعين ألف صوت المجنونة التي يمتلكها كاهن كاتابيلكو، ذلك الثعلب الذي يدفع له جماعة أليساندري، ويدفعون له تحديداً من المال الذي يسرقونه منك، منك أنت نفسك يا دون لورينثو.

أقسمت له أن السيد سلفادور ليس الأحمر الذي يخشاه، وإنما هو ديمقراطي تحرري وتعددي سيجعل من تشيلي خبراً عالمياً بانتصاره، ولا شك في أنه سيقدم إليه زيادة في أجره لإصلاح ثقوب السقف التي يقطر منها ماء المطر، وإدخال ابنه بيدرو بابلو إلى الجامعة.

والنتيجة، رجعت إلى البيت بوجه يشتعل بحمرة الخجل لفسادي الأخلاقي، وغاضبة في الوقت نفسه لإدراكي أن دون لورينثو يوفق على أروع وجه بين حياة البؤس والمبادئ.

ـ فلنعتبر أن هذه المحادثة لم تكن ـ قال لي وهو يرافقني إلى الباب، ويقبّلني بكرم على خدي.

XLVI

تزودتُ بكتاب ألفونس دوديه **«رسائل من الطاحونة»** وديوان **«أزهار الشر»**. عليّ أن أخضع في الثالث من أيلول، قبل يوم من الانتخابات الرئاسية، لاختبار قراءة مع المدير آريناس. وفي حقيبة الظهر نفسها التي أحمل فيها واجباتي المدرسية والنصوص بالفرنسية، أحمل أيضاً سندويش خبز محلى هي مفخرة مطبخ القرن: شطيرة مشرحة ومقلية جيداً، تحتفظ بسخونتها في منديل مربعات حمراء وبيضاء، أوراق خس مقرمش مشتعلة بربيع سنتياغو، بندورة تتوسل أن تُقضم، وتتبيلة من فلفل أخضر ومايونيز كثيف وصلصة حمراء، وتتوج هذا كله مسحة من الأفوكاتو.

لا أريد للمدير أن يفكر في أنني أحاول رشوته في امتحان سهل جداً. على العكس، إنني مستعدة بضراوة للاختبار، فأنا أحفظ عملياً قصيدة «**القطرس**» لبودلير عن ظهر قلب، ولست أتردد عند مناقشة مغزى النص في توضيح أنها ترتيلة جريحة وحساسة لأجل جميع أولئك الذين هم جميلون ومختلفون ولهم حق العيش كذلك في عالم فظ وإقصائي.

الأستاذ آريناس هو أطيب الرجال قلباً في تشيلي، مادام لم يطأ أحد سندوتشه ومادام الآخرون يكلمونه بالفرنسية le parlent la langue de la douce France chHe pays de mon enfance. إلقائي لقصيدة «**القطرس**» سيؤثر فيه، مع أنني لم أفعل شيئاً سوى التقيد الصارم بالتدريب الأولي على *أزهار الشر*، ولكنها ترن بوقع شديدة الأصالة، أو أنه سيتظاهر على الأقل بأنه متأثر لأسباب ربما لا يدركها عقله، إنما يدركها قلبه الصغير المستعد لأن يضع في ذلك المربع، في دفتر علاماته، الدرجة القصوى التي لن تكون أقل من سبع درجات، هذا الرقم النحيل ذو القبعة في أعلاه والخنجر المغروس في كبده.

وفي اللحظة نفسها التي استل فيها قلمه الحبر الشهواني، ضغطتُ أنا على الخبز المحلى في قعر الجعبة، وتأكدت من أنه مازال هناك ساخناً، مقرمشاً، حيوانياً، ورائعاً في هذا الصباح الربيعي البديع. لن يكون في تصرفي أي أثر للرشوة. أُبقي يدي على المنديل وأنتظر أن ينتهي، ليس من كتابة *سبع*، وإنما نطقها كذلك بصوته الأجش.

ـ *سبع* درجات يا بنيتي. *سبع* على دوديه، و*سبع* على بودلير. المتوسط *سبع* درجات في امتحان الفرنسية.

عندئذ فتح بالاثيوس الباب، وبالتزامن مع دخوله أخرجتُ السندوتش.

تطلعت عينا آريناس بصرامة وقسوة إلى اليسار وبلين وحنان إلى اليمين. وبعد ذلك لإنتا إلى اليسار واليمين.

نهض واقفاً، مستنداً على ذراعي المقعد الأخضر، وأومأ له بأن يتقدم. وهكذا تقدم بالاثيوس مثلما تدرب في الليلة السابقة: حزيناً، متذللاً، مبتلاً، ذبيحاً، قطرساً.

وكان عندئذ قد أطلق روحه. كان يحملها أمامه مثل راية استسلام.

مدّ آريناس ذراعيه، ولاذ حبيبي بهما.

ـ إنها أمور تحدث يا فتى.

ـ آسف يا أستاذ.

ـ سنوات طويلة من الدروس. لا يمكننا البقاء على قيد الحياة ما لم يُظهر التلاميذ قليلاً من الاندفاع... ومن الانضباط.

ـ إنني مجرد كلب مقمل يا أستاذ. *Nothing but a hound dog*.

ـ من شكسبير إلى بريسلي. إنك تمضي انحداراً يا بالاثيوس.

رفع المدير السندوتش في اللحظة التي قُرع فيها الجرس. قضمه مستسلماً للهفته، وجعل اللقمة تجول في فمه قبل أن يبتلعها.

ـ عد إلى صفك، وإذا ما سألك أحد شيئاً فتصنع الغباء. وما سوى ذلك سيخرج معك بصورة طبيعية.

ـ حاضر يا دون خوليو.

ـ وانتبه إلى فتاتك. لا تحبّلها الآن، لأن هذه الصبية يجب أن تدخل إلى الجامعة.

ـ أنت رائع يا أستاذ.

ـ لا تأتني الآن بالتملق والمديح. أعرف أن الجميع يلقبونني *الخلّوف* آريناس.

ـ ولكن بمحبة يا أستاذ.

ـ قضم السندوتش مرة أخرى بضراوة، فطلى المايونيز والأفوكاتو شفتيه. مسحهما بالمنديل ذي المربعات، وبإيماءة من يده استبقانا لنرى اللقمة تنتقل من حنك إلى الآخر قبل أن يجعلها تغوص في حلقه.

XLVII

يقال إن مدينة بالبارايسو قد بنيت وفق خطوات بحار مخمور كان يلاحق امرأته المحبوبة على الهضاب. إنها المدينة الوحيدة في العالم التي يجدها الجميع متناسقة دون أن يكون فيها أي نوع من التناسق. طلاء البيوت استهلك الألوان المائية لتلميذ متمرد، والكلاب المتشردة تتصارع على الأدراج، بينما العربات المنزلقة تنزل من السجن إلى المرفأ وفيها فتيان يحملون أكياس خيش، ينتشرون في الأزقة ولا يعود أحد لرؤيتهم أبداً.

أعطونا عنوان دار سينما. تحتها نجد بيت الشاعر. وكانت كلمة السر هي ذكر اسم الدكتور بالميس أو اسم كاتشو فيغيروا. ولا بد من الهمس بها لسيد مجهول لديه المفتاح. لقد كان كل شيء أصعب مما هو عليه في أغنية *مخبأ هيرناندو*؛ ولكن بيدرو بابلو هو الذي رتب الأمر من هاتف محطة الوقود، أما أنا فلم أكن أريد شيئاً آخر سوى الانصياع لرغباته. لم تسبب لنا الليلة السابقة أي إنهاك؛ بل على العكس، كانت نوعاً من الاحتراق الليلي يبقينا متيقظين، وكان الرأس راداراً هائلاً يلتقط أي إشارة من الهواء. الكون يقدم لنا اليوم حصة من النوايا، إشارات من حبكة تخلق توافقاً بين البجع ومكعبات السكر، المتسول الأعمى وعابرة المحيطات في المرسى، البحارة في ستراتهم السميكة والقصيرة مع الغجريات بتنانيرهن الكرنفالية المغطاة بمعاطف من فراء.

كان الشاعر قد وصف بالبارايسو بأنها ميناء مجنون، مجنون أشعث. وهو الآن، لحسن الحظ، ربما يأكل في هنغاريا، أو أنه يتلقى جائزة في كابري، وبيته هنا ينتظره بوداعة الكلاب. مع صعودنا في

الشفروليه، كان ملح بارود المدينة يحشو رئاتنا، وكنا أسطوانتي ضوء مترعتين يمكن لنا أن ننفجر في أي لحظة لعجزنا عن مراكمة مزيد من الطاقة. كان لدينا هذا بالطبع، ولكن هذا المدينة كان يهز «هذا الخاص بنا» كذلك بحنانه الفظ، كما لو أن لدى بالبارايسو تفهم خاص للعشاق.

عرفت شيئاً عن الطريق للوصول إلى مخدع الشاعر. اتصل بالاثيوس بالسيد سنيوريت، واتصل السيد سنيوريت بالدكتور بالنيس، واتصل الدكتور بالنيس بكينا ساموديو، وكينا ساموديو بمدبر البيت، وكل هذا كان يحدث بينما النوارس تتقلب فوق قوارب الصيادين، وأينما نظرت لا أرى سوى كتيبة ملائكة مثابرين مشغولين *full time* بتهيئة سعادتي على أكمل وجه.

على الرغم من شهرة شبكة المتواطئين في عملية السطو على بيت الشاعر، فقد أظهر مدبر المنزل في البداية تشدداً في وظيفته أكبر من تشدد القديس بطرس. نتائج الجاز، ومخلفات الفجر، وحدّه هذا في الوجنتين، وفي الحدقتين المعكرتين، وانسيابية الشفروليه مثل شمس زرقاء في الزقاق المرتفع، وسيجارة بيدرو بابلو المثبتة، على طريقة بوغارت، في الجانب الأيسر من الشفتين، بينما هو يعرض مسوغات وجودنا لحارس بيت الشاعر.

- المسألة أن دون بابلو نيرودا لم يقل لي شيئاً أيها الشاب.
- المسألة أنه كيف سيخبرك إذا كان في أوروبا.
- المسألة أنه عندما يأتي زائرون، يخبر عن ذلك برسالة.
- لا بد أنها آتية في الطريق يا دون خيمي.
- المسألة أنني أُدعى خانو وليس خيمي.
- خانو من أليخاندرو؟
- أليخاندرو، هو اسمي.
- سيتحدث الشاعر معك إذن، وسيوضح لك.

ـ وماذا سيوضح لي؟

ـ أننا سنأتي إلى هنا.

ـ المسالة أنه لم يخبرني شيئاً.

ـ ولكنه أخبر الدكتور بالنيس.

ـ هو لم يبعث شيئاً إلى هنا.

ـ ولكن كينا ساموديو اتصلت بك بالهاتف.

ـ طبعاً اتصلت بي.

ـ وماذا قالت لك؟

ـ قالت إن بعض الطلاب سيأتون لإنجاز واجب مدرسي عن بيت الشاعر.

ـ نحن هم إذن يا دون خانو!

ـ أنتم من؟

ـ الطلاب.

تفحصني الرجل من قدمي إلى حاجبي وتوقف عند ثوبي، عند شفتي المنتفختين بالرغبة، وشعري المشعث من الريح وقبلاته. ثم ركز اهتمامه على بالاثيوس، وحتى أنا نفسي رحت أكتشف معه استهتار قاطع الطريق، وجرأة ابن الزنا، واستهزاء الثقة بالنفس، والتانغو في النظرة، والروك في الخصر. عندئذ تطلع المدبر إلى الشفروليه وبصق جانباً:

ـ وهذه هي حافلة المدرسة؟

هناك ألف شيء أكرهه في التشيليين. إنهم أناس يمكن لهم أن يفجروا لك البنكرياس عندما يصيرون مضجرين. ولكن عندما تخرج منهم سخرية، عبارة متهكمة، يذوب الجليد بنفخة واحدة. ومن هذه الفجوة يمكن لأحدنا أن يُدخل حتى حصان طروادة.

ـ أجل بالطبع – قدحت عينا بيدرو بابلو شرراً ـ. وندفع تذكرة تلاميذ.

- هذا يكفي. اصعدا مطمئنين، واحذرا الأحجار.
وضع المفتاح في جيب سترتي واقتادنا باتجاه السلّم الحلزوني.
- عسى أن تحصلا على *سبع* درجات أيها الصفيران. الطائر الأحمر ذو الجناحين المبسوطين داخل الإناء الزجاجي هو استعارة عن الحرية المقموعة. إذا ما كتبتما هذا، فمن المؤكد أن الأستاذ سيمنحكما علامة جيدة.

عندما وصلنا إلى البرج، ركضنا نحو النوافذ ومسحنا البخار الذي يغطي الزجاج. وكانت تلك صفعة من بالبارايسو. تعانقنا مرتجفين. لم نكن في أجمل المدن وأكثرها زركشة في العالم وحسب، وإنما في حيز شاعر عرف كيف يغنّيها من الأزقة حتى التلال. كل شيء في الحجرة كان فوضى متواضعة، ولم يكن للأثاث الغريب والدمى سوى ترتيب دكان عاديات مستعملة. وعلى البار، بين لوحات سفن وغلايين مصها ذئاب بحر، كان هناك إعلان بالفرنسية : *Don Pablo, est içi*.

تذكرت وأنا أبتسم *الخلوف* آريناس. لو أن كل جوقة منشدي السماء بسطت أجنحتها لتبارك *الهذا الخاص بنا*، فلا بد من اعتبار أستاذ اللغة الفرنسية مرتل الملائكة الأكبر وشفيع السيرافينات المقدس. وفكرتُ: هكذا هي الأجسام السماوية في بلادي. بدينة ورقيقة المشاعر، عذبة وعنيفة، دون مراحل انتقالية. يمكن للزهرة أو السكين أن ينقضا من أي جهة، قد تنقض عليك القبلة أو الموت على حين غرة وأنت ساهية.

- آليا إيمار - قال لي بيدرو بابلو بصوت أصابه الحزن فجأة -. أتظنين أن هذا سيدوم.
- سيدوم إلى أن ينتهي - أجبته.
- ما أقوله لك بلاهة كاملة، ولكنني أشعر بالحزن علينا.
- حسن.

ـ نوع من الحنين إلى كل ما هو موجود. كما لو أنني لن أكون هنا لوقت أطول.

ـ المسالة هي أنك في حجرة الشاعر. الدنيا تبدو غريبة في هذه الأماكن.

اقتربت من السرير واستلقيت عليه. وعلى الرغم من البرودة الرطبة، تعريت. وضعت التنورة تحت شعري وفتحت ساقي وأنا أشعر الآن بأن حركة السير المجنونة في أوردتي وأعصابي تصب كلها في أسفل بطني. تابع بيدور بابلو التوجيهات التي كان يصدرها إليه هذا المغنطيس. تقدم نحوي، ترك بنطاله يتهدل، وأخفى بحياء عضوه المنتصب.

ـ أيعجبك المكان؟

ـ لا يمكن إلا لمجرم أن يسرق بيت الشاعر ليفعل فيه هذا.

ـ لكنه هو الذي كتب أنه لا يحب الرجل دون امرأة ولا المرأة دون رجل! وقال إنه الشاعر ـ الخاطبة الطيب. ويسعدني أن هذه القصيدة لم تكن شيكاً دون رصيد.

استلقى عارياً إلى جانبي.

قبل فمي، شبك لساني، داعب حلمتي، جس ردفي، أطلق زفراتي، أجج وجنتي، جعلني أرف رموشي، شنج لعابي، سرّع قلبي، سخن إليتي، دوّخ أذني، شوى خديّ، مرّد سرتي، فتت حيائي فتاتاً، أولج المنقار فيّ، خدش بكارتي، أدخله حتى العمق، ومتُّ حباً.

XLVIII

لقد متُّ حباً.

يمكن لهذا أن يكون نهاية رائعة لرواية، وأفضل من ذلك لحياة.

أما الآن، وبعد سنوات من المتاجرة بالكلمات والصور، صرت أعرف أن نقطة النهاية والاستعارة الأخيرة لا يضعهما المؤلفون، وإنما ذلك الخالق المخيف الذي منحه الشاعر نيكانور بارّا اسماً تشيلياً: «خالق النجوم!».

بيدرو بابلو بالاثيوس كان جلدي وبيتي.

لقد شوش نظام حياتي ووضع أحلامي على الجمر.

إذا ما لعبنا الورق، منحني بوكر آسات. وإذا ما ذهبنا إلى حفلة، نصلها في اللحظة التي يغني بها البتيلز *I want to hold your hand*. وإذا ما عرضوا فيلماً، فإنه يكون *Easy Rider* حتى الدمعة الأخيرة. وإذا ما أنهت السيجارة جولتها عنده، يعرف كيف يسحب حتى آخر نفس فيها دون أن تحرق الجمرة شفتيه.

نضع زهوراً في شعرنا، نقرأ هيرمان هيسه وجينسبرغ، كورسو وفيرلينتي، ونؤوي ***الأمير الصغير*** ونداعب طوال سنوات هولدن كاوفيلد Holden Caufield.

خسرنا انتخابات الـ 58 مع ألليندي بسبب الأربعين ألف صوت اللعينة التي أهدى بها كاهن كاتابيلكو الفوز إلى أليساندري. ثم هزمونا مرة أخرى في 64 عندما قوضت الديمقراطية المسيحية مرشحنا بمنح اليمين أصواته إلى فراي. وقد أعلن سياسي من أصول ماليسية دون حماسة بأنه «عندما يكون الفوز بأصوات اليمين، فإن اليمين هو الذي يكسب». وقال ألليندي بعد هزيمته الرئاسية الثالثة إنه يريد أن تُكتب على قبره عبارة «هنا يرقد سلفادور ألليندي، رئيس تشيلي المستقبلي».

أحسسنا بتعاطف مع الشيطان، تدحرجنا كحجر، كنا حصى بائسة مثلك، كان لاسم الحبيب مذاق العشب، ننطلق في الدرب ونعود إلى وادي إيلكي لنحقن أنفسنا بالسلام والنجوم في الدم. عكرت مرارة تشيكوسلوفاكيا حياتنا. لعقت الثورة الكوبية

شفاهنا. ناقشنا الكتب الحائزة على جائزة كاسا دي لاس أميركاس. وزرعنا فوضى البرجوازيين الصغار المزهوين عندما أشعلنا الشموع للهبيين في الأحزاب الشيوعية والاشتراكية، وحلمنا بغرينيتش فيليج بدلاً من موسكو أو مقصلة الثورة الفرنسية.

حفظنا عن ظهر قلب أنتونيوني، وبرغمان، وتوني ريتشاردسون. لم نكن نريد موظفين وإنما أنبياء، نريد فيتامين الحاضر وحده معلقاً في الزمن، نريد عيني وليم بليك الذاهلتين وليس قروض المصرفيين، الفوضى القيامية لـ *الخاتم السابع* في مواجهة الخطط الخمسية، وبوذية الزن أو الوجودية الفرنسية لمواجهة نفاق المحافظين المتبجح.

لم يكن هناك منطق آخر قادر على جعلنا نفهم العالم سوى منطق أونسكو وبيكت. الأربعة التي تساوي **اثنين** زائد **اثنين** هي غش ورياء (*رب زائد رب يساوي رباعي*، كما يقول نيكانور)، طريق ديلان توماس نسيره على الشاطئ بالضبط مثل الكلاب. بافيس، أونغاريتي، كورتاثر، كاردينال، *ردّ أنت على الهاتف*، أرثر ميللر، *الباليه الأزرق*، مونديال 62 في تشيلي وهدف إلاديو روخاس من منتصف الملعب (في انتخابات 64 يا عزيزي بافلوفيتش: «كررنا فوز الـ 62: تشيلي 2، روسيا 1»).

في الجامعة لم نكن ندرس ما يستحق الذكر. آباؤنا تنبؤوا لنا بأفق مجاعة، كتابُ لغارسيا ماركيز كان أكثر دقة واقعية من الطريق عبر أمريكا، نُشرت أعمال خوسيه أغوسطين في المكسيك، وتحول بوب ديلان من الفولك إلى الروك في شيا ستاديوم.

رجعتُ إلى تلال بالبارايسو مع سلفادور ألليندي، وتولى الدكتور بنفسه العناية شخصياً بمرضاه، وعرف هؤلاء كيف يردون له المحبة بإغراقه بأصواتهم.

ولكنني أولاً وقبل كل شيء، كنت في السابعة عشرة.

وبحضور بالاثيوس أزهر كل مسام فيّ.

امحى حب المراهقة عن بشرتي، ونادراً ما صرت أنام في بيت سيبولبيدا وجوفانا. فما بين الشفروليه، وفنادق العاشقين في شارع لندن، والمشاهد الطبيعية، وبيت بالاثيوس، كنا نراكم درجات في منافسات الجنس.

هذا لا يعني أننا كنا ماجنين، وإنما كانت المضاجعات مجرد ذريعة لتبادل الحديث. فإذا لم نخض في حديث كل يوم نشعر بالاختناق. وكان الحب هو من يزودنا، حرفياً، بالأكسجين.

تسلطت على ذهن بيدرو بالاثيوس فكرة أن تشيلي ضيقة عليه. فالجامعة لم تعد تكفيه، ولا سلسلة الجبال، ولا البحر، ولا دراسته في معهد المسرح. كان يذهب إلى مكتبة المركز التشيلي الأميركي ويُخرج منه مسرحيات جاك جيلبر، أو إدوارد إلبي، أو ليروي جونس، أو ساروريان. كنا نذهب إلى عروض افتتاح المسارح الجامعية، وتبدو له كلها رقصاً وتمثيلاً غير مؤذٍ، إيماءة تبجح من الممثلين والمخرجين، كل شيء مكرور جداً، مهذب جداً، متكلف جداً، ممصوص جداً، صحيح ومحسوس جداً، سليم النية وممل جداً.

كان يظن أن المسرح الحقيقي هو غابة، وأنه على الوحوش أن تنتفض على المنصة. على الغريزة والجسد أن يتحركا بسرعة تفوق سرعة الكلمات.

كتب رسالتين. واحدة إلى السيد سنيوريت وأخرى إلى السيد لي ستراسبيرغ في معهد الأكتورز ستوديو. وتسبب إغراء نيويورك في عودة يورك نيو.

في أثناء ذلك، كنتُ قد دخلت كلية التربية في جامعة تشيلي كي أدرس، كما هو جلي، تدريس اللغة الإنكليزية. كان الطلاب والأساتذة يُصنَفون في أربع جماعات: المثاليون، الثوريون، الفقراء، والمجانين. ومن يتخرجون من هناك، بعد سنوات متراخية في تأجيل المواد الدراسية أو الرسوب بها، يمكن للحظ أن يحالفهم بوظيفة في

زرائب مدرسية، حيث يدفعون لهم أجراً بائساً.

في هذا المستقبل الوردي كان اليسار المتطرف يجند أبطاله. فيداهمون الفروع المصرفية، ويكتبون منشورات يلقون بها أمام أبواب الثكنات العسكرية، يحرضون فيها الجنود على ذبح قادتهم، ويرفعون إصبعهم في درس الفلسفة ليسألوا عن الطريقة التي تساهم بها نظرية المعرفة عند نيكولاي هارتمان في انتصار الثورة، ويعقدون جلسات نقد ونقد ذاتي في القاعة E103، حيث يحرقون البخور لفيديل وماو وهوشي مينه.

لم تُصب الشفروليه الفاخرة بأي عطل منذ أن جاء بها السيد بريتسليك إلى البيت. وكنتُ أؤجرها كل يومين، وسطياً، لحفلات زفاف، أو لإحضار خبراء غرينغيين من المطار، أو لمآتم شخصيات مهيبة. منذ علاقتي بباﻻثيوس، لم تعد السيارة مصدر موارد تتيح لي دفع ثمن وجبات الغداء ومشاهدة العروض السينمائية وحسب، وإنما صارت تغطي كذلك أجور ليالي الفنادق مع حبيبي الذي كان يتدرب تحت اللحاف على نصوص تمريناته المسرحية، في الغرف الخانقة في شارعي باريس ولندن، إلى أن يخلّفني موشحة بأوسمة المني وحواراته المجدبة المحفوظة عن ظهر قلب.

في إحدى الليالي اقترح عليّ أن أهجر كلية التربية وأنضم إلى معهد المسرح. لم يكن طلاب أكاديميته مختلفين كثيراً عمن كنت أراهم في دروسي، إنما كانت لديهم على الأقل طموحات ونزق. أما زملائي بالمقابل، الموزعون في الجماعات الأربع التقليدية، فيفتقرون إلى أي نوع من المفاجآت.

لقد كان بيدرو بابلو نبياً للحركة. وكان يقول إن الكلمة هي مستوى مزعزع من الإيماءة وابنة زنا لها، وإنها تشويه ذهني للحقيقة اخترعه وسطيون يريدون تقييد الكلاب السلوقية لمنعها من الانطلاق راكضة بحرية إلى آفاق أخرى. وإذا كانت الكلمة مهمة في المسرح،

فلا بد من إنتاجها في مراجل عضلات وأعصاب، حتى إذا ما بلغت فم الممثل، تحولت إلى قذيفة تصيب المشاهدين بالضربة القاضية.

وحسب هذه النظرية، كان يجسد مونولوجات من شكسبير، تاركاً جسده يتمزق في وقفات صمت مشحونة قبل أن ينطق بمقطع صوتي قصير.

اعتبر جيمس دين ومارلون براندو معلميه وملهميه. اشتهر بأنه ببغاء، ومتحذلق مدعٍ، وابن مدلل. استثار زميلات المعهد، إلى حدّ أنهن تركن له أرقام هواتفهن مكتوبة بأحمر الشفاه على مرايا حجرة المكياج.

حضرتُ عدداً من بروفاته التدريبية في قاعات شارع هويرفانوس، وبالرغم من أن ما كان يقدمه هو بعض أعمال الكتاب التقليديين التشيليين، مثل قرية صغيرة لأرماندو موك، إلا أنه كان يجمّر النصوص بوقفات صمت مقلقة، يصوب عينيه إلى ركبتيه ثم يرفعهما فجأة في محاكاة غير متقنة لمونتغمري كليفت في *من هنا إلى الأبدية*. وعندما تخرج الجملة، بعد كل ذلك الوجوم، من شفتيه المتورمتين بالشبق الجنسي، يسعى إلى ألا يُفهم حرف واحد منها: كان يحاول أن يغمغم الكلمات، أن يبصقها، أن يخدرها كي تعبر عن قوة حياته الداخلية.

وكان حضوري عروض الافتتاح يرفع من حرارته، فيجعله ذلك مرغوباً أكثر من عدد من زميلاته على المنصة، ممن يعتمد خيارهن للمسرح على جمالهن الجسدي في المقام الأول. كان من المستحيل أحياناً العثور فيهن على ملمح تعبيري، على عرق حياة داخلية يبتعد عن الابتذال، ولكنهن يوائمن مقاسات الخصر، والردفين، والنهدين على خير ما يرام، مثل مارلين مونرو؛ وحين يغمزن بعيونهن لا تقتل أي منهن أقل من غمزة عيني بيتي دافيس.

كان لدي أنا بالطبع *هذا الذي بيننا* وكل ثانية أقضيها إلى جوار

بيدرو بابلو بالاثيوس كانت تزيد من متانة الصمغ الرقيق الذي يوحدنا. كنا جزيرة براءة، لا نعرف أن نكتشف من أين تأتينا عضات الواقع.

كان بيدرو بابلو يحقق الآن ميوله في أن يكون يورك نيو بالقوة التي يمنحه إياها هجره ذلك الميل طوال سنوات. كان يريد مواءمة جرعات السماء الزرقاء التي ارتشفها بين جبال وادي إيلكي وناطحات سحاب مانهاتن وساكنيها.

فنجان قهوة أو كأسا نبيذ تجعل منه ثرثاراً يفيض في الحديث عن ضرورة ذوبان تشيلي في العالم كي لا يبتلعونا ولا يتقيؤونا.

كانت أصابعه سريعة كأصابع مشعوذ عندما يحك جبهته، وذراعاه تدوران مثل أذرع مروحة حين يخوض جدلاً عن أفلامه المفضلة. وهي في المقام الأول: أي فلم أنجبه إيليا كازان. والأخير هو الأفضل دوماً.

أخذني مرتين لمشاهدة *بيبي دول*، «أشد أفلام الحقبة إثارة للجدل الضاري»، لمجرد دراسة موضوع اختلاق أجواء من خلال تلميحات ممثل غير محددة المعالم. وكان يثير اهتمامه بصورة خاصة إيلي ويلتش في دور الصِقليّ سيلفا فاكارّو، ولاسيما في المشهد الذي يزور فيه بيبي دول بينما زوجها خارج المنزل والجميع يعلمون أن الصبية لا تزال عذراء لأن كارل مالدين وعدها بعدم إقامة علاقة معها إلا عند بلوغها العشرين. وكانت المسألة بالنسبة لبالاثيوس هي كيف توصل كازان، من خلال ممثله، إلى وضع القنبلة دون أن يفجرها، ودون أن يسبب الضجر لأحد طوال تسعين دقيقة.

لم تكن ممثلات فريقه المستقبليات يولين اهتماماً كبيراً للتقنيات التعبيرية، لكنهن يلتقطن زبد الأفلام الصاخب أفضل من حبيبي.

في عطلة نهاية أحد الأسابيع نظمنا *حفلة بيبي دول* بهكتولتر من الكوباليبري، وكانت سجائر «السانفيليبانيا» تنتهي قبل أن تدور في جولة كاملة على الجميع. صعد بيدرو بابلو إلى المنصة على وقع

موسيقى *البوم بلانكو* وقدم مشهداً يقلد فيه وليم هولدن في فيلم *نزهة* *Picnic*.

إذا كانت هذه الخطوات الراقصة قد حبست أنفاسي في الفيلم، فإن رؤيتها في إعادة دقيقة ومحترفة يؤديها الرجل الذي أحبه، على بعد سنتيمترات من كيم نوفاك سمراء تلتهمه بنظرة تنبئ بمجزرة وشيكة في الدقائق التالية، أثار في غضباً غير مسبوق.

هذا الغضب اللعين يسمى غيرة. لقد سخرت ألف مرة من مثل هذه البلاهات. «لا أحد ملك لأحد، الحرية لا أسياد لها، وليس هناك سعادة ولا قداسة سوى تلك التي يدعو إليها البيتلز، *let it be!*»، كانت هذه هي شعاراتي التي تنبثق من أعماقي والتي مازلت أوليها إخلاصاً منهجياً. حتى الآن!

خرجت راكضة باتجاه الشارع، وقبعت في الشفروليه منكمشة، متكورة على نفسي، مطالبة - بدموعي - بمهد يحميني. *هذا الذي بيننا والبيننا الذي هذا* ليس سوى تخيل موجود في كون مترع بكواكب ونجوم أخرى.

ليس كواكب الشاشة ونجومها فقط.

IL

الشمس تشرق متألقة على الجميع باستثناء كارمن لويسا إسبينوسا. تدخل الفتاة إلى بيتي بشحوب كوكب آخر. لقد بالغت في زينتها ومكياجها، وبدت عيناها ضائعتين وراء طن من الأصبغة على رموشها. صفعتا حمرة على وجنتيها اللتين تكشفان بياضاً مرضياً قبل إنعاشها. تلبس رداء خفيفاً من قماش مطري. بالرغم من الحر في سنتياغو ومعرفتنا أنه لن يكون هناك مطر حتى نيسان.

تنظر بارتياب إلى الأبواب والجدران، وعندما أؤكّد لها أننا وحدنا، تمسك يدي وتقبلهما. أطلب منها أن تخلع الرداء المطري. كانت الشمس قد دفأت الظلال، وكان هناك هرّ متكاسل يرصدنا من خلف الزجاج. تنهض وتفك الأزرار بمزاج طقوسي، وعندما تدفع الرداء المطري إلى الخلف، تكشف عن سبب ارتدائها ذلك الرداء غير المناسب.

بطن كارمن لويسا إسبينوسا منتفخ.

إنها حبلى منذ أسابيع عديدة، وجسد بيتي سيمبسون قد انساح في تهدلات ورخاوات، ونهداها يفزران حمالة الصدر التي تضغطهما.

- يجب أن تساعديني - تقول لي وهي تمسك بطنها.

- من هو الأب؟ - أسألها.

- رجل متزوج.

- ماذا يعمل؟

- إنه ممثل.

- أيعترف به؟

- لست أفهمك.

- هل يوافق على أنه من تسبب بهذا الانتفاخ؟

تجلس صديقتي وتنظر مجدداً إلى الهر عند النافذة، ويظل كلاهما هناك في وجوم مفاجئ؟ بعد ذلك تُخرج منديلاً من صدرها، مثلما لم أر أحداً يفعله منذ أزمنة أنتوفاغستا بين الماليسيين المسنين.

- كان جدك استيبان يحيطني بعطف خاص. السبب هو تجعدات شعري، أتذكرين؟ كان يقول إنني يجب أن أتخذ اسم شيرلي تيمبل وليس اسم بيتي سيمبسون. هل رأيت فيلم *سانسيت بوليفار* Sunset Boulevard؟

- رأيته طبعاً.

- وهل أعجبك؟

ـ البداية بصورة خاصة، عندما يظهر هولدن ميتاً في المسبح ويقول الراوي: «يا لعاثر الحظ المسكين، كان يرغب على الدوام ببيت فيه حوض سباحة، وقد حصل عليه الآن».

ـ مثلما حدث لي تقريباً، أليس كذلك؟

ـ لم أعنِ هذا.

أزالت عن التقعر بين العين والأنف خثرة من صباغ الرموش، ومسحتها على ركبتها.

ـ أنت صديقتي المفضلة يا آليا إيمار. وعليك أن تساعديني.

ـ بماذا؟

ـ أحتاج إلى نقود.

ـ ومن أين خطر لك أنه قد يكون لدي نقود؟ ولماذا تقولين إنني صديقتك المفضلة إذا كنا لم نلتق منذ سنتين؟

ـ خجلت من إعادة الصف الخامس وأنا في السابعة عشرة. ذهبت إلى مدرسة ليلية. لكنني لم أوفق كذلك.

ـ أقمت علاقة مع الأستاذ.

ـ كيف حزرت؟

ـ أي شخص يعرف شيئاً ويعلمك إياه، ينتهي به المطاف إلى الفراش معك. لقد بدأتِ مع ديتور.

ـ هذا كان مختلفاً.

ـ لماذا أنهيتِ علاقتك به؟

ـ في أحد الأيام كنا نتناول الفطور بعد أن أمضينا الليل في الفندق الذي في شارع لندن، وقال فجأة: «لقد بردت القهوة، وانتهى الحب.» ثم قال: *C'est fini* لقد انتهى الأمر. أنا لا أملك شيئاً آخر سوى جسدي يا آليا إيمار. هذه طريقتي في أن أكون لطيفة مع الناس. فجميعهم يبدون لي وحيدين جداً.

أحضرتُ إبريق الشاي وسكبت فنجانين.

ـ كان لديك في ما مضى جسدك ورأسك يا كارمن لويسا إسبينوسا.

ـ وكان رأسي ممتلئاً بالأبخرة. بأحلام العظمة. تصوري أنني كنت أريد أن أصير ممثلة.

ـ لقد علمك ديتور التقبيل.

ـ يجب عدم تصنع القبلات. ولا بد أن تكون باللسان.

ـ ولكنك كنت تستخدمين لسانك لرواية الأشياء أيضاً. كنتِ لسانك وما تعرفين قوله. كنتِ زهرة!

ـ هذا ما كان يقوله جدك. لكنني تعفنت! اقرضيني النقود.

ـ لا أستطيع. وخاصة من أجل هذا الغرض.

ـ علي أن أتخلص منه. لم تبق لي وسيلة أخرى.

ـ هل فعلتِ ذلك من قبل؟

ـ مرة واحدة فقط. الفرق الوحيد...

عادت تنظر إلى الهر، وكان الهر بدوره، كما لو أنه متصل بإشارة سرية، يصوب نظره إليها.

ـ ... الانتفاخ كان أصغر من الآن ـ قالت أخيراً.

أسرعتُ نحو النافذة، وحين فتحتها قفز الهر إلى مزبلة الفناء. لم تدخل نسمة واحدة. ومن مذياع الجار كانت تصدح أغنية ***توتي فروتي*** لليتل ريتشارد.

قلت لها دون أن أنظر إليها:

ـ النقود القليلة التي أملكها هي من أجل سفري إلى الولايات المتحدة مع بالاثيوس. سوف نتزوج وستكون هذه الرحلة هي شهر عسلنا. شهر عسل دون عودة.

ـ والجامعة؟

ـ وما أهمية الجامعة؟

ـ لقد قبلوكِ في جامعة تشيلي، ولا يمكنك أن تهدري هذه الفرصة. الدراسة هنا مجانية. في نيويورك يتقاضون منك ألف دولار عن كل ساعة دروس.

ـ لكن كل شيء سيتبدل. يقال إنهم سيخصخصون الجامعات هنا وستصير غالية، لا يدخلها إلا الأغنياء. وبوصول أليساندري إلى الحكم، سينفجر الناس في أحد الأيام.

ـ كنت سأصوت لألليندي.

ـ لقد خسرنا.

ـ بسبب أقل من أربعين ألف صوت.

ـ إنه ذنب الكاهن كاتابيلكو. ودون لورينثو.

ـ ومن هو هذا؟

ـ إنه رجل مبادئ. آسفه يا كارمن لويسا. لا أستطيع مساعدتك. لقد عملتُ من أجل تحقيق أحلامي، ولست مستعدة لأن أتخلى عنها من أجل أخطائكِ.

رشفت بقية شايها ونهضت عن الكرسي بحركة متعجرفة. حتى وهي في هذا الوضع، إذا ما حركت جسدها لشيء آخر غير توسل الشفقة، فإنه يبدو جنسياً مثيراً.

ـ أنت قاسية يا آليا إيمار... وبخيلة.

ـ فكري كما تشائين.

ـ لا يهمك معرفة ما الذي سيحدث لي.

ـ يهمني بالطبع. ولكن لدي التزامي مع بالاثيوس. لقد عملنا ساعات في السيارة لجمع النقود. إنها مستقبلنا.

ارتدت الواقي المطري من جديد، واتكأت إلى مسند الكرسي ببرودة.

ـ وأين تخبئين النقود يا مجدلينا؟ في المصرف أم في حصالة خزفية؟

L

رسالة مفتوحة إلى الرئيس أليساندري.

عزيزي الرئيس:

تلقيتُ صباح هذا اليوم، عند الفجر، ساعة الصفاء لدى المسنين، برقيتكم الموقرة التي تعرضون فيها عليَّ أن أكون محافظ مدينة أنتوفاغاستا.

مثل هذا الشرف يبعث في انفعالاً مشابهاً لانفعال طفل وليد، يفتح عينيه على الدنيا بعد أن يكون قد عاش عقوداً طويلة في أرض محايدة هي جسد شخص مهاجر.

بكل لطف وكرم تحتفي حضرتك في رسالتك بنشر أعمدتي اليومية، ووقار ملحقي الثقافي الذي أُبرز فيه، بلفتة ديمقراطية، غارسيا لوركا إلى جانب عزرا باوند، أو إيفو أندريش أو جيرمان أرسينيغاس، نيرودا أو دي روكا. وفي هذه الأعمدة جرى التعليق كذلك على امتداح نثر شيطان يقول إنه ضد الشعر، ويسمي نفسه نيكانور بارّا، وهو شخص ما كنت لأحتفي به قدر قلامة ظفر. وقد أحسن الأب سالفاتييرا القول عنه إننا نجد أنفسنا حيال سلة مهملات.

ولكنني أدرك أن إعجابك بمقالاتي السياسية، في المقام الأول، هو مسوغ الوظيفة التي تعرضها عليّ، والتي ترفع شخصاً جلفاً من بحار ماليسيا إلى أعلى المراتب، بطريقة تشبه صعود مريم العذراء إلى أعلى السماوات.

لست أدري كم صوتاً أضافت إلى قضيتك معركتي ضد الأيديولوجية الماركسية، ولكنني لا أظن أنها كانت كثيرة ولا قليلة. لقد ناضلتُ ضد الدكتور ألليندي في بارات كالاما، في مواجهات رياضية؛ وفي مناقشات نظرية حيث دعوته لأن يحدد كيف سيوفق بين تحالفه مع الشيوعيين، كلاب الروس والماريشال تيتو، وأغنياته

المتبجحة عن الليبرالية البرجوازية.

السيد سلفادور الليندي يرى في نفسه وطنياً يواصل مهمة أبطال التحرير. كل خطوة يخطوها تندرج ضمن تقليد تحريري لا انقطاع فيه. فتحقيق الثورة، حسب رأيه، يستدعي تجميع القوى وعدم استبعاد طاقات البروليتاريا. كل هذه الأساليب اللفظية المحلاة والميكافيلية ستصب عاجلاً أو آجلاً في حكومة ذئب بلبوس حمل. إنني أستشف سنوات فظيعة لتشيلي.

وقد جئت حضرتك بدقة رجل متزن ومتبصر لتؤخر هذه اللحظة المحتومة التي لا مفر منها. لم تأت معك بالقوة الهمجية، وإنما بسمعة الأكاديمي وتوازن من يزن بميزان الوطن موارد من يستثمرون وموارد أولئك الذين يعملون فقط. حضرتك توازن بحساسية كبيرة بين المسألة الاجتماعية وموضوع دخل الفرد. وليس هناك، بالتالي، ما يمنعني من أن أكون أشد معاونيك ولاء ونزاهة.

ومع ذلك، مع ذلك يا خورجي، هناك ظل طائر مكابر وكالح ينقر قلبي ويؤخر الـ نعم الحماسية التي تستحقها حضرتك.

إنني آت من جزء من بلد بعيد مسفوح على الخريطة في عدد قليل من الجزر المبعثرة. لغتي الأولى كانت الدالماسية، ومنذ أن وعيت على الدنيا احتل غرباء قريتنا الصغيرة وباعونا أفكارهم، وإمبراطورياتهم، وملابسهم، وكنائسهم. في الفضاء الأدنى المترع بالخواء الذي تشغله حياتي وجزيرتي، جرت بالرغم من ذلك أحداث لا أتردد في القول إنها إعجازية. فقد كانت هناك نواقيس هائلة من الحديد المشغول معلقة بأبراج كنيسة مسقط رأسي في جيما، بالرغم من أنها، وفق الحسابات الفيزيائية لشخصيات بارزة مثل الإسباني تورينتس، لا بد أن تكون قد سقطت منذ قرون بسبب وزنها غير المعقول، أو الذي لا تسمح به قوانين الجاذبية على الأقل.

جئتُ إلى تشيلي بروح البداوة، يستعجلني كذلك نثر مؤثر وفخم

كتبته احتفاء بتمرد بعض الشبان الماليسيين ضد الإمبراطورية النمساوية الهنغارية، انتهى بقمع دموي مازالت دماؤه، بعد مرور خمسين سنة، تطل عليّ ليلة إثر ليلة من بين أمواج البحر الأدرياتيكي الذي كان مسقط رأسي. لا أدري مدى تأثير نثري في بث الحماسة في أولئك الفتيان الأبطال واندفاعهم لمواجهة الجيش المنحوت في مهنية احتراف عسكري صارم، تبدت سطوته في الحرب العالمية الثانية التي شاء حسن الطالع أن يكسبها الحلفاء. وفي حملات القمع الهمجية المعادية تلك، قضت نحبها أميرة تدعى آليا إيمار، ومات معها التاجر النبيل جيرونيمو فرانك، وتشتت في العالم أبناء جلدتي الماليسيون ليمنحوا بلاداً أخرى رقة صمتهم ومهارة أيديهم وعقولهم.

إن تولي مسؤولية هذه الجوهرة القائمة في الصحراء، والمسماة مدينة أنتوفاغاستا، يستدعي الاهتمام بأمر الأمن العام. ولكن التوترات التي تشهدها البلاد، ولاسيما هذه المنطقة الغنية بالمعادن المنجمية والفقيرة بالشفقة، تجعل من الممكن توقع خلافات لا تُحل بجلوس الأطراف إلى طاولة الحوار. وكما هو معروف هنا فإن الجيش قد أطلق النار على العمال، وكان بين القتلى عدد من أبناء جلدتي الذين حركتهم غريزة العدالة الخالصة. لستُ أنتقد، يا دون خورخي، من يكبحون الفوضى الاجتماعية بقوانين صارمة تحجب حقوق المواطنة عمن ينقلون جراثيم تدمير المجتمع. إنني أحيي **القانون الملعون** الذي أصدره الجنرال غونثالث بيديلا ونزع به الشرعية عن الحزب الشيوعي. كلمة *الثورة* تسبب لي حكاكاً. فهذه المفردة ليست إلا شعوذة *أبراكادابرا* لاصطياد الحمقى تنتهي بالموت، والجور، والقمع في كل مكان تشتعل فيه.

ولكن الأمر المختلف تماماً هو إطلاق الرصاص أولاً ثم الدعوة إلى الحوار بعد ذلك. ولست أقول هذا عبثاً يا دون خورخي، ففي مظاهرة جرت مؤخراً، اخترق الرصاص أحد أخوتي الماليسيين، وكان قد وصل إلى تشيلي مع أحد عشر آخرين يوحدهم جواز سفر جماعي أصدرته

لهم قنصلة شاعرة أُقدر أشعارها أكثر بكثير من تقديري لأشعار دون بيكافلور بارّا.

وقد كنتُ أنا نفسي، بتأثيري الأدبي المزعزع، من تمكنت من تحويل جواز السفر الجماعي العبثي ذاك إلى اثنتي عشرة وثيقة شخصية أتاحت للشبان إجراء معاملاتهم المدنية، مثل عقد الزيجات، والحصول على قروض مصرفية. وقد نتج عن موت هذا الماليسي بالرصاص في إيكيكي امرأة أرملة، وأبناء أيتام، وديون غير مسددة. وزرع في نفوس كثيرين، بمن فيهم مناضلون ضد القضية البلشفية، ألماً يتحكم بحياتنا كلما كان علينا اتخاذ قرارات حاسمة.

المنصب الذي تعرضه عليّ، يا سيدي الرئيس، يستدعي ممارسة الحكم، ولكنه يتطلب ممارسة القمع أيضاً. أعرف أن حضرتك ستبقى حضرتك، وأن مرؤوسيك هم أشخاص مستقلون ومسؤولون عن أخطائهم. ولكن كل أعمال العنف التي يرتكبونها ستُقيد في حسابك، لأنك أنت، بفضل الرب، رئيس تشيلي.

وهنا يكمن السبب الذي يحملني غريزياً إلى التراجع حيال عرضك.

أعرف أنه تصرف غير عقلاني وغير واع بعد مشاركتي الحماسية في الحملة التي توجت بفوز حضرتك بهامش ضيق من الأصوات، أوصلك يوم أمس إلى قصر لامونيدا. اعذرني يا صاحب الفخامة لأني أعض بمكر اليد التي تطعمني، وتوسل لي عذراً في أن تصرفي هو خرافة عجوز ماليسي يسري في خلاياه العصبية، فضلاً عن الحروب الكثيرة، القصور العاطفي في الوفاء لما يشعر به.

هذا يعني أنني رجعي ولكنني جمهوري.

خادمكم الوفي.

روكي بافلوفيتش.

مدير جريدة الهيرالدو.

LI

English for the New World
Lesson 10
At the American Consulate

«الآنسة رودريغيث تزور القنصل».

«Hello. I'm Mr. Johnson. I'm the American Consul in Chile.»

«Hello. My name is señorita Rodriguez.»

«Glad to meet you, señorita. What can I do for you?»

«I want to enter the United States and I would tike to apply for a visa.»

«Do you want to travel as a tourist or as a student?»

«As a student.»

«Do you intend to work in the United States?»

«Oh, no! An American University has offered me a scholarship.»

«Congratulations. You must be a very good student to obtain such an invitation.»

«Oh, yes. And I've already approved the English proof.»

«Yes, indeed. I see your pronunciation is perfect.»

«Thank you, Mr. Consul.»

«Could you exhibit some document from the university stating the fact that they are providing you with a grant?»

«Of course. Here it's.»

«Oh. Columbia University! You're really a lucky dog!»

«Is it New York a dangerous city?»

«Not any more dangerous than any other big city in the world. Everything seems to be in order. Please pick up your visa the day after tomorrow.»

«Thank you, Mr. Johnson.»

«Take care, Señorita Rodriguez».

الإنكليزية للعالم الجديد

الدرس الأول

آليا إيمار كوبيتا في القنصلية الأمريكية.

ـ مرحباً، كيف الحال. أنا القنصل، السيد باتريك مورغان.

ـ مرحباً، أنا الآنسة كوبيتا.

ـ ما الذي يمكنني أن أقدمه لك يا آنسة كوبيتا؟

ـ أريد تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة.

ـ تأشيرة عمل، أم سياحة، أم دراسة؟

ـ سياحة.

ـ يهمك التعرف على بلادي؟

ـ نيويورك فقط.

ـ آه! *The Big Apple*.

ـ*I wanna bite it, sir!*

ـ*That's vary funny*. عليّ أن أخبرك بأن جميع من يرغبون في قضم التفاحة الكبيرة، يكسرون أسنانهم.

ـ*I will take my chances*.

ـ لا بأس، يا آنسة كوبيتا. هناك بعض الإجراءات الضرورية كي أتمكن من منحك سمة دخول إلى الولايات المتحدة.

ـ حاضر.

ـ من سيمول رحلتك وإقامتك في نيويورك؟

ـ أنا نفسي.

ـ ومن أين تأتي مواردك؟

ـ أنا أملك سيارة شفروليه 56، أؤجرها للمآتم والأعراس.

ـ إنهما الشيء نفسه في نهاية المطاف، أليس كذلك؟ *Well, that was only a joke*.

ـ*Funny, Very funny indeed*.

ـ هذا يعني أنك عاملة مستقلة.

ـ سيدة أعمال.

ـ فلنقل، سيدة أعمال. روكفلر رجل أعمال، والآنسة كوبيتا سيدة أعمال.

ـ مع الاحتفاظ بالمسافات.

ـ أفهم. يخيل إليّ أن سيارتك الخردة توفر لك ما يكاد يكفي لمواصلة العيش.

ـ الشفروليه دي لوكس موديل 56، هي سيارة جيدة يا مستر مورغان.

ـ الشفروليه دي لوكس موديل 56، كانت سيارة جيدة في سنة 56، يا آنسة كوبيتا. اليوم يشتريها تلاميذ الثانوية في بلادي بألف دولار.

ـ يبدو أننا هنا نقدر بصورة أفضل منجزات الصناعة الأمريكية الكبرى.

ـ آه، أجل. تشيلي بلاد شديدة الهشاشية.

ـ الحساسية، أيها السيد القنصل.

لقد تفحصت الاستمارة الخاصة بك، وهناك أمور تبدو غريبة.

ـ ما هي؟

ـ هويتك. من تكونين حقاً يا آنسة كوبيتا؟

ـ آليا إيمار كوبيتا. حفيدة مهاجرين ماليسيين إلى تشيلي في أوائل القرن.

ـ لا توجد أي وثيقة في السجل المدني التشيلي تشير إلى وجودك.

ـ ولكنني موجودة. أم أنك تجد في ورقةٍ ضمانة أكبر من وجودي هنا أمامك؟

ـ هذا صحيح، حتى لو بدوت لك شديد البيروقراطية يا مدام. هناك كوبيتا واحد في القائمة الطويلة للأجانب المقيمين في

تشيلي...

ـ ... مثل حضرتك، أيها القنصل...

ـ *Good point*. مثلي. ويرد اسم هذا السيد، إستيبان كوبيتا، كعازب. فإذا كنت تدعين أن هذا السيد هو جدك، فلا بد أن هذا النسل كان على هامش القانون.

ـ على هامش القانون البرجوازي، يا سيد مورغان.

ـ ياي! يا للكلمة الحاقدة من فتاة شابة!

ـ الحقد شعور قاحل. وأنا لا أشعر بالحقد تجاه أحد.

ـ ولا حتى تجاه البرجوازيين الخنازير؟

ـ لم أستخدم هذا المصطلح قط.

ـ ممكن، لكن أصدقاءك يستخدمونه.

ـ لست أفهم ما علاقة كل هذا بتأشيرة دخولي، يا سيد مورغان.

ـ لا توجد علاقة مباشرة. أما علاقة غير مباشرة، فنعم. هناك عدة ثغرات عفنة، وعذراً للتعبير، لابد من ردمها قبل أن أختم جواز سفرك.

ـ وما هي؟

ـ أنت تتقدمين إلى قنصلية الولايات المتحدة الأمريكية بشخصية مزيفة. اسمك الحقيقي ليس آليا إيمار كوبيتا، وإنما مجدلينا. مجدلينا إكس. مثل مالكولم إكس. أتفهمين ما أعنيه؟

ـ أفهمك يا سيد.

ـ هل هناك سبب، مهما بدا غريباً، دفعك إلى تغيير اسمك الأصلي باسم آليا إيمار كوبيتا؟ هل لديك ما تخفينه يا ترى؟

ـ بالعكس، يا مستر مورغان. لدي ما أكشف عنه. آليا إيمار كوبيتا كانت جدتي، وقد اغتصبها جنود الإمبراطورية النمساوية الهنغارية. وربما هي لا تزال تعيش في سواحل ماليسيا، وقد انحرف عقلها.

ـ أفهم. أنت تريدين استرداد اسم جدتك.

ـ وعندما قاتلتم ضد النازيين، أيضاً. أفكر في غلين ميلر.

ـ في إيزنهاور!

ـ العم إيزنهاور *okey*. أعطني التأشيرة أيها القنصل، *I want to get the hell out of here!*.

ـ سأفعل ذلك بكل سرور. ولكنك أكثر الأشخاص غير الملائمين لنيل أي نوع من تأشيرات الدخول إلى الولايات المتحدة.

ـ لماذا؟

ـ الأسباب سرية، ولكنني سأخبرك بها واحداً فواحداً تكريماً لإعجابنا المشترك بإيزنهاور وغلين ميلر. السبب الأول هو أن الاستمارة المطبوعة، وكإجراء روتيني محض، تستدعي أن تذكري اسم أبيك وأمك. أتتذكرين جوابك؟

ـ X.

ـ بالضبط. بهذا الجواب تقوضين لي الهدف من أسئلة الاستمارة. ولا يمكنني السماح لك بعبور نهر ريو غراندي! أنت تتطابقين مع شخصية توبسي في ***كوخ العم توم***: « *Never was born, never had no father, nor mother, nor nothin... I 'spect I growed!* »، هل فهمت؟

ـ أيها القنصل، لم أحصل على سبع درجات إلا بالإنكليزية والفرنسية. ينظرون إليّ على أنني *snob* كاملة. ولكنني أقسم لك إنك جعلتني بهذا النص *groggy*. لقد كان جدي ملاكماً.

ـ ما قيل عن توبسي ينطبق عليك. أنت لم تولدي قط. لا أب، لا أم. يخيل إليّ أنك كبرت مثل خسة.

ـ هذه ليست جريمة.

ـ ولكن عضوية الحزب الشيوعي هي جريمة في الولايات المتحدة.

ـ أنا عضو في الحزب الشيوعي! سيد مروغان، إنني أسوأ الخنازير البرجوازيين!

ـ ولكنك معجبة بالليندي!

- هل كتبتُ هذا في طلبي؟

- سيدة كوبيتا، هذه المحادثة تخرج عن كل التقاليد. وأنا أواصل الحديث معك متجاوزاً البرتوكول لأننا نعرف أن أباك مات في شواطئ ماليسيا وهو يقاتل ضد النازيين.

- سيدي القنصل، هذا أول خبر محدد أحصل عليه في حياتي حول ما حدث لأبي.

- أنت لا تزالين شابة. وسوف تعلمين شيئاً فشيئاً.

- وهل تعرف ما كان اسمه؟

- الـ CIA تعرف ذلك. ربما يعلنونه في أحد الأيام.

- هذا الأمل وحده كاف لأن أنهمك في البحث عن إبر في كومة قش.

- يسعدني أن تغادري هذا المكتب وأنت متحمسة. لا يمكنني منحك تأشيرة.

- وإذا ما تمكنتُ من إثبات أن لي قريباً في الولايات المتحدة يريد رؤيتي؟

- حسن، هذه مسألة أخرى. هل لديك أي دليل؟

- بطاقة من أخ جدي راي كوبيتا. من صمم ***كينغ كونغ***.

- أرني إياها.

- يجب أن تفهمها كاملة. إنها بالإنكليزية.

- أفهمها على خير ما يرام. وأفضل ما أفهمه هو خاتم البريد *return to the sender*. النص بكامله لك يا آنسة آليا إيمار، وجدك المزعوم لم يقل كلمة واحدة من هذا كله.

- ولكنك بقليل من طيب النية تستطيع أن تقول إنه هو الذي يدعوني إلى USA.

- ولا بـ *delirium tremens* سأجازف بحياتي الدبلوماسية. منصبي القادم في البرتغال.

- برتغال سالازار.

- إنها أكثر هدوءاً من تشيلي مع ألليندي.

- هل سيكسب؟

- لا تستغلي ثقتي يا آليا إيمار كوبيتا.

- من المؤكد أن لا أيها القنصل.

- وأمر أخير. سواحل ماليسيا هي الآن تحت سلطة يوغسلافيا. حمر مثل الدم الأراوكاني.

- بلد غير منحاز يا سيد مورغان.

- بالطبع. مثل كوبا. الوداع يا صبية.

- الوداع.

- خذي الصورة التي على طلبك. يمكن أن تقدميها هدية إلى خطيبك. هل لديك شيء آخر تقولينه لي؟

- أجل. تحياتي إلى الآنسة رودريفيث. أعرب لها عن أحر حسدي القلبي.

LII

شلالات وتصادمات. الأشياء تندفع متسارعة والأشخاص يصطدم بعضهم ببعض، وتكتشفين فجأة أن العالم ليس هذا الأطلس الجميل على الكوميدينو الذي خلّفه لك الجد إستيبان وإنما هو حشد من الأجساد تتراقص في الفراغ.

عجلات الحافلة تلطخ تنورتك، وسيارة أجرة تصدم سيارتك الشفروليه من الخلف وتبعج واقية الصدمات الخلفية، وجوفانا تطلب مني أنا الإذن لتتزوج من سيبولبيدا، هناك مشروع لإغلاق سينما القصر من أجل تحويلها إلى مطعم صيني، وألليندي يرسل إليّ خبراً

يقول إنه يكلفني بمسؤولية تنظيم دورة تثقيفية للراشدين في ضاحية فكتوريا.

دورتي الشهرية تأخرت عن موعدها.

أقود السيارة وحدي إلى بالبارايسو.

أتناول الغداء في مطعم **المركب البحري**، وأتقبل كأس نبيذ مثلج إلى جانب الحلوى. شمس الظهيرة لا تبعث الدفء في هواء المحيط البارد، ولكنني أفضل البقاء هناك مخدرة من البرد قبل أن أغادر الشرفة.

هذا الأمر يجب أن نتولى حله أولاً أنا والبحر.

يتركز نظري على صخرة وأرى طفلين يستخرجان رخويات من بين الطحالب. يضعان الطُعم في كيس من الخيش ويتقدمان بأدوات صيدهما باتجاه مخبأ السرطانات.

أغمض عيني واحاول أن أتصور كل ما هو في أعماق المحيطات. أحاول أن أخمن، وأنا ألمس بطني، اللحظة التي بدأ فيها تشكل برعم الحياة، وأشم عبق الطحالب العميقة. أبني سفينة غارقة بين رموشي وأتصور سائلاً أصفر يخرج من نفق. وعندما ينحسر الماء، يهتز السطح في ومضات تتشبه بأشياء مادية.

هناك صمت بين موجة وموجة. وهناك بالضبط حيث توجد حياتي في هذه اللحظة. خارج مشهد الاضطراب غير المتناهي، لاجئة في وجودنا الميكروسكوبي. لا بد أن البحر يعرف ويصمت، وأنا أنتظر الآن شيئاً لا يصل والأمواج تهدأ، والساعات تنقضي.

سأترك الأشياء تحدد الزمن الذي يناسبها. سري يصبح في أول الأمر شكاً، وبعد ذلك يقيناً؛ والناس الذين حولي ستكون لهم آراؤهم الخاصة، وأنا سأكون على المدى البعيد وحيدة لكي أتخذ القرار.

أبحث في مفكرتي عن رقم هاتف كارمن لويسا اسبينوسا. لا أجده في البدء. إنه في صفحة الحرف «س» ***بيتي سيمبسون***.

عند عودتي إلى العاصمة، أصعد عبر جادة ماتا، وأواصل في شارع إراراثافال، وأمر من أمام محلات الشمس للخردوات، وأوقف السيارة في شارع بيدرو دي أونيا. لدى والد بالاثيوس وردية عمل في الورشة. أذهب إلى المطبخ لأرى إن كنت أجد شيئاً. هناك علبة كاملة من معكرونة كاروزي، وصلصة بندورة، ونصف قالب من الزبد، وطنجرة ألمنيوم واحدة نظيفة على الأقل. لقد أحضرت معي من الميناء كيلو أصداف بلح بحر وزجاجة نبيذ.

سأحضّر معكرونة على طريقة بونغول. دون لورينثو يضع جبناً مبروشاً على *الاسباغيتي* مع المحار. سأترك له كل شيء جاهزاً في الثلاجة مع ملاحظة أقول له فيها إن الشبان في إيطاليا يتضايقون إذا ما أضاف لهم أحد جبناً على ثمار البحر. لقد أخبرني الجد بذلك ولم أنسه. الذاكرة تقوم بوظيفتها على هواها. يمكن لها أن تراكم كمية كبيرة من القمامة والمعلومات غير المجدية. أنا لا أعرف، مثلاً، ما الذي يمكنني عمله إذا ما بدأتُ أنزف الآن.

يسعدني امتلاك سرّ. يسعدني أن أكون أكثر كينونة. أيستطيع بيدرو بابلو اكتشاف السر من حركة ما؟ هل سينتبه إلى أنني حبلى عندما أدفع شعري إلى الوراء عن صدغي؟ أو إذا ما ابتسمت له وظللت أنظر إليه ثانية أكثر من المعتاد؟

أُعدّ الصلصة مع نبيذ أبيض، وأنتهز الفرصة لأتناول عدة رشفات. كل شيء غير مؤكد. وكل ما هو غير مؤكد يبدو غير مؤكد بصورة مبهمة. إنه غير مؤكد بصورة بالغة الإبهام.

قبل أن يدخل إلى البيت، كنت أعرف أن بالاثيوس على وشك الوصول. أُلقي المريلة على الكرسي، أرتب شعري بأصابعي، أذهب إلى غرفة المعيشة وأشعل شمعتين. ومن الفراموفون تصدح أغنية *Moonglow* لموريس ستولوف؛ أرفعها وأضع أغنية يحبها دون لورينثو: «كيف كان، لا أعرف كيف كان ذلك، لا أستطيع شرح ما جرى، لكنني في

حبك وقعت.» هذه الأبيات تتوافق مع دوران المفتاح في قفل الباب.

يدخل إلى غرفة المعيشة كما لو أن الحجرة المتواضعة هي قاعة طعام الملك في قلعة. أو كما لو أنه هو نفسه فرقة فرسان الملك؛ فقد كان يزفر كما لو أنه في جريه إلى هنا قد ابتلع هواء المدينة كله ويريد الآن إعادته في جرعات لهاث صغيرة.

ـ ألديكِ ما تودين إخباري به؟ ـ يسألني بلهفة.

ـ إذا كنت تسأل عما إذا كان لدي شيء أخبرك به، فهذا يعني أن لديك ما تود إخباري به.

وضع على المنضدة زجاجة شمبانيا وانحنى ليلمس حرارتها على خده.

ـ النخب أولاً أو الخبر؟

ـ الخبر أولاً أيها المهرج.

قام بحركة ساحر وأخرج من جيب قميصه مغلفاً غامضاً، ثم مغلفاً آخر سميكاً من جيب البنطال الخلفي.

عزيزي بالاثيوس:

بعد انقضاء شهور على حملي أوراقك دون أن أوصلها إلى الأكاديمية، التقيت قبل أيام، في حفلة إطلاق كتاب لديانا عنوانه *Too much, too soon*، التقيت مع لي ستراسبيرغ وابنته سوزان التي لا بد أنك رأيتها في دور الأخت الصغرى لكيم نوفاك في فيلم ***نزهة***. وكان معهما الكاتب وليم آينج، ولسبب من أسباب القدر تذكرتُكَ في تلك اللحظة، وتذكرتُ مدى إعجابك بفيلم Joshua Logan، ومنولوجك عن ماركو أنونطيو، ورأيت أن أتحدث عنك إلى ستراسبيرغ، وأقدم إليه التماسك في الانضمام إلى معهده قائلاً له إنني أعتبرك شاباً جيداً وكل هذا الكلام الفارغ الذي يقوله أحدنا في مثل هذه المناسبات. وعندئذ أوقفتني ديانا فجأة، لا لشيء إلا لتضيف قائلة إنك ممثل

عظيم، ونوع من جيمس دين أمريكي لاتيني، وإنك تحفظ عن ظهر قلب أعمال الكلاسيكيين بالإنكليزية، وإنك كنت مقرباً من الشاعرة غابرييلا مسترال، وإن الوقت قد حان لأن يعمد اليانكيون مرة إلى إحضار فنانين من بلدان أخرى وتدريبهم هنا، بدلاً من إرسالهم الشباب إلى كوريا. أما أنا فقد انفتح فمي نصف متر من الدهشة، وكاد فكي السفلي يصل الأرض، عندما سمعت لي يقول لديانا إنه كان على الدوام صديقاً مقرباً لأبيها جون باريمور وإنه في نهاية المطاف، ونظراً لأن، وباعتبار أنه يريدها أن تشارك في التمثيل في فلمه القادم، فسوف يكتب إليك ليعرض عليك المجيء لتدرس عنده. وقد احتفظ بوثائقك القذرة في جيب سترته، وواصلوا بعد ذلك شرب الشمبانيا. لم أبنِ أية أوهام على ما قيل، لأن الجميع، باستثناء سوزان، كانوا مخمورين جداً مثل بحارة في ماخور، بمن فيهم أنا نفسي، وبعد دقيقة انتقلوا إلى انتقاد لاذع لجين مانسفيلد، وهي كما تعرف توفر مادة واسعة للثرثرة عنها. وهكذا ذهبنا إلى النوم، ونسينا كل شيء.

وهذا الأسبوع اتصلت بي هاتفياً سوزان الصغيرة قائلة إن أباها طلب منها أن تكلمني وتخبرني بأن السيد بيدرو ب. بالاثيوس، هذا يعني أنت نفسك أيها النذل، قد قُبل طالباً في «الأكتورز ستوديو»، وأنها تريد عنوانك في معهد المسرح كي تخبرك رسمياً بقبولك.

ما الذي يمكنني قوله لك يا صديق وادي إيلكي؟ أهلاً وسهلاً بك في الغابة!

يوجد في منهاتن مارلونات براندو أكثر مما يوجد من الصراصير في متر مربع، وإذا أنت لم تفعل شيئاً أصيلاً، كأن ترقص رقصة الكويكا عارياً، فلن يعيرك أحد اهتمامه. ولو أنني كنت مكانك لفضلت البقاء في تشيلي، فمن الخير للمرء أن يكون رأس فأر على أن يكون ذيل أسد؛ غير أنك مازلت فتياً ولديك حماسة كبيرة، ولك كامل الحق في أن تجرب حظك.

عندما تجيء سأدعوك إلى بار أيرلندي كان يرتاده ديلان توماس، وسأبكي ليلة بطولها على كتفك وأنا أحدثك عن السنوات التي أقضيها دون عمل.

لك تحيات وعناق صديقك سينيوريت.

رفع بيدرو بابلو الرسالة في قبضته، كما لو أنه يرفع شعلة أولمبية، وترك الدموع تحمم وجنتيه. وحين عانقته، وضعت أذني على قلبه، فاجتاحني إيقاع دوي تلك الأجراس الاحتفالية.

- أما هذا المغلف الآخر - قال - فيحتوي بطاقة سفر: سنتياغو - نيويورك، *one way*.

- لقد حققتَ الفوز يا يورك نيو.

- كانت سنوات طويلة من الانتظار، أليس كذلك؟

- منذ المدرسة الابتدائية.

- لقد فزنا يا حبي.

- أنتَ فزت، أما أنا فلا.

- أنتِ أيضاً. فعندما أحصل على دوري الأول، سأرسل في طلبك. سأبعث إليك تذكرة سفر. آليا إيمار كوبيتا *one way*.

- آليا إيمار كوبيتا بلا عودة. للعبارة وقع جيد. بالإنكليزية وبالإسبانية.

- حان الآن موعد فتح الشمبانيا.

وقد فعل ذلك، ليس كسيد محترم، وإنما كما كان يمكن لمارلون براندو أن يفعل في فيلم *المتوحش*، فقد هز الزجاجة بعنف قبل أن يدفع السدادة طائرة. وأدى ارتطامها إلى سقوط صورة أمه المعلقة على الجدار. وبينما هو يسكب الشمبانيا، عدت أنا إلى ارتداء المريلة.

- العشاء جاهز يا بالاثيوس. معكرونة مع المحار على طريقة بونغول.

ـ ومن أين جئتِ بالقواقع يا فتاة؟

فأجبته:

ـ ذهبتُ لشرائها من بالبارايسو.

LIII

عندما اتصلت بها أول مرة، قلت لها إن الموضوع شخصي. عليّ أن أسألها عن شيء وجهاً لوجه؛ فأغلقت الخط بكل بساطة. بحثت في اليوم التالي في المدينة، ولم يستطع أحد أن يخبرني بشيء. إما أنهم لا يعرفون، أو أنهم لا يريدون أن يتذكروا ما يعرفونه. ثم إن توجيه السؤال يتكلف مشقة. ذهبتُ إلى مستشفى جامعة تشيلي وتصنعت ألماً ملحاً في المعدة. كان الطبيب يضع نظارة، وفوق مكتبه صورة لماركس. سألني ألف سؤال عن الجامعة، وبعد ذلك جعلني أستلقي على منضدة الفحص. كان التقويم الآن أمامي، وفيه أيام الأعياد في شهر أيلول. في الخامس عشر، قبل العيد الوطني، سيودع بيدرو بابلو بالاثيوس أصدقاءه بتقديم مقاطع من ***فاوست*** في المسرح التجريبي.

في السادس عشر، *one way one person New York*.

طلب مني الطبيب أن أُنزل سراولي الداخلي، وبدأ اللمس والضغط على الحوض، المعدة، الكبد. لم أشعر بالألم، لكنني قلت له لا تضغط بشدة يا دكتور. طلب مني أن أرتدي ثيابي. منذ كم شهر انقطع حيضك؟ شهرين. خدمة الرفاه تقدم برنامجاً للطالبات اللواتي في مثل وضعك. وهناك أيضاً حضانة للأطفال في كلية التربية. أم أنك...؟

نظرت إليه بيدين متقاطعتين على صدري.

أو أنني... يا دكتور.

لا أنصحك بذلك. فهذا غير مسموح به في المستشفى، والتجارة خارج المستشفى في أيدي أناس متوحشين. أعني تجنبي ذلك. تستطيعين.

أستطيع.

يمكن لك أن تموتي أو أن تصابي بالعقم. وهل أصيبت أمي بمرض خطير. وهل أبي على قيد الحياة. أجل يا دكتور. لا يا دكتور. كلاهما، والحمد لله، بصحة جيدة.

أعدت الاتصال بكارمن لويسا إسبينوسا. كانت قد انتقلت إلى حي آخر. من الأفضل يوم الاثنين، لأنه لا توجد بروفات. على ماذا؟ إننا نتدرب على *كارولينا* لإسيدورا أغييري. أنا أقوم بدور البطولة، هذا يعني، أنا من تنزل من القطار، وفي المحطة أتجادل مع زوجي ويظهر الفتى الذي يقول إنه يدرس الهندسة. المدعو فرناندو. قصة حب بين قطارين.

ذهبتُ في موعد تناول الشاي. كان بالاثيوس قد نام القيلولة في بيتي، وكما هي العادة، مارس معي الحب قبل أن يذهب للاستحمام. أنا لم أستحم. أردت أن أبقى محتفظة برائحته حتى الليل. إلى أن يعود ويقول لي مزيداً من الكلام، مزيداً من القبلات، ومزيداً من عضوه.

كانت جوفانا قد استسلمت لما لا مفر منه. وكان ميثاقاً بين سيدتين. يمكن لسيبولبيدا أن يملأ المنافض بأعقاب السجائر في غرفتها، بل وأن يعقد اجتماعات نقابية في غرفة المعيشة؛ أما في غرفة الجد فيمكنني أن أُحضر من أشاء. هذا يعني أن أحضر بيدرو بابلو بالاثيوس فقط. كان حبيبي أكثر راديكالية من أستاذ الرياضيات، لكنه لا يريد ثورة أرثوذكسية، وإنما ثورة شاملة، تغيير ينسف أحزاب ومنظمات الماركسية البيروقراطية.

سيبولبيدا الذي اختير مسؤولاً عن جمع التبرعات، كان يطلق على حلم بيدرو بابلو اسم «الثورة الاستمنائية». ويطلق عليّ أنا لقب **أوفيليا**

لأنني لا ألامس الواقع وإنما أهيم في **كلام كلام كلام**.

يقع بيت كارمن لويسا إسبينوسا في زقاق موازٍ لشارع ماتوكانا، بالقرب من لاكينتا نورمال، حيث يقفز في أيام الآحاد مبشرون ممسوسون، يعلنون أنهم كانوا في أحد الأيام أوغاداً غير جديرين، لكن الرب مدّ يد العون إليهم؛ فلم يعودوا يشربون النبيذ، ولا يترددون على المواخير، ولا يهزون السكارى في الحانات. الفئة الأخرى في الحي هم مجندون بلا هموم، يدعون الخادمات المنزليات إلى الرقص، ويقتادونهن مع الغسق للتجديف في زوارق، يرسون بها قريباً من أجمة كثيفة كي يرفعوا لهن تنانيرهن.

كانت تبدو أكثر بدانة بقليل، وأقل شحوباً مما كانت عليه في المرة الأخيرة. اقتادتني إلى غرفة المعيشة، وقفز عن الأريكة، ماداً لي يده للمصافحة، رجلٌ مألوف لدي، وإن يكن ممحواً من ذاكرتي.

- ألا تذكريني يا مجدلينا؟

كان يكفي أن يهمس بهذه الكلمات، ويبتسم ولسانه يطل من بين أسنانه كي تعيده لي الذاكرة دون جهد. إنه بائع التذاكر في سينما القصر، ذاك الذي كان يجمع سراويلنا الداخلية.

وقالت كارمن لويسا:

- إنه زوجي. وهو من الأزمنة التي كنا جميعنا نريد أن نكون بيتي سيمبسون.

- لقد تزوجنا - ابتسم الرجل -. إذا ما أغلقوا سينما القصر، سيكون عليّ البحث عن عمل آخر.

أومأت إليه كارمن لويسا بأن يغادر. سوف نتحدث في أمور نساء. ذهب قاطع التذاكر إلى الداخل وهو يبتسم ابتسامة ساخرة.

- إنه رجل طيب يا آليا إيمار. لقد تحمل مسؤولية **الوليد** ومنحه أختاً كذلك. عندما أكون في التدريب، في الليل، يأخذهما معه إلى السينما ويدخلهما في حجرة آلة العرض.

- أنت لم تجهضي إذاً؟

- صديقتي الوحيدة رفضت إعطائي النقود.

- لم تكن المسألة هي النقود وحدها.

- لا تتصنعي دور الناصحة أيتها الصغيرة. أنت الآن أكثر انتفاخاً من فرس حقل.

- لم أكن أدري آنذاك إذا ما كنت أقدم لك جميلاً بإعطائك ما طلبتِه.

- ما كل هذا التصنع، بالله عليك! أتدرين كيف أعرف بنفسي؟

- لا أعرف يا كارمن لويسا.

- كهاوية. *ملكة جمال القبلات دون لسان.*

- ولكنك تعملين في المسرح. لقد أخبرتني أنك ستلعبين دور كارولينا.

- بعد التدريبات عليّ أن أرجع إلى البيت.

- وابناكِ؟

- بعد أن تنجبيهم تجدين نفسك تحبينهم. ترغبين من أعماق روحك ألا يتعفنوا معك.

أشعلت سيجارة وأطلقت الدخان إلى أعلى وهي تُدوِّر فمها. على طريقة ممثلة كبيرة.

- كم شهراً مضى عليك؟

- حوالي الشهرين.

- بالاثيوس؟

- لم أعرف أحداً سواه.

- كان يقبّل بطريقة شهية ذاك الأبله. عندما كنتُ ببيتي سمبسون وكان يورك نيو.

لقد ذبلت تقاويم كثيرة منذ ذلك الحين، ومع ذلك لم أستطع كبح إحساسي بالغضب. نفخت أنفي كي أخفي وجهي.

- اصمتي، أتريدين؟

- حسن يا صديقتي. انظري، كل الأماكن بالغة السوء. بعضها يعتني بالنظافة أكثر من غيره، ولكن هناك بعضها يشرف عليه أطباء. إذا ما أصابك شيء، يواجهون الطارئ. إنها غالية جداً. وماذا عن سيارتك؟

- تضررت واقية الصدمات، لكن المحرك ما يزال حريراً. قبل أيام ذهبت بها إلى بالبارايسو.

- أتودين رؤية طفليّ؟

- لا. أعطني عنواناً.

- طبيب أم قابلة؟

- أريد دكتوراً.

بحثت في مريلتها وأخرجت قصاصة ورق.

- هذه مسألة ثقة. لا يمكنك إعطاء الاسم لأحد آخر.

- مفهوم.

نهضتُ لأنصرف. أوقفتني هي ورأيت أن طلاء شفتيها قد لطخ السيجارة.

- فعلها بالاثيوس إذن؟ - سألت.

LIV

في 17 أيلول تُبرز مفكرتي الملاحظات التالية: يوم الاثنين 14 أيلول، مشاهدة *فاوست*. الثلاثاء 15، الذهاب إلى *المطار*، الأربعاء 16 *العيادة*.

إنني حائرة من ضعف ملاحظة بالاثيوس. فأنا أشعر بأنني أعلن عن حالتي الجديدة بما يشبه الصراخ، وهو يتجاهل ذلك بكل دقة.

وداهية الدواهي أنه لا وجود لحديقة بائسة واحدة في سنتياغو لم يدخلها الربيع. الحدائق تهاجم البصر، الأوراق تخضر في الندى، مرشات الري الآلية تدور بهمة، تلاميذ المدارس يحتلون المقاعد متبادلين الحلوى والقبلات.

كبرياء ماليسي يوتر أعصابي ويرويني بالكرامة. لن أكون الثقالة التي تقوض تحليق بيدرو بابلو بالاثيوس، سأتجنب التدخل في حريته وصداقاته الجديدة، لن أسرق منه ندفة واحدة من ثلج بروكلين، لن يشوشه تذكري وهو يحضر جلسات استماعٍ من أجل الصيد الحقيقي للشمس في برودوي، ولن يكون ضرورياً أن يتصل تلفونياً بالبيت كي يعتذر عندما يذهب للنوم مع ممثلة خلاسية من هارلم، لن يحتج أحد على الساعات التي يقضيها تحت ملاءات أخريات للتدرب على مقاطع حواره في مسرحية ***من يخشى فيرجينيا وولف؟***

أراجع صفحات الإعلان في جريدة الميركوريو. قسم «سيارات للبيع». ماركات بويك، وكاديلاك، وشفروليه، بأسعار مغرية. بيع سيارتي الفاخرة نقداً سيكفي دون شك للعيادة، وللـ *one way trip*، واستئجار شقة من غرفتين على مقربة من ***كوني إيسلند***. وماذا لو أخبرته؟

سيذهب إلى الجحيم شعاري بأن الحب، في المقام الأول، هو حب حرية الآخر! ولكنني منخورة بالغيرة! غيرة حاضرة ومستقبلية وماضية! يغمى عليّ بمجرد تصوري يوماً أقضيه دون حضوره. كما أنني أشرب الحليب وأشتري من الصيدلية أقراص حديد. سيجارة واحدة في اليوم فقط. وأشخّص في المرآة إصابتي بقليل من فقر الدم. أخرج إلى الجامعة وأعود إلى البيت. أذرع شارع بولنيس، حيث توجد العيادة، وأرى مريضة تنزل من سيارة أجرة وتدخل برفقة صديقها. هناك نور بارد في التاسعة صباحاً. أنا بالمقابل، سأدخل وحدي. يوم الأربعاء 16، حسب تقويمي.

لا جديد بشأن بالاثيوس، باستثناء المستجدات عن قلبه الهائج.

سيحمل معه أعمال شكسبير الكاملة بالإسبانية، مطبوعة على ورق ناعم، فضلاً عن نسخة أصلية مستعملة بالإنكليزية. لقد وضع في الحقيبة الزرقاء ذات الأحزمة الجلدية ديوان أشعار لميسترال، *وإقامة في الأرض* لنيرودا. يصر على *ابن لص*. يستبعد جانباً *السماء تسقط مع الأوراق*، *وملائكة وعصافير دوري* لخورخي تيلبير. تضاف الأعمال المسرحية الكاملة لغارسيا لوركا، *ودع الكلاب تنبح* لفودانوفيك.

والبقية: بنطالا جينز، بنطال فانيلا رمادي، سترة من جلد الغزال مبطنة، وحذاء رياضي، وثلاثة *تيشيرت*، وقميصان، وربطة عنق هيبية أهدته إياها كيم نوفاك الأصلية. أتلمس هذه الملابس كما لو أنني أراجع صور الأسرة.

فجأة أتمرد. ماذا لو مضيت راكضة نحو الأكاديمية، وأخرجته من تمرينه على *فاوست*، وأخذته إلى أحد الأركان، وأشعلت له سيجارة، وهاجمته ببطني، وداعبت صدغيه، وبللت شفتيه، ومسحت عرقه، وعضضت قميصه، وأمسكت إليتيه، وضغطت نفسي إلى صدره، وانتزعت لثانية بريق عينيه اللتين بلون القهوة، واستثرته ببرق من الرموش، وجمدته بقرار ما أحمله منذ شهور؟

لماذا لم أفعل ذلك من قبل؟ ألم يكن *هذا الذي بيننا* يتوقع حدثاً بمثل هذا الحجم؟ لماذا بكل بساطة لا أعرض عليه اعترافي؟ لماذا لا أصرخ بأنني أريد أن أكون إلى جانبه، أشمه نهاراً وليلاً، ألعقه مثل ذئبة، متذللة عند قدميه، متحولة إلى ظل، إلى ظلِ ظلٍ، إلى ظل كلب؟

حب ملعون بصورة دقيقة! عليه أن يصيبني أنا! منبوذة البحر المحيط، بلا أبوين، ولا أرض، ولا ذكريات! وبدلاً من أن أصنع نفسي بنفسي، مثلما أعلنت في أيامي الضارية في ساحة البرازيل، أريد الآن أن ألتصق ببشرة رجل. ألي الحق في أن أكون طفيلية؟

الأسئلة وأجوبتها المحتملة شلتني. جميعها تقودني إلى الأمر نفسه.

وبسبب مسألة الأسلوب، لم أجد في متناول يدي قط شخصاً آخر كي أُثقل عليه بمشكلة. سأستهلك نفسي بناري وكفى!

ولكن، لحظة واحدة، توقفي هنا. من أجل الدراجة النارية يا آليا إيمار.

وماذا لو كانت أنانيتك هي التي تمنعك من الكلام؟ وماذا لو أنك ترفسين المنضدة وترين كل شيء مقلوباً؟ وإذا كان ما تحملينه في أحشائك من بيدرو بابلو، فإنه ينتمي إليه. هل لك الحق في سرقته منه، في إخفائه عنه، في قتله؟ وكان جوابي: أجل بالطبع. لأنني كنت إلى جانبه عندما قال والدموع في عينيه: *one way ticket to New York*. لم يستخدم إيماءة مجاملة لإلهائي، ولم يلاطفني بقافية من شعر بيكر، لم يلمّح قط إلى أنه يمكن لذلك أن يكون رحلة جوية مشتركة، لم يشعل أجنحة قدمي. وضع لي نقطة وفاصلة، نقطة على السطر، خاتمة.

إنه التطابق الأسري. فعندما ألقى بي الماليسيون إلى سلة وإلى المحيط، كانت وجهة عازف الترمبون بيت استيبان كوبيتا. هذا الذي لم يقفز من السفينة، المجتر الأبدي للآمال غير المجدية، المنتظر، راصد الآفاق الخاوية.

ظننت أنه يمكن لي أن أكون أخرى ومختلفة، لكنني أرى اليوم أن وسم الأسرة قاس، وأنه خُتم بنار متقدة على الجلد. فأنا أيضاً لن أصل إلى نيويورك. وكلما رغبت في الخروج من هذا القفص، سيطبع أحدهم دمغة على وجهي، مثل رسالة الاستغاثة التي أرسلتها قبل سنوات إلى راي كوبيتا: يعاد إلى المرسل.

النتيجة صفر.

أستعيد برودتي، أشد ظهري، أرسم حاجبي، أُشعث شعري، أُكشّر أنفي بتكبر، أترك حمالة الصدر في البيت، أفرك السيارة بشمع من أفضل نوعية، أشعل المذياع في اللحظة التي يبدأ فيها

خيرمان كاساس بغناء: *لدي حب كثير كثير لم أعرفه من قبل*، أنقر على المقود متابعة الإيقاع، أضغط نفير السيارة رغبة في إثارة الضجيج، أوقفها في شارع موراندي، قبالة قصر لامونيدا، وأصرخ بموظف يطل من نافذة القصر الرئاسي: لم يبق إلا بعض الوقت ليشغل الليندي هذا البيت! يبتسم، لكنه يومئ بحركة حاسمة، ضارباً قبضته براحة اليد الأخرى. أنزل من السيارة كما لو أنني ملكة الهواء نفسها، وعندئذ بالضبط، في اللحظة التي أتقدم فيها من مسرح أنطونيو باراس، حيث شفاه ونهود الفنانات زميلات بالاثيوس المتأهبة، أشعر بهزة رهيبة في بطني تشلني، تجمدني، تفزر مكياجي، تقبض قلبي، تنتزع مني صرخة ألم، سعادة، غيرة، ارتياب.

كان بالاثيوس، كما هي العادة، قد حجز لي مقعداً في الصف الأول. يقول إنني أمده بموجة طيبة، وإنني أولد ذبذبات تساعده كنوع من جسر كهربي يصهره بالجمهور. أتساءل إذا ما كان يدرك أن الشرر سيكون مضاعفاً هذه الليلة.

تربيت خفيف على الظهر وقبلة سريعة على الخد. في الصف الثاني تجلس كارمن لويسا إسبينوسا برفقة رجلين. إنهما من يقومان بدوري الزوج والعشيق في مسرحية *كارولين*. لقد دعا بالاثيوس سنتياغو بأسرها، ابتداء من الملوك وحتى المتسولين، إلى استعراضه الأخير السابق لانتقاله إلى أكاديمية «أكتورز ستوديو». أتفحص ديكور المشهد: كرسي بلا مسند، منضدة، صوفا جلدية؛ وفي أحد الجانبين هناك سرير ذو مسند حديدي متشابك في زخرفة دقيقة. أحك رأسي؛ ومن الخلف، تمسك كارمن لويسا إسبينوسا يدي وتشد عليها. أتركها تفعل كذلك، لكنها لا تفلتها هي لوقت طويل. أستدير وأسألها ماذا هناك؟ لا شيء، تقول لي. تقبّل ظاهر يدي، وعندئذ فقط تفلتها.

يستمر العرض ساعة واحدة، وهو نوع من الجمع المكثف لمقاطع

مـن أعمـال غوتـه ابتـداء مـن *فاوسـت*، تقـديم شـبه كامـل، بمقـاطع مقتضبة من حوارات ميفستوفيلس الذي يقوم بدور الراوي والجسـر بـين مـشهد وآخـر. إنهـا المـرة الأخـيرة الـتي سـأرى فـيها حبـيبي علـى منـصة مـسرح. كـل سـاعات سنتياغو تتقـدم مثل كـتيبـة واحـدة باتجـاه اليـوم التالي، ثلاثاء تعاستي، حيـث سيتمزق جـسدي مـن جديـد. فـي الثامنـة ليلاً ستمخر رباعية المحركات غيوم سنتياغو، وستمخر حياتي الخواء.

للعرض مشهد مقدمة موجز. ففاوست يتأثر بانفعـال عنـدما يتعـرف علـى الـصغيرة مجـدلينا ويطلـب مـن ميفـستوفيلس الحـصول عليهـا. لا يستطيع كبح انفعاله. الفتاة متواضعة، عفيفة، وهـي فـي الوقـت نفسه على شيء من المشاكسة. الشيطان يمنحـه إياهـا، ولكنـه يُدخلـه قبـل ذلك إلى حجـرة الفتاة كـي يتآلف مع الجو، حيث يمكنه أن يلـهو حتـى التخمة بالمتع المستقبلية المنشودة.

عنـدما يخففـون الإضـاءة ويمتلـئ المـشهد بتلونـات الأحمـر الأمغـر، يتقدم بيدرو بابلو باتجاه المقعد الجلدي، يلقي بنفسه عليه، ويقول نـصاً دون أن يرفع بصره عني لحظة واحدة.

احتضني أنت، أيها المقعد، يا مـن تلقيت الأسـلاف، فـي الأفـراح والمرارات، بـذراعيك المفتـوحين. آه! كـم مـن المـرات، تعلق حـشد مـن الأطفال حول عرش الآباء هذا! ولربما جاءت حبيبتي، بخدّي طفولتها النضرين، لتقبّل بورع يد الجد المتغضّنة، شاكرة له هدايا عيد الميلاد.

إنـي أشـعر فـي مـا حـولي، أيتهـا البنيـة، روح نظامـك ورفاهـك، تعلمك كل يوم بطريقة أمومية، وتجعلك تفرشين الشراشف النظيفـة على المنضدة، بل وأن تسوي الرمل، بتفنن، تحت قدميك. آه! أيتها اليد العزيـزة! الـشبيهة بأيـدي الآلهـة! مـن أجلـك أنـت! يتحـول الكـوخ إلى ملكوت سماوي.

سعى ممثلي الحبيب إلى أن يهجن جوته على طريقة براندو، عاجناً

الكلمات بمزيج من الرقة والخبث، ومضفياً على المشهد نوعاً من الومضة التشيلية. ولكنني رحت أشعر، فوق ذلك، بينما هو يقترب من سرير مجدلينا، بأن هناك تحت عباراته تياراً متناوباً وجهته النهائية أنا بالذات. ربما هي ذروة المداعبة الذاتية المراهقة، لكنني كنت أسمع نص الشاعر الألماني كما لو أنه كلمات لحن اقترحته أنا نفسي على بالاثيوس بصمتي.

أي رعشة متعة مرهفة تجتاح كياني! هنا أود أن أقضي ساعات كاملة! هنا. آه، أيتها الطبيعة، أنت كوّنتِ هنا في أحلام رقيقة هذا الملاك الفريد. هنا كانت ترقد، وصدرها الغض مفعم بالدفء والحياة. وهنا، بنشاط مقدس وطاهر، تكوّنت هذه الصورة الإلهية! وأنت! ماذا أتى بكَ إلى هذا المكان؟ يا للتأثر الحميم الذي أشعر به! ماذا تريد، ما الذي تبحث عنه هنا؟ لماذا يثقل على قلبك؟ آه يا فاوست المسكين! لم أعد أعرفك. أهو عطر سحري ما يحيط بي؟ دافع حي يسوقني مباشرة إلى اللذة، فأشعر الآن أني أذوب في حلم غرام. أترانا دمية لكلّ هبة ريح؟ وإذا ما دخلت هي في هذه اللحظة، كيف ستكفِّر عن خوفك! الشخص العظيم، آه، كم هو صغيراً، ساخر متذللا عند قدميها.

جرجر نفسه حتى مقدمة المنصة وتوقف قبالتي منهياً خطابة ببراعة، متحولاً إلى طفل. وصعقني في الوقت نفسه، بصورة خاصة جداً، بنظرة جريحة، مظللة بنبوءة شؤم، على حافة الجنون والتأنيب.

عزوت التخيلات التي تثقل عليّ إلى أشباح صمتي. إلى عجرفةٍ عصابية، معتقدة أنني شديدة الفطنة لشعوري بأنني لم أخطئ وأنا أقرأ تاريخنا التشيلي والمعاصر من فم حكيم ألماني.

خرجت مسرعة من الصف الأول، دون أن أصفق.

LV

تنازل الناقد هانز إهرمان بالمجيء لمشاهدة العرض، على الرغم من أن *فاوست* هذا كان ينتعل حذاء رياضياً، ويلقي عباراته بنبرة أكثر ملاءمة لدور روميو. دخن ثلاث سجائر في خمس دقائق وأبقى فمه مطبقاً، اللهم إلا عندما أكل الفطائر المقلية المعدّة مسبقاً للعيد الوطني. لم يكن يتيح بأي حال أن يستشف أحد رأيه، أو أن يوحي لأحد بما سيقوله في مجلة *إرثيا*. ظللتُ ألف حوله، ودون أن أذكر له شيئاً عن علاقتي بيالاثيوس، تجرأتُ على سؤاله عما إذا كان الممثل سيتعرض لـ *zerrisen*، وهو فعل ألماني يعادل تعبيرنا العامي «قلب الشيء رأساً على عقب» ـ أي شق الممثل وتشريحه ـ، أدخله هو نفسه ليشير به إلى تعليقاته الدقيقة حول الأعمال المسرحية.

لا يمكن لأحد ممن هم في *الجو* أن يجهل أن الناقد الفييني يحسن توقير هذه الكلمة ويمارسها بكثرة، ليس بسوء نية وإنما لتحسين مستوى العروض المسرحية التشيلية المنخفض. لا شك في أنه كان راغباً في أن يكون لطيفاً معي، لكنه ملأ فمه بالفطائر والسجائر كي لا يتكلم.

نظرت من بعيد إلى أنخاب النبيذ الأحمر التي يعرضونها على بالاثيوس. وعندما أدرت رأسي، استطعت رؤية كارمن لويسا إسبينوسا تتبادل الحديث مع جماعة من الحضور، لكن نظرتها كانت موجهة إليّ. أحسست بأنني محط شفقة، وسبب لي ذلك الغضب. إذا ما كشفت كارمن طرف خيط لأحدهم، فإنه سيستدرجها إلى أن تخبره بكل شيء. جميع ساعات تشيلي تتقيد هذه الليلة بالإيقاع نفسه: لقد بدأت عقارب دقائقها جميعاً بحفر قبري. بيدرو بابلو بالاثيوس ذاهب إلى المجد وأنا لأُدفن في صمتي. رفعت فكي بكبرياء، وأخذتُ من الجرسون كأس نبيذ.

أحضر بيدرو بابلو ملابسه في حقيبة قماشية علقها على كتفه، وسألني إذا ما جئت بالشفروليه. قلت له إنني ركنتها قرب قصر لامونيدا تيمناً بالفوز في الانتخابات الرئاسية. ففي الشهور الأخيرة كنت أذهب للتحريض السياسي في الأرياف أكثر من ذهابي إلى الجامعة. كنت أحمل إلى النوادي الشبابية الاشتراكية ترجمات لكلمات أغنيات بوب ديلان والبيتلز. وكنت أفقد أعصابي لمرأى الجميع يرقصون على أغنياتهم دون أن يفهموا ما تقوله. كنت أخطب فيهم ناظرة إليهم كما لو أنهم عرجان، أو كتعان، أو عميان. لأنهم حين يحرمون أنفسهم من الشعر، يتخلون بإرادتهم عن أكسجنة الأماكن العامة التي تقصفهم فيها الأغنيات المعادية.

أومأ لي بأن نخرج بأقصى ما يمكن من التكتم. لم أعلق بأي شيء، مع أنها حفلة على شرفة، وليس من اللائق أن يكون المحتفى به هو أول المغادرين. وضع الحقيبة القماشية على المقعد الخلفي، وطلب مني الإذن بأن يقود السيارة. قادها في شوارع مركز المدينة، توغل في بيافيستا، واتخذ وجهة ساحة البرازيل، وتوقف أمام موتيل. بعد أن أطفأ المحرك، لم يسحب مفتاح التشغيل. كان شعره مرصوصاً بمادة مثبتة للشعر، وكان حاجباه المرسومان بالمكياج يبدوان كما لو أنهما يطفران بصورة غريبة من وجهه الشاحب.

- إنها الليلة الأخيرة - قال.

- أعرف ذلك، يا بالاثيوس.

- وحتى الآن لا يوجد لدينا شيء خاص بنا. سنوات من التجوال وليس لدينا فراش يمكن أن نقول إنه لنا.

- لقد أولينا اهتمامنا لأمور أخرى، ومرت الأيام سريعاً.

- مرت الأيام علينا وسحقتنا يا آليا إيمار.

- ما نفع التأنيب الآن. لقد أمضينا أوقاتاً طيبة، وهذا يكفي.

ضغط بالاثيوس أصابع يمناه، وعض مفصل إحداها.

ـ تتحدثين عن علاقتنا بانفصام تام. كما لو أنك تتحدثين عن فيلم. غداً سأغادر يا آليا إيمار!

ـ كان علينا أن ننام حيث توجد حقيبتك.

قاد الشفروليه وتوجه عبر كانينغ حتى شارع ألاميدا، طريق باراغواي المحوري، فيكونيا ماكينا، وشارع إراراثابال. دخلنا إلى الحجرة بهدوء كي لا نوقظ دون لورينثو. جلسنا على السرير، بملابسنا، وتقاسمنا كأس سينزانو. وضع إحدى يديه على بلوزتي وراح يفك الأزرار بكآبة خياط. حل مشبك صدريتي الأمامي، وعندما سقطت قرّب يديه كما لو أنه يدفئهما على نهديّ.

ـ كان هناك جمهور كبير اليوم – قال وهو يخلع سترته.

ـ لقد كان نجاحاً باهراً.

ـ رأيتك تتكلمين إلى هانز إهرمان، هل أخبركِ شيئاً؟

ـ «مساء الخير».

ـ أهذا كل ما قاله؟ لقد ظللتِ طويلاً معه!

ـ المسألة هي أنه توقف طويلاً بين هاتين الكلمتين. أنت تعرف أنه لا يحب الكلام بسرعة.

خلعتُ تنورتي، طويتها، واستلقيت عارية على الفراش دون أن أخلع جوربيّ. إذا ما رأيتم يوماً امرأة عارية ترتدي جوربين، فهذه هي أنا. أولاً لأن الجوارب تعجبني، وثانياً لأن كعبي يبردان. ذهب بالاثيوس لإغلاق الستارة. راودني إحساس بأنه لا يريد النظر إليّ.

ـ التقيت بسمبسون الفريدة والوحيدة.

ـ لم أرها.

ـ جاءت قبل بدء العرض لتتمنى لي حظاً سعيداً. قالت إنها مولعة بالمسرح.

ـ الأصح أنها مولعة بالممثلين. عندما كنا نلعب في الساحة، كانت تقبلك باللسان.

جاءني بكأس فيرموت ورفعتها أنا بوقار، لكنني كنت أشعر بقلبي مطحوناً. حبي لا يريد النظر إليّ. بل إنه لا يلمسني. لم تكن هناك ليلة لا نبلغ فيها النشوة الأولى عبر الطريق السريع، وكان طقس اللهو هذا يثقل على حنجرتي.

ـ أرجوكِ أن تعذريني لكنني أشعر بشيء غريب.

ـ مثل ماذا؟

ـ إنه إحساس بالنذالة. أخشى أن ألمسك.

غطيت نفسي باللحاف وأطفأت النور. استلقى هو فوق الملاءات، وأحاطني بحيث يمكنه أن يحتضن نهدي وبطني وهو مستلق على جانبه. وضع شفتيه على أذني، وأحسست عدة مرات أنه يريد أن يكلمني، لكن صمتاً كان يتلو المداعبة دوماً.

ظللنا لدقائق طويلة بهذا الوضع. أنا مفتوحة العينين والموت هو الخيار الوحيد.

ـ في أي ساعة رحلتك؟ ـ همست.

ـ الثامنة.

ـ سأضبط المنبه على الخامسة والنصف.

ـ لا لزوم لذلك. فأنا أستيقظ دائماً مع بزوغ الفجر.

ـ طابت ليلتك إذن.

ـ طابت ليلتك.

الناس يقولون دائماً إنهم لا يستطيعون النوم طوال الليل، لكننا نمنا على الرغم من ذلك. حلمي كان وحيداً ومكروراً. سفينة تبحر من أنتوفاغاستا باتجاه أوروبا، وأنا كنت في السفينة، وكنت في الوقت نفسه بين المودعين على الشاطئ. وكما في لعبة ورق، أردت المطابقة بين الصورتين لا أدري كم من المرات.

لدى استيقاظي، كان بيدرو بالاثيوس ينظر نحو فناء البيت الداخلي. ولم يكن في هذا الفناء أي زينة باستثناء أصيص فيه شيء

من الحيوية الآن بفضل الربيع الوشيك، وقفص كبير فيه كناري يخفق بجناحيه ويبللهما في حوض ماء مصنوع من علبة سردين فارغة.

كان يفرك بين أصابعه سيجارة غير مشتعلة، ويبدو أنه يتأمل مفتوناً كيف يشتت النور الوليد الظلمة. نظرتُ إلى المنبه. كانت الساعة السادسة صباحاً. قفزت مسرعة. سمع بالاثيوس الضجة ووضع السيجارة في فمه. لم يكن يرتدي سوى السروال الداخلي وكنزة سوداء. نزعت بأظفاري مخلفات النوم عن عيني ومسحت يدي بالوسادة.

- إنها السادسة - قلت - لقد غلبك النوم.

- لم يغلبني النوم. لأنني لم أنم بكل بساطة.

- علينا أن نسرع. ستتخلف عن الرحلة.

اقترب مني وجلس على السجادة الصغيرة الخضراء ملامساً ركبتي العاريتين. وكان عليّ أن أتناول رأسه وأداعبه، بالرغم من أنني كنت بحاجة إلى قليل من الحنان بصورة كارثية.

- آليا إيمار، لم نتحدث في هذا الأمر لأنه لم يكن ضرورياً. منذ أن ارتبطنا لم نداعب لحظات الصمت قط بكلمات أو تفسيرات، لأن هذه الأسرار ممتلئة بنا نحن نفسينا، ولم تكن هناك حاجة لإدخال أي شيء آخر.

بحثت عن سترتي لأتدثر بها. فهناك برد ذئاب في صباحات سنتياغو.

- هذا صحيح.

- ومع ذلك، عليّ أن أقول لك الآن شيئاً يكسر اتفاقنا.

- لا حاجة بك لأن تفعل ذلك.

- المسألة أن هناك حالات صمت تكون قاتلة.

كان قد رفع عينيه فجأة لدى قوله هذا، وفي الحركة نفسها تقريباً نزل بهما حتى بطني. تصنعتُ قشعريرة وقاطعتُ يدي على ركبتي.

ـ يمكننا التحدث بهذا الأمر في السيارة. ستتخلف عن الطائرة.

تهاوى على الأرض مسنداً رقبته على يديه المتقاطتين. رأيت جرعة الهواء تدخل صدره وتنفخه إلى أقصى حد. راح يزفرها على مراحل، مثلما يعلمون ذلك في مدرسة المسرح من أجل إخراج الصوت جيداً من البطن.

ـ لا وجود لطائرة يا آليا إيمار.

ـ المعذرة؟

ـ مسألة الرحلة ليست إلا بدعة. إنه مونولوج ممثل شكسبيري.

ـ ولكنك قرأت لي رسالة سينيوريت يا بالاثيوس. وأريتني تذكرة السفر.

ـ إنه مقطع تخييلي. كنت بحاجة لأن يقدم لي المستقبل وعداً كي أتمكن من تفادي الحاضر.

ـ أهذا هو الوقت المناسب لتمثل مسرحاً معي! لقد قدمت عرضك الوداعي في مسرح شبه ممتلئ! وأنت أول تشيلي يُقبل في أكاديمية أكتورز ستوديو! إنه خبر السنة في المحيط المسرحي! ولن يتوانى أي شاب عن تقديم كبده وأضراسه مقابل أن يكون مكانك!

ـ لو كان الأمر صحيحاً.

تسربت الرائحة من شق الباب. كان دون لورينثو قد أعدّ القهوة. وبدأ الخبز يحترق أيضاً في آلة تحميصه. وبقفزة واحدة، وصل بالاثيوس إلى الكرسي، وارتدى بنطاله. تناولت المنبه وأريته الساعة بوضعها أمام أنفه.

ـ إما أن نخرج الآن أو لن تصل أبداً.

ـ أرأيتِ الآن كيف كان هناك شيء غير صحي في صمتي؟

ـ لديك تذكرة السفر يا بيدرو بابلو. ورسالة سينيوريت. ودعوة مدير الأكاديمية لي ستراسبرغ.

ـ لمثل هذا يقول بولونيو عن هاملت: «ثمة منهجية في جنونه».

رفع ذقنه متحدياً ومن خلال تقاطع عدة نوايا في نظرته لم أعد أعرف أيها أصدق. ولكي أخرج من الارتباك بدأت بارتداء ملابسي.

ـ ليس لديك ما تردين به عليّ؟

ـ وماذا تريدني أن أقول؟

ـ ألا يستحق الصمت المشوق كشف الغطاء عنه؟

ـ لا يخطر ببالي أي شيء. الشيء الوحيد الذي أريده هو إطلاق العنان لمحرك السيارة، وأن تغلق حقيبتك اللعينة، وننطلق مرة واحدة إلى المطار. أم أنك تريد قتلي ببطء؟

ـ ولماذا أقتل من أحبها؟

ـ لهذا الكلام وقع مقرف بالكامل ـ قلتُ وأنا أكبح كل واحدة من دموعي ـ، ولكن هذا هو ما تفعله.

ـ الرحلة في الثامنة. والطريق إلى المطار يحتاج إلى ساعة. لن نستطيع الوصول خلال عشر دقائق، حتى لو طارت سيارتك الشفروليه.

ـ أرني تذكرة السفر.

غُصتُ في حقيبته أقلب محتوياتها.

ـ لن تجديها هناك. بطاقة السفر كانت مجرد *fake*. مجرد ورقة مطوية لجعل الملهاة قابلة للتصديق.

ـ وكذلك حياتك؟

ـ لا أحب الاعتراف بهذا الأمر يا آليا إيمار. فالدوار مقرف بالمطلق حين يُحدثه انحدار أحدنا من بطل إلى وغد.

منحتُ الصمت وقتاً لأرى إذا ما كانت البهيمة القديمة تستعيد شرطها كحليف، شرط الكلب الوديع والدافئ. كنت أنظر إلى الساعة بين حين وآخر وألاحظ أن صرامة مسيرها الذي لا ينثني يلعب الآن لمصلحتي. بدأت سعادة مسمومة تعلن عن نفسها في تسرع نبضي.

ـ لا أدري لماذا فعلت ذلك، ولكن ـ تفحصتُ ساعة يدي وقارنتها بالمنبه ـ لم يعد لدي الآن سوى أن أصدقك.

ـ حتماً.

ـ ماذا ستفعل؟

ـ التهريج، على ما أظن.

فرقع أصابع يديه. إنني أعرف جيداً حركته هذه لوضع نقطة على السطر في حياته. ذهبتُ إلى الحمام. تمضمضت بماء مثلج، وتغرغرت عدة مرات. وقبالة المرآة، أردتُ عندئذ أن أتصور مرة أخرى كيف ستكون حياتي دون ذلك الزلزال. متابعة دروس *الدراما الأمريكية المعاصرة* مع البروفيسور روخاس في الساعتين الأوليتين. *النحو المتقدم* بعد الاستراحة. الغداء في مطعم «لاس لانثاس». الذهاب إلى الموعد في مقر لجنة التنسيق المنطقية للحزب الاشتراكي في الساعة السادسة.

وبيدرو بابلو بالاثيوس منذ الثامنة فما بعد.

كان الأب وابنه في غرفة الطعام يتناولان القهوة في فناجين كبيرة صفراء مزينة بمناظر بحرية. حييت دون لورينثو وطليت له شرائح الخبز بالزبد. وعندما قضمت قطعة الخبز الخاصة بي، أحسست بجوع ضار.

ـ الجو لا يزال بارداً مع أننا في الربيع تقريباً ـ علق الأب.

ـ هكذا هي الصباحات في سنتياغو. وعند الظهر تضطر إلى خلع الكنزة.

ـ سأستغل الطقس الجيد لإجراء بعض الإصلاحات هذه السنة... إصلاح السقف مثلاً.

ـ والساعة ـ قال بالاثيوس ـ إنها مسمرة منذ أيام على الرابعة.

صعدت إلى السيارة، ولكنني بدل الانطلاق نحو كلية التربية، اتخذت طريق شارع العاشر من تموز، وتوجهت إلى الغرب نحو حي كينتا نورمال. كان الجرس معطلاً، فقرعت مطرقة معدنية لها شكل رأس أسد مثبتة في منتصف الباب. فتح لي قاطع التذاكر، وكان يرتدي بيجامة وقميص فانيلا مخططاً.

- أريد التحدث مع كارمن لويسا - قلت له.

- ليست في البيت.

- أين هي؟

- في بالبارايسو أو كارتاخينا. لا أدري أين بالتحديد.

- دعني أدخل، ألديك مانع؟

- أقسم لك إنها غير موجودة. لديهم عرض لمسرحية *كارولينا* في منطقة الساحل. ادخلي وانظري بنفسك.

- لا حاجة لذلك.

نظر خلسة إلى السيارة وهو يزرِّر قميصه. قام بحركة كما لو أنه يداعب السيارة تخيلاً، ووضع إصبعين على فمه ليودع بقبلة.

- إنها جوهرة حقيقية، أليس كذلك؟

- الشفروليه موديل 56 صُنعت بإتقان.

نظر إلى فتحة صدري الذي كنت أستقبل فيه اليوم فصل الربيع أول مرة. وقال:

- ألا تريدين الدخول، أنفعل شيئاً؟

- لا بالتأكيد.

- وماذا تريدين أن أقول لكارمن لويسا عندما ترجع؟

- قل لها إنني سأقتلها عندما أراها. وإنها حشرية تدس أنفها في شؤون الآخرين.

بعد ذلك تركت اليوم ينساب، ممتنعة عن عرقلته بعواطفي. اتصلتُ هاتفياً ببيدرو بابلو كي أعرف كيف حاله وحسب. ردّ عليّ بأنه على ما يرام، بصوت له رنة معكرة. سألته إن كان راغباً في اللقاء بي، فقال إنه يفضل اللقاء بي في الغد. لابد أنه راغب في تنقية اكتئابه على انفراد. أغلقت الهاتف ثم اتصلت بالمتجر الذي على الناصية، وطلبت منه زجاجة شمبانيا وأن يُبرّدها جيداً قبل إيصالها إليّ.

تناولت العشاء هذه الليلة مع جوفانا وسيبولبيدا، وقد دار الحديث

حول ضرورة شراء جهاز تلفاز بالتقسيط. فهم يقدمون فيه مقابلات سياسية جيدة، وهناك برامج شديدة الفطنة مثل *أبيض على أسود ومثلث*. فقلت لهما إنهما يستطيعان أخذ مدخراتي لتسديد الدفعة الأولى.

ذهبت للنوم، ورحت أتفحص وأنا مستلقية صورة جدي وآليا إيمار في جزيرة جيما. لم يكن أي منهما يصوب نظره نحو عدسة الكاميرا. بل كانا يبدوان مشغولين بشيء يحدث بعيداً عنهما، ربما على الشاطئ.

عندما استيقظت في اليوم التالي، كان الوقت قد تأخر كثيراً عن موعد ذهابي إلى العيادة.

حملت إليّ جوفانا الفطور إلى السرير. لقد راحت تتحول مع مرور السنوات إلى سيدة تشيلية.

LVI

اليوم.

الكلمات والصور كلها متضمنة في هذه الصرخة.

اليوم ستصب في الشوارع أحذية ستة الفراسخ وببغاوات السبع لغات. اليوم ستزمجر الشاحنات، والخيول، والضواري في حديقة الحيوان.

اليوم يمضي طليقاً شيطانٌ يشدنا من بنطلوناتنا ويطبع قبلات حسن الطالع على مؤخراتنا.

اليوم ترفع الريح الأنقاض وتُطيّرها في الأعالي إلى أن تطحنها في السماء.

اليوم تتمدد الحدود وتنتفخ الرئات.

اليوم اجتمع هنا الألماني واليوناني، الماليسي والأندلسي، لاجئو السفينة **وينبيغ** والهاربون البرازيليون، الإيطاليون والسكان الإنكليز، البواخر والسفن الشراعية، المراكب وعابرات المحيطات وزوارق الكانوا، بحيرات تشيلي وأنهارها، والملاحات، وعمال المناجم ورواد الفضاء، المجانين والمعلمون، بنات الحياة والكهنة، الكلاب المتشردة والكلاب السلوقية، الشيوعيون والراديكاليون والاشتراكيون والاستقلاليون، الأطباء والمحامون، من لم يصدقوا قط، وحتى من لا يصدقون الآن ما يرونه ويصرخون به.

اليوم تدور أذرع الطواحين، تطير البيانات والمنشورات عالياً حتى السماء. وتكتب الطائرات بين الغيوم، في الرب اليوم ما يكفي الجميع. هذا هو في النهاية يوم المخرج، إنه اليوم المسامي الذي يتنفس منه كل شيء، إنه التقاء كل التواريخ، والتعويض عن كل الحملات الخاسرة.

اليوم لم تُطلق رصاصة واحدة. اليوم جرى دفن أنبياء المدافع والديناميت. اليوم تبددت حكاية أن الناس يستسلمون لإغواء الضوء الزائف. اليوم تغرد الطيور على أكتافنا. العمال يتقدمون بخوذهم الواقية من الأحياء الصناعية، ويأتي الفلاحون في شاحنات من المناطق المحيطة بسنتياغو، من لامبا، وتالاغانتي، وميليبيّا، وسان برناردو، ومن ثيستيرنا وبينيالولين. اليوم جاء الطلاب، الكسولون منهم والمجدون، الجامعيون والمعهديون، الثانويون والتجاريون، الزراعيون والجبليون، الأحزاب وشبيبتها، الراية الاشتراكية الحمراء مع الراية الأمريكية اللاتينية البيضاء، المنجل والمطرقة الشيوعيان، القبضة الخضراء مع نجمتها الحمراء لحزب المابوثيستيين الفلاحي، رايات اليسار المسيحي الزرقاء السماوية، راية أبطال الحرية للراديكاليين، ورايات جماعة المير الحمراء والسوداء، بائعات الحلويات في لاليغوا، الخبازون المعفرون بالدقيق، رجال الإطفاء المبللون، الراقصون وفرق

الباليه، الممثلات المبحوحات، الأطفال ذوو الرايات. ولو أن البراكين تمشي لكانت جاءت مع حممها، ولو أن نسور الكوندور تعلم لنزلت من أعالي الثلوج. على الساعات أن تثبت هذه اللحظة الحاسمة: فليتفضل أحدكم وينتزع عقاربها بأسنانه. لا بد من تثبيت التقويم بملاط الذهب.

اليوم يوجد تيار يحوك الناس كلهم في ألاميدا وميضاً يزيد من لم يشتعل قتامةً. من وراء النوافذ تطل بروفيلات الوجوه الخائفة، وجوه الارتياب، الإيماءة النفور للمنشقين، معكري الجو الاحتفالي ذوي القلوب الجنائزية، والعيون المحاطة بالازرقاق الحدادي، المصرفيين الباردين، الأغنياء المزدرين، الغربان التي تنقر غيظها، البندقية المترصدة والرصاصة الماكرة.

اليوم أجمعُ كل الخطى التي سرتها على الدروب وفي المستنقعات إلى جانب المرشح الرئاسي، في ثلاثين مدينة وقرية حملتُ إليها الخبر الطيب والنقي، وفي كل قرية أكدت بأرقام وإحصاءات واستمارات أن ما كنت أعلنه ممكن الحدوث. اندفعتُ إلى المدارس في الأيام الدراسية أمام أطفال هزيلين يسيل مخاطهم، وإلى مدارس البنات. وظهرت وسط مباريات كرة القدم بركبتين مزرقتين ووجنتين مخدشتين من البرد. قشرت عرانيس الذرة وأنا أروي قصصاً عن أشباح حول المواقد الفلاحية. وبخوذة ذات مصباح، شاركت المنجمين وجباتهم في مناجم لوتا وسلفادور. ومثلما غنى باتشوكو ياكسيك في إحدى الليالي، «آليا كادت تموت في تشوكيكاماتا»، كنت قريبة من الانفجار الذي يشق عروق المعادن أكثر مما يتطلبه الحذر والأنظمة. ثلاث مرات مررت من دكان ناصية برات مع إسمرالدا في أنتوفاغاستا، وفي المرات الثلاث تناقشت في السياسة مع بافلوفيتش إلى أن أهدى إلي موعظة أخلاقية كي لا أواصل التكلم في البلاهات. نزلتُ إلى وادي إيلكي طالبة من بالاثيوس أن يرافقني، لكنه لم يشأ

الذهاب لأنه لا يريد مقارنة عواطفه في ذلك الوقت بانفعالاته الجديدة الآن: كان يخشى أن يعكر بَرد الكآبة من حماسته.

خوسيه بالاثيوس كوبيتا، ابني الصغير، بلل بالحبر إبهامه وترك بصمته على سجل الزوار البارزين في بيت غابرييلا ميسترال، وقالت القيِّمَةُ على البيت: إذا لم يلطخ طفل سجل الضوء هذا، فلن يكون ثمة مبرر لكل ما كتبته غابرييلا من أشعار. ومن الشمال ذهبتُ إلى آيسين، وفي مزرعة أغنام تحدثت إلى الماليسيين ذوي الشوارب الكثيفة المنحوتين في الثلج، حدثتهم عن الإرث التحرري والاشتراكي لأسلافنا، وذكرت اسم العجوز كوبيتا، لأن ماركس ولينين لم يكونا البحرين الأحمرين اللذين أبحر فيهما جدي، لكنه أستنشق آفاق البحر الأدرياتيكي الهوميري، وخلّف من ملحه في دمي. لم يكن لدي أي رأس مال آخر سوى هذه الكلمات التي لا يُعثر عليها في المعجم، ولا حتى في الجامعة، وإنما في أنحاء ريفية ومدينية صغيرة مبعثرة، حيث تستقبلني المنظمة الحزبية براية حريرية للوحدة الشعبية، وربما بزهرة كوبيهوي حمراء كذلك.

كانت جماعتنا تقدم وعوداً مشرقة، أما أنا فلم أنطق بأي وعد كبير. بحثت في البرنامج الانتخابي وحددت بالمجهر أشد النقاط حساسية. فمرشحنا يعرض على الناس كشتباناً صغيراً من الآمال، يعرض شيئاً قريباً جداً من الناس، لكنهم لا يستطيعون رؤيته، يعرض كنز جرة حكاياتنا العربية، الزيت الذي يضيء مصباح علاء الدين، المن الساقط من السماء على الأنهار الميتة: ففي مدارس تشيلي كلها سيُقدم لكل طفل نصف لتر من الحليب في الفسحة الأولى بين الدروس. الحديث عن كأس الحليب المتواضعة هذه يجعلهم يغطونني بالقبلات وصرخات الانتصار، وأرى انتظام الأصوات للمرشح في أشد القرى عداء، في المناطق الوعرة حيث لم تدخل الأبجدية، لكن الموت جوعاً يرتادها بكثرة. كنت أقتبس من كتاب ألفه المرشح عندما

كان وزيراً للصحة في حكومة بيدرو آغيرّي ثيردا، ولو لم تكن الأرقام صحيحة لرفضها الناس كرفضهم لمسلسل رعب إذاعي مبتذل. بصوت مرتعد ومنذر، كانت قناعاتي تزيد من فعالية إحصائيات ذلك الزمن: *من أصل كل عشرين ولادة جديدة، يولد طفل ميت. ومن كل عشرة أطفال يولدون أحياء، يموت واحد قبل أن يكمل شهراً من عمره. لدينا ستمئة ألف شاب أمي.*

بعد انتهاء المهرجانات الجماهيرية، كنا نذهب إلى مقر الحزب، ونقيم حفلة بما تتضمنه حقيبتي من أسطوانات: تويست وروك أند رول، فالسات بيروانية وفلاحية، أغنيات كومبيا وميلونغا، وطبعاً جاز باتشوكو الذي يجعل إبر الفونغرافات تلتهب. في بعض الأحيان يرافقني بيدرو بابلو بالاثيوس وعدد من الرفاق في فرقته المسرحية، ويقدمون هناك عرضاً مسرحياً: *الحداد والشيطان* لجينيه، أو *ريتابليو دون كريستوبال* لغارسيا لوركا، أو *أرتورو والملاك* لخيمي سيلفا، حيث كنت أشارك في دور صغير، لأن هذه المسرحية الأخيرة تتحدث عن بطل أحلامي أرتورو برات. وكان رفاقي الاشتراكيون يطلقون تسمية «*الشيء الثقافي*» على تلك العروض التي يشاهدها الجمهور في العراء، حيث يقف المشاهدون فوق جمر ساخن لتدفئة أقدامهم. غناء فيكتور خارا وفرقة كيلاباليّون هي «*شيء ثقافي*»، إنتي إيماني وآنخل بارّا، «*شيء ثقافي*»، وقصائد وأغنيات فيوليتا وتشابيلا بارّا! «*شيء ثقافي*»، وفرقة المسرح الجامعي «*شيء ثقافي*»، كان «*الشيء الثقافي*» جرساً يُعلق في عنق البقرة السياسية لتبدو أكثر بهاءً. وقد كان باريثية مانس *شيئاً ثقافياً*. وشعار «الشعب الموحد لا يُهزم أبداً» هو *شيء ثقافي* أيضاً.

كلما قطع الفنانون كيلومترات بأغنياتهم، بأعمالهم المسرحية، بقصائدهم، بجدارياتهم الجماعية، يكشرون عن أسنانهم للرفاق في الجهاز الحزبي البيروقراطي الذين يعلنون في كل مهرجان سياسي عن

فقرة من *الشيء الثقافي*.

«اللعنة على الشيء الثقافي»، كتبها في إحدى الليالي بيدرو بابلو بالاثيوس على الجدار الوحيد الذي ظل دون خربشة في كونثيبثيون.

لكن الذكريات المريرة تكتسب اليوم نوعاً من الحلاوة. الأنبذة الحامضة لعقود من النضال لم تقوض إيمان المرشح الرئاسي. لقد هزموه مرات بالحيل والمكايد، حتى إن الوحدة الشعبية كانت على وشك عدم اختياره مرشحاً لها في هذه الحملة.

ولماذا لا يكون بابلو نيرودا هو مرشح الوحدة الشعبية الوحيد! يا للعار الذي كنت سأشعر به لو حدث ذلك، لأننا سنكون قد لطخنا بسوائل الشبق فراش رئيس الجمهورية في بيته في بالبارايسو!

ولأنني أؤمن بالتعويض عن الإساءات، فإنني واثقة من أنهم سيمنحون نيرودا الآن جائزة نوبل للآداب. وتخيلتُ الشعار المزدوج: «جائزة نوبل لنيرودا، والرئاسة لألليندي!» إنني أرى العنوان في الصفحة الأولى من *النيويورك تايمز*. أتخيل أندريس غوميس ستارك يكتب العنوان بنبيذ أحمر، وبافلوفيتش يبصقه بمرارة غدته الصفراء على صفحات *الهيرالدو*.

حظر علينا وزير الداخلية التوجه نحو قصر لامونيدا للاحتفال. فرجال أليساندري عصبيون، وبعض الزمر المتطرفة هددت بإنزال حملة مسدسات إلى الشارع إذا ما جرى الاعتراف بفوز زعيمنا. طلبوا منا بمختلف النبرات أن نلتزم *الحذر*. هذه كلمة لا وجود لها في معجمي، ولكنها تبدأ الآن بصقل قلبي كما يُصقل حجر خشن. لست أدري إذا ما كانت هذه فضيلة تدعو للتفاخر، أم أنها وصمة لن تروق لجدي الأول خوسيه كوبيتا. لقد كان إستيبان *حذراً* في أنتوفاغاستا إلى أن خذلته رئتاه، واضطررنا جميعنا إلى الانتقال إلى مستشفيات العاصمة سنتياغو.

أما رينو كوبيتا بالمقابل، فقد التهمته الأسماك قبالة منهاتن؛

والجد الأول خوسيه كوبيتا قطع رجال استخبارات الإمبراطورية النمساوية الهنغارية رأسه بسيف عريض في جزر ماليسيا. ربما لن يكون *الحذر* سيئاً. ربما أحسنا صنعاً بتهدئة أنفسنا، بكبح اندفاعنا، بضغط سعادتنا. وتابعنا بانضباط تعليمات «العم» سلفادور الليندي الذي سيتوجه إلى الشعب من شرفة مقر اتحاد طلاب تشيلي. إلى الأمام، إلى الأمام، عمال وطلاب!

خوسيه كوبيتا *الابن* يمضي محمولاً على كتفي أبيه من ساحة إيطاليا. تسبقنا فرقة موسيقية يتقدمها ترومبون باتشوكو ياكسيك، وترومبيت مانويل ميراندا كوتوروفو، وكمان تشيكو ليكاروس، وطبل مستعار من رفيق أرجنتيني يصرخ أحياناً «تقدم يا الليندي»، وفي أحيان أخرى «تقدم يا بوكا».

بيدرو بابلو بالاثيوس يرغب في أن يعرف إذا ما كان من الأفضل إنزال الطفل عن كاهله. يسأل عما إذا لم يكن الصغير معرضاً للأذى، وهو على كتفيه، في حال وقوع أي عمل جنوني، كأن يقذف أحد المتهورين حجراً. أقول له ألا يقلق. الطفل يهز علماً تشيلياً، إنه يشعر بالفخر نفسه الذي كنت أشعر به في طفولتي، عندما كنت أتمكن، وأنا محمولة على كتفي الجد، من رؤية السفن الكرتونية التي تحاكي الفرقاطة *إسميرالدا* وهي تغرق، وأرتورو برات وهو يدعو جنوده إلى الهجوم. فأقول له: إذا ما أصابتنا قذيفة وسط هذا الشلال من البشر، فسيكون أشبه بأن تصيب صاعقة أنفك. لكنه لا يقتنع. يُنزل الطفل عن كتفيه، ويصرخ بقوة: «الفوز!»، وأفكر أنا: إنه يعوض عن إخفاقه في السفر.

إنه أكثر جسامة وخشونة بعض الشيء. سنتا الحملة الانتخابية والأبوة روضت غرة شعره المتمردة وراحت عضة نظرته العدوانية تتهذب وتكتسب نبرة من العذوبة. لا ألمح فيه أثراً للندم على فقدانه فرصة السفر. إنه يحتفظ لنفسه بغرفة مستقلة في بيتنا، وفيها يعلق صور

ملهميه الجدد. آل باتشينو، روبرتو دي نيرو، وارين بيتي، إيزابيل أدجاني، بيتر فالك. ويضع بطاقة السفر التي أرسلها إليه لي ستراسبرغ للالتحاق بمعهد الأكتورز ستوديو في إطار بلا زجاج. عندما يزوره أصحابه لا يشير إلى البطاقة، ولكنه لا يستاء إذا ما اكتشف الأصدقاء وجودها وسألوه عن سبب عدم ذهابه. بل يجيب بهدوء بأن الوقت، بكل بساطة، لم يكن مناسباً.

يصل طلاب المعهد الوطني إلى مقر اتحاد الطلاب حاملين المشاعل. الدخان يجعلني أعطس. جوقتي الموسيقية تعزف معزوفة لجعل الناس يتمايلون: *When the saints go marching in*. ننتظم في رتل طويل. وفي دقيقة واحدة نصير ثلاثمئة. «إلى الأمام يا بوكا، إلى الأمام الليندي». بلاثيوس ينظف أنفه بذيل قميصه، حفيد خوسيه العجوز يريك تحركه، وفجأة ينظر الطفل إليّ من ذلك العلو الذي ترفعه مخيلتي إلى ما فوق أعلى المجرات. إنه يكتسي بالجد فجأة. كما لو أنه مستغرق في تفكير عميق. استغراق لا يتناسب مع طفل في هذه السن المبكرة.

ـ ماذا بك يا حبي؟ ـ أصرخ به ـ. لديك أمك، لديك أبوك، لديك الأصدقاء، لديك الشعب، لديك بلادك.

ينظر إلي دون أن يرد. يشير إلي أن أقترب منه، ويطلب مني أن أحكي له حكاية. ليس الآن يا صغيري. هذه الحكاية التي نعيشها أكثر متعة لأنها واقعية. لا يسمعني، ويريد حكاية، إنه يريد حكاية «بغلة الكاهن».

يطلب مني بيدرو بابلو أن أشعل له سيجارة. أفعل ذلك، لكن الطفل يسعل من الدخان. أنزله عن كتفي أبيه وأضمه إلى صدري. لا أكاد أصدق كيف كل شيء في هذا *اليوم* الذي يتسع ويزهر. غير معقول ما يطرحه صغيري في هذه الساعة، في هذه الدقيقة، في هذا الصخب!

إنه لا يعلم أن *السعادة* بانتظاره. مازلت غير قادرة على فهم أن يرى

النور، بعد عقود من الحمل، هذا الحدث المجيد: سلفادور ألليندي هو أول رئيس ماركسي يفوز بالاقتراع وليس بالسلاح، وأننا صرنا نجمة على الكوكب، وأن الطريق التشيلي إلى الاشتراكية سيشق دروباً سلمية أخرى، وأنه سيكون هناك سلام، وجمال، وحقيقة، وعدالة، *وشيء ثقافي*.

لكن الشيء الوحيد الذي يتلهف إليه ابني الصغير هو حكاية بغلة الكاهن، ويكون على بيدرو بابلو بالاثيوس أن ينحني ويركع على الشارع في أسوأ أسلوب كوميدي نابوليتاني، ويقول: «لا أستطيع أن أصدق هذا».

أعرف ما الذي يعنيه: فحكاية بغلة الكاهن هي التي كان عليّ أن أقرأها من كتاب *رسائل من الطاحونة* في امتحان *الخلوف* آريناس، في اليوم نفسه الذي توسلت فيه إليه أن يصفح عن حبيبي الذي ألقى به إلى مجاري سنتياغو بعد اقترافه جريمة النعيب بأغنية البجعة ودوسه سندوتشه المترع بالأفوكاو واللحم والمايونيز على سجادة العظماء في مدرسة الفئران تلك.

- اسمع يا خوسيه كوبيتا: *«على مسافة خمسة عشر فرسخاً في محيط طاحونتي، عندما يدور الحديث عن رجل حاقد وانتقامي، فإن الناس يقولون: "حذار منه. إنه مثل بغلة البابا التي تحافظ على رفستها الانتقامية سبع سنوات"»*.

مكبرات الصوت تعلن الآن أن ألليندي قادم، وأنه صار في الاميدا. الشعب المتحد لن يهزم أبداً. الرايات تهتز ولا شيء مما أراه وأفكر فيه يبرز في ذهني على الجموع. ما في عقلي وقلبي صور تتبدل وتتلون كما لو أنها على قطع زجاج متحركة، جميعها تومض لامعة وتتداخل في الوقت نفسه تتداخل.

باتشوكو ياكسيك هو الأطول والأعظم بين مؤيدي الرئيس المنتخب، يركض ساحباً ترمبونه إلى حيث تزدحم أعداد أكبر من

الرايات الخفاقة، لأن ذلك يشير إلى أن ألليندي يتقدم من تلك الجهة. وقد كان الأمر كذلك فعلاً، فقد شوهد الرئيس المنتخب قادماً من هناك باتجاه رابية سانتا لوثيا. وعلى سفوح الرابية بُحت أصوات الناس وهم يهتفون *الوحدة الشعبية!* وعلى الرغم من بعد المسافة، أتمكن من رؤية مواطني عازف الترمبون. لقد توقف مثل قاطرة أمام السيارة التي تقل الليندي، وبينما هو يمد سحابة الترمبون ويعيدها، كان يبدو كما لو أنه يسحب السيارة، وكل ذلك وهو يعزف بحركات مضحكة لحن *سننتصر* للجمهور الذي يريد الآن منع السيارة من التقدم ومعانقة قائده.

وأخيراً يتمكن رئيس تشيلي الجديد من الوصول إلى مقر الاتحاد الطلابي.

إنني أعرف عن قرب هذه الكرامة وهذه العاطفية. النظارة السميكة المربعة تضفي عليه، في الواقع، هذه الصرامة الأبوية التي لا بد لمن يحكم من أن يمتلكها. ولكن، وراء النظارة هناك مهرجان دموع لا يلمحه أحد، يبتلعه الرئيس الآن وهو ينزل من السيارة رافعاً قبضته عالياً.

أجل، إنه الرابع من أيلول 1970، وفي منطقة الاميدا بمدينة سنتياغو، بين مئات ألوف البشر الذين يلتحمون مشكلين شخصاً واحداً، توجد جوفانا متأبطة ذراع سيبولبيدا، ويتراكض الأخوان سيلفرمان ملامسين مؤخرات الفتيات، وينفخ خيريا نايه بلحن لموزارت بالقرب من المسبح في ساحة بولنيس، ولا بد أن كارمن لويسا إسبينوسا والممثلين المشاركين معها في مسرحية *كارولينا* قد ألغوا تدريباتهم اليوم في شارع لاستاريّا، ولا شك أن دون لورينثو مازال يجلس قبالة تلفازه، يجمع نتائج التصويت الجزئية المتفرقة، ويُجري حساباته الخاصة ليوحي لنفسه حتى الفجر بأن فوز أللييندي ليس صحيحاً. ولا بد أن بافلوفيتش يتناول منشط الفاليريانا وينشط قلبه ذا

التسعين سنة لينضم إلى البلاد في النبوءات الإعصارية المتضاربة. ولا بد أن قاطع تذاكر سينما القصر يُعدّ زجاجات الحليب لإرضاع أطفاله. وهناك في بالبارايسو، على قمة رابية سعيدة ومزدانة بألعاب نارية، يفتح الشاعر بابلو نيرودا إحدى زجاجات نبيذ إبحاراته، ويقرع كأسه بكأس زوجته ماتيلدي.

أما أنا فاحتضن ابني خوسيه كوبيتا وزوجي بيدرو بابلو بالاثيوس. أعرف أنني أنتمي إلى هذه البلاد، بالرغم من أن موظفي الهجرة يَسِمُونني بخاتم عديمي الجنسية. أعرف أنني قد غرست جذوري في هذه الأرض بكوني أماً وزوجة، وأنه لا يمكن حدوث شيء خبيث مادام هناك حب، ومادام في أنفاسي شهيق وزفير جدتي آليا إيمار.

أرى الآن باعتزاز أليندي وهو ينزل من سيارة الشفروليه دي لوكس العتيقة موديل 56، وأعي أن الرجل والسيارة قد امتلكا القوة والصلابة الكافيتين لعدم الانهيار في منتصف الطريق. فقد كان «العم» الدكتور مرشحاً للرئاسة في انتخابات 52، و58، و64، و70، ولا بد لي من القول إن محركه لم يتعطل قط. لم يفقد السيطرة قط على المُسرِّع، لم يختنق المحرك يوماً، وبالرغم من أن عجلاته قد ثُقبت أكثر من مرة، إلا أنني لا أتذكر أن نفيره قد بُحَّ ساعة واحدة؛ فبعد كل هزيمة كان يعيد شحن بطاريته، وينظف البواجي والبلاتين، ويركب فلاتر جديدة لا تسمح بمرور الذبذبات الخبيثة، وكان الزيت يتدفق في المحرك المتجدد، وكانت عملية احتراق الوقود نظيفة وقوية وهادئة.

الحمد لله أننا بقينا في تشيلي.

صار الجو بارداً على الطفل. دثره بلاثيوس بسترته، وجاء سائق الرفيق الرئيس ليعيد لي مفاتيح السيارة.

نصعد إليها نحن أصحابها: بيدرو بابلو بالاثيوس، وخوسيه كوبيتا الصغير، وأنا.

يسألني ابني: هل يمكنني يا ماما؟ فأقول له: يمكنك بالطبع.

وعندئذ يرتمي على الكلاكس. يضغط عليه، يشد يده، ويختلط نفيره بالصرخات التي تحيي الرئيس المطل من الشرفة، وتتعالى إلى السماء صرخات النصر.

5 أيلول 1970

في أنتوفاغاستا يولد المرء بمشقة ويموت دون مبالاة. الصحراء تجعل الناس غير مبالين إلى التظاهر. ولأن الجميع يرغبون في الذهاب من هنا، فإنه من النادر أن يأتي أحد. من الهضاب إلى البحر هناك انحدار شديد، والشاحنات الصاعدة على الاسفلت المشقق بفعل الشمس القوية، تتوقف ملتصقة بالإسفلت أحياناً في منتصف الطريق. الحر شديد، والناس لا يخرجون لقضاء حاجاتهم إلا مع برودة ما بعد القيلولة. أنا ممتنع عن القيام بأية مساع، لأنني أعرف أن أية مساع استثنائية، أو أي إجراء إضافي، لن يوصلني إلى أبعد مما أنا عليه. معظم سكان المدينة، لا سيما المهاجرين الماليسيين، يشاطرونني هذا التفاؤل.

خلال أيام العمل أكتب مقالاتي السياسية للصحيفة المحلية، وفي أيام الآحاد أُعد الملحق الثقافي بحماسة.

بالتحديد في هذا الشهر الذي شهد قلاقل سياسية كبيرة، حيث أفلت زمام بهجة البعض في مقابل ذعر آخرين، وانقلب اهتمام الرأي العام إلى أحداث تشد اهتمام العالم بأسره، أرسلت إليّ آليا إيمار كوبيتا مخطوطة رواية، عنوانها «فتاة الترومبون»، لن يكون من السهل نشرها قبل شهر آذار، عندما يتولى الرئيس المنتخب مهام منصبه. فالاغتيالات وعمليات العنف الإجرامية تخف، وتستعيد تشيلي لقبها كبلد شعراء، مثلما يعرفها العالم. ولأنني أقرب إلى أن أكون محافظاً، مثل جميع من فقدوا موطنهم ثم وجدوا مكاناً في العالم يرغبون في حمايته، فقد تجنبت في مقالاتي السياسية الإصابة بعدوى الحماسة الثورية، وأشرت سابقاً بصراحة، لا تصل إلى حد السباب

المهين، إلى العجز في التكوين السياسي لكثيرين من أولئك الذين يرافقون الرئيس المنتخب الجذاب، ويتبادلون في ما بينهم لقب الرفاق.

لن أتحدث بالتالي عن الحماسة السياسية في «فتاة الترمبون»، ولا عن الصورة التي تقدمها الرواية لجيل جديد مختلف تماماً عن جيلي، ولا عن عفوية أسلوبها، ولا عن بعض الاختلافات والتباينات مع الواقع التي لا يفترض بالكاتبة الشابة أن تعرفها بالضرورة، في حين يعرف ثعلب ماليسي عجوز مثلي أدق تفاصيلها.

سوف يتولى النقاد أمر الحديث عن هذه الرواية، حسب أهوائهم، أو حساسيتهم، أو مصالحهم. أما أنا فساكتفي بالحديث عن أقصر وجه من وجوه الرواية وأشدها جلاء، عن العنوان. فتاة الترومبون.

في شهر كانون الأول من عام 1944، وجدت نفسي أشاطر المهاجر الماليسي استيبان كوبيتا الصمت، وكلانا جالس على المصطبة أمام المتجر، عند ناصية تقاطع شارعي بروت واسميرالدا، عندما لَمَع وميضٌ مبهر من أسفل، جعلنا ننهض معاً فجأة، ونضع يدينا كواقية فوق حواجبنا، ونمسح بنظرنا الضوء غير المتناهي الذي بدا أشبه بزلاجة من الذهب أو هوائي من الألماس.



بعد النجاح العالمي لرواية(ساعي بريد نيرودا) أبحر الكاتب التشيلي انطونيو سكارميتا في قـــص ملحمة فريدة : ملحمة سكان ساحـــل ملبسيا على البحر الأدرياتيكي الذين هاجـــروا إلى تشيلي هرباً من الحروب و العنف .

في روايته السابقة (عرس الشاعر) . روى أســـباب ذلك الهروب . والمصير الغريب للأخوين كوبيتا : فأولهما ألقى بنفسه إلى البحـــر عندما لمح منهاتن . وواصل الثاني الرحلة إلى أن رست به الســـــفينة في تشيلي.

وفي روايته الجيدة الآن . (فتاة الترومبون) . يواصـــل القصة في الأراضي التشيلية . حين يســـلّم عازف ترومبون الى إستيبان طفـــلة في الثانية من عمرها مؤكداً له أنها حفيدته.

تصميم الغلاف: رياض نعمة

ISBN:2-84305-854-X
9 782843 058547